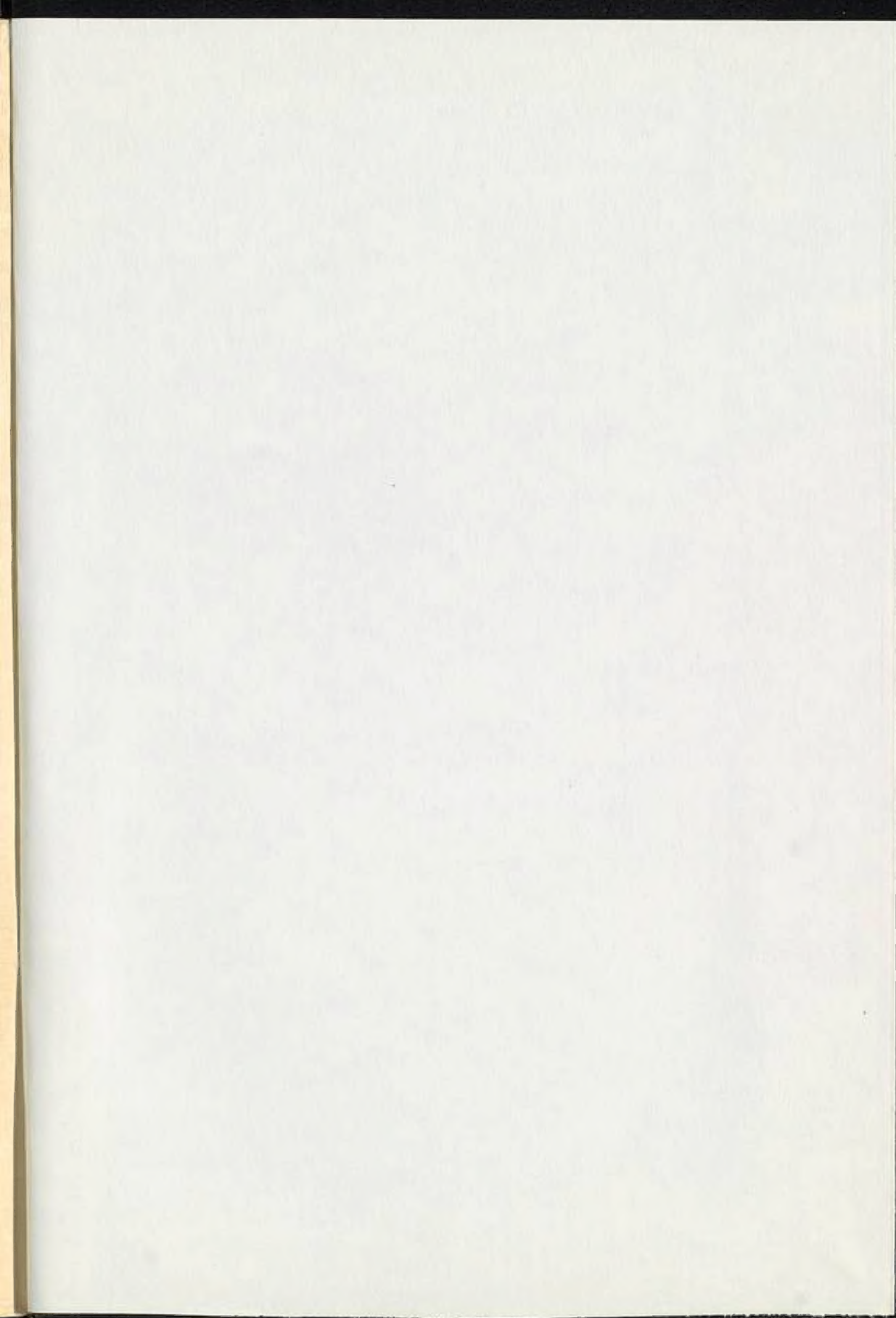


1871



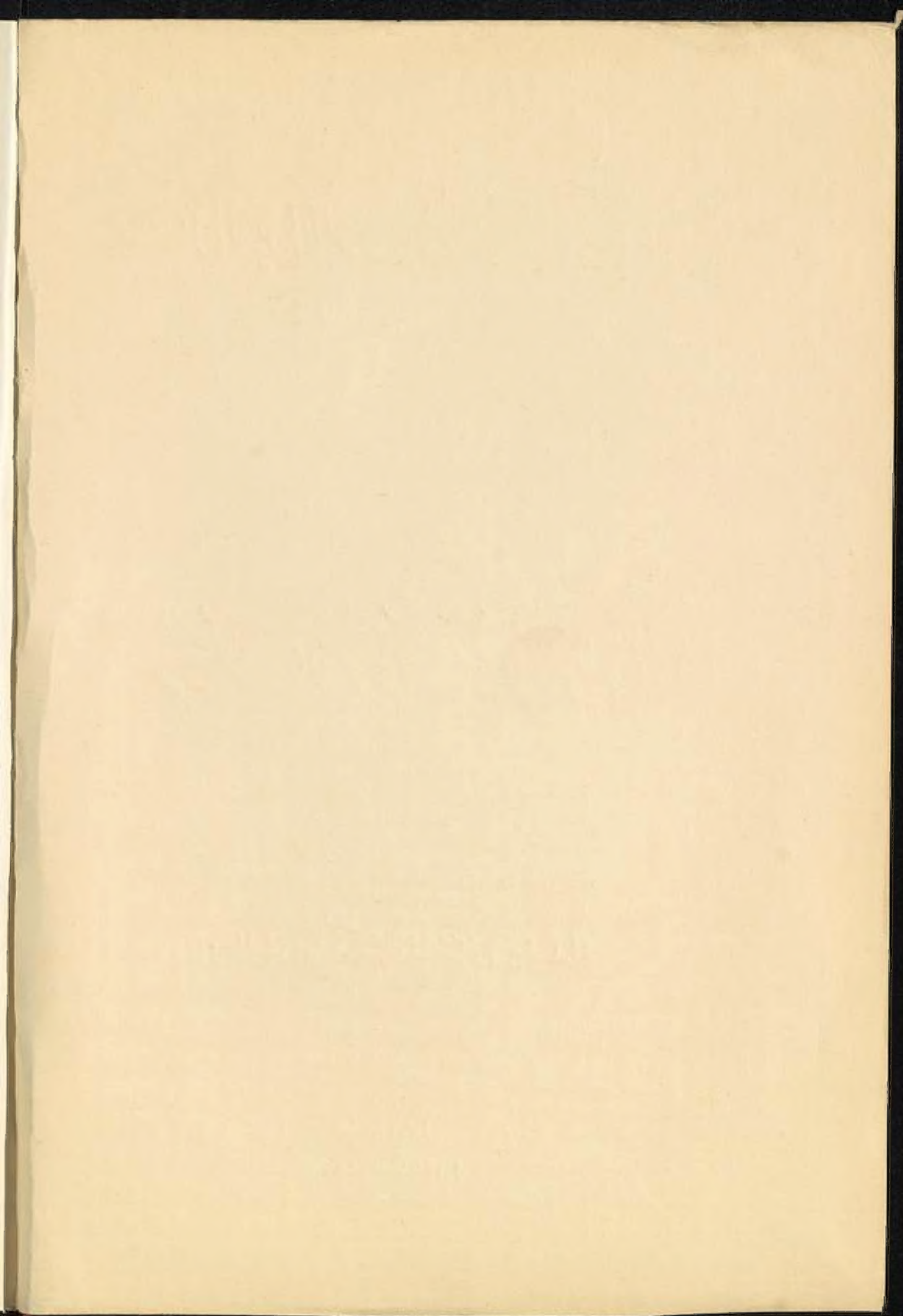
جمال الدين الألويسي

الأوب الزيات في العراق

يطلب من مكتبة المشفى بغداد

الطبعة الاولى

١٩٧١م - ١٣٩١هـ



جمال الدين الألويسي

أدب الزيت في العراق

الطبعة الاولى

١٩٧١م - ١٣٩١هـ

PJ
GOGH
.Z3
A4

للهدية

الى الذين تروقهم الكلمة المهندسة ويطربهم الاسلوب البليغ .
الى الذين يرون استخدام العامية في التعبير والتحرير اثماً دينياً
وقومياً وهم قادرون على اصطناع الفصحى .
والى الذين يحسبون الفصحى الدعامة الاولى للجامعة للوحدة العربية
أهدى هذه الاشتات .

جمال الدين الأتوم

ed 2
8/05/20
Exdhang

Chapter

The first thing I noticed when I stepped out
of the car was the smell of the sea. It was
a salty, fresh scent that I had never before.
The air was cool and the sun was just
beginning to set. The water was a deep
blue and the sky was a mix of orange and
purple.

It was a beautiful sight.

مُقَدِّمَةٌ

الزيات أحد الكتاب القلائل الذين يكتبون لغتهم عن علم ، ويفهمون أديها عن فهم ، ويعالجون أديها عن ادراك ولا سيما البارزون منهم ، خلا مكان العقساد من قبل خمس سنين ، وهذا ان الأجل المحتوم يخلي مكان الزيات في الثاني عشر من شهر أيار سنة ١٩٦٨ . وطه حسين يعاني العلة حبيس الفراش عافاه الله وإبقاه للأدب واللغة ذخراً .

والزيات أقوى الثلاثة اسلوباً وأوضحهم بياناً وأوجزهم مقالة وأنقاهم لفظاً ، يعني بالكلمة المهندسة ، والجملة المزدوجة ، وعند الكثرة الكثيرة هو أكتب كتابنا في عصرنا .

عرف الزيات العراق واحبه منذ خمسة وثلاثين عاماً ، وهي مسدة من الزمان اكتمل فيها شباب ، وشاخ فيها كهول ، واختفى فيها جيل ، ونجم خلالها جيل ، غير ان افكاره لم تغيب عنا طوال هذه الحقبة ، وقلمه الرفيع ظل يواصلنا بالقول الجديد ، ويزودنا بالرأي السديد ، ومترجماته ومؤلفاته ما زالت مصدراً ثراً ويتبعوها سائفاً لمن يتذوق الكلمة المهيبة والصورة الجمالية أو الفكرة الهادفة ، والزيات أشد الناس التزاماً بالأساليب العربية المشرقة وأكثرهم عنساية باللفظ الانيق للمعنى الرفيع ، يعرف للكلمة حقها ويقدرها قدرها ، وهو القائل في الدفاع

عن البلاغة : « وفي اختيار الكلمة الخالصة بالمعنى ابداع وخلق ، لأن الكلمة مينة ما دامت في المعجم . فإذا وصلها الفنان الخالق بأخوتها في التركيب ، ووضعها في موضعها الطبيعي من الجملة ، دبت فيها الحياة ، وسرت فيها الحرارة ، وظهر اللون ، وتهيأ لها البروز ، والكلمة في الجملة كالقطعة في الآلة ، إذا وضعت موضعها على الصورة اللازمة ، والنظام المطلوب ، تحركت الآلة ، وإلا ظلت جامدة ، والكلمات أرواح ، والزيات صاحب رسالة ، رسالته ظلت تبشر بالأدب ، والفن ، والحرية ، والعروة والإسلام .

والزيات جاحظ القرن العشرين ، ارتقى بالمقالة حتى تسنمت قمة الكمال ، امست واضحة لها دلالتها الدقيقة المحددة الأبعاد ، والمتساقطة الأفكار ، بيان مشرق ، ووصف مقصود ، وأدب هادف ، تغرس الوطنية ، وتربي الكرامة ، وتزرع العزة ، وتنمي القومية ، وتعمق مفاهيم العروبة ، يوم كانت مفاهيم العروبة غائبة في أذهان الكثرة من الساسة والمثقفين هنا وهناك .

والزيات علم من شوامخ أعلام الأدب العربي في العصر الحديث ، ورأس مدرسة ما زال ينهل من معينها العذب المتأدبون وعشاق الأناقة الذين تروقه الكلمة الانيقة والجملة البليغة والفكرة المدروسة .

وكان لمدرسته أثرها في توجيه الجيل إلى نشر العربية والثقافة الإسلامية .. أبرزت كتاباً ، وخلقت كتاباً ، ووجهت الأدباء إلى رحاب القومية المتفتحة ، ونأت بهم عن الإقليمية المغلقة ، وانطلقت باقلامهم إلى القيم العربية الحضارية ، وظلت رسالته ملقطة لشيوخ الأدب ومحتوى لأقلامهم ، ومنبراً لأفكارهم ، وميداناً لنقدهم وآرائهم .. فإذا ما انقطع عنها رائد ، حل مكانه عائد يعود عليها بدم جديد وأدب

من لون طريف ، وكانت مدرسة لكتساب جذد ناشين ، ضقلت أفلامهم ،
وأشاعت أفكارهم ، ورفعت أقدارهم ، وعوضت قراءها من فقدوا من
الشيوخ الذين كانوا الطلائع من كتبها ، كأمثال الدكتور طه حسين ،
وأحمد أمين ، ومحمد كرد علي ، والرافعي ، والمازني ، والعقاد ..

ربت جيلا ، وأنشأت أدبا ، وهيأت أدباء ، وقامت على صفحاتها
معارك النقد والتجديد . ربع قرن وهي تبشر بالعروبة النامية والافكار
الواعية ، وتعتبر عن الأحداث الكبرى التي تشغل الرأي في العالمين العربي
والإسلامي ، وتعرب عن المشاعر والأحاسيس التي تصطرع في نفوس
المواطنين في أقطار العروبة من المحيط إلى الخليج ، فكانت مقالات
الزيات تقف بالمِرصاد لأعداء العروبة والإسلام ، الذين راحوا بدعاياتهم
المضللة يشككون أبناءنا بقبليات أمتهم ، ويهدونهم بمقومات حضارتها ،
ويفسدون عقائدهم ، فكانت مقالات الزيات تنير الطريق ، وتغرس
العقيدة ، وتجدد الأمل ، وتبني المعنويات .

كان صدور الرسالة بعد عودة صاحبها من العراق ، فقد ندب الزيات
للتدريس في العراق سنة ١٩٣٩ واستمر لبثه فيه الى سنة ١٩٣٢ ثلاث
سنين مليئة بالعمل والفكر ، اختلط فيها بأدبائه ومفكره وقاداته
وشعرائه ، فتملأت أفكار الدعوة للقومية العربية وللوحدة ، عرف
أبعادها وأفكارها من كبار دعائها ، مثل فيلسوف القومية ساطع الحصري ،
والثعالبي ، وباسين الهاشمي ، والشبيبي ، والزاوي ، والأثري ، والرصافي ،
والزهاوي ، وطه الهاشمي ، فظهرت الرسالة في زمن نضج فيه تفكير
صاحبها بالعروبة في الزمن الذي نفص فيه الكائن العربي عن نفسه الخمول
والخنوع ، وراح يتطلع الى التخلص من الاستعمار وإلى حكم وطني حر
غير مقيد أو مكبل بقيود المعاهدات . صدرت الرسالة في وقت برزت
فيه ملامح الشخصية العربية واضحة ، وتحركت فيه التطلعات العربية

الى حرية كانت مؤودة ، وحقوق كانت مهدورة ، وكرامة كانت مضاعة
في العراق ، في مصر ، في سورية ، في الجزائر ، في المغرب . ثورات
ومناهضات للاستعمار ، ومظاهرات وثورات على عملائه وأذنايه .

في هذا الزمن المضطرب بالافكار المتناقضة ، صراع بين القديم
والحديث ، وصراع بين الرأسمالية والاشتراكية ، وصراع بين الرجعية
والتقدمية ، وتزاع بين المحافظين والمجدين ، وعراك بين الاقليمية الضيقة
وبين العروبة الرحبة الواسعة الشاملة للوطن العربي مغربه ومشرقه ،
فكانت الرسالة ثورة على الجحود على القوالب المألوفة في التحرير والتعبير ،
وكانت مشعلا لإنارة الدرب للسائرين من المتأدبين .

مولد الزيات ونشأته :

ولد الزيات عام ١٨٨٥ في قرية « كنفرد ميرة » من مركز « طلخا » ،
وتلقى علومه في الأزهر ، مكث في هذه الجامعة الكبرى عشر سنوات
يتلقى العربية والشريعة والتأريخ والأدب ، وظهرت بواكير أدبه فيما
كان يحبره من مقالات اجتماعية وأدبية ونقدية للأزهر خاصة ، نشرتها له
صحافة ذلك العهد ، ثم انتقل الى الجامعة المصرية القديمة مع زميله
طه حسين ، مما أثار فائرة شيوخ الأزهر عليهما ، وكتب في « الجريدة » التي
كان يصدرها أستاذ الجليل احمد لطفي السيد وكتب في مجلة مصر الفتاة
التي نشر على صفحاتها بعض الفصول الأدبية مع صديقه طه حسين ، وكتب
في مجلة السياسة التي صدرها الدكتور حسين هيكل .

الزيات في الأزهر :

وصف الزيات حياته الأولى في الأزهر ، قال : « كنتا ثلاثة ألفت
بيننا وحدة الطبع والهوى والسن ، فالطبع مرح فكاهي ، والهوى درس
الأدب وقرض الشعر ، والسن فتية لا تجاوز السادسة عشرة » ، وكانت

طه قاعدة المثلث ، ومحمود زناقي وأنا ضلعيه القسائين . أو كان المبرّد صاحب الكامل قلب الطائر ، والزخشري صاحب الكشاف وثعلب صاحب الفصيح جناحيه الخافقين ، لكتب بها بعضاً ، لزرعة فكرية أو فنية كان يزرعها كل منا في نظر أخويه ، ووجه الشبه بيننا وبين الطائر ، فإن حياتنا كانت كحياته تردد إلى كل روضة ، وتغريد على كل شجرة ، وتحليق في كل جوّ ، كنا نلتقل من حلقة العلم إلى درس الأدب ، ومن درس الأدب إلى مجلس الشعر ، إلى دار الكتب ، ومن دار الكتب إلى الجامعة المصرية القديمة ، ومن الجامعة إلى إدارات الصحف نعرض عليها ما كتبنا نسميه يومئذ شعراً ، ثم ننتهي إلى دار أجدنا فنتدارس ما حصلنا من علم ، وتتناكر ما حفظنا من أدب ، وتتناذر بما سمعنا أو رأينا من سخف ، فإذا أخطأنا أو نسينا لجأنا إلى ذاكرة طه العجيبة ، فتعيد ما وعت لا تحزم منه حرفاً ، فنصحح أو نستكمل أو نستفيد . وإذا سئمنا أو وثئسنا ، فزعنا إلى حافظه محمود الخصيبة فيسرتي عن خواطرنا بقطعات من أعذب النوادر يحكيها عن نفسه أو يرويها عن أبيه ، ويضيق الطائر بقلبه النابض بالأمل والحب ، ويحناحيه الخافقين بالخيال والنشوة ، يضيق نفسه بعشه الباعم في ركن من الرواق العباسي بالأزهر فيخرج إلى هدوء الطبيعة ، يستمتع بفنائها في خائل المطرية ، أو في حدائق الجزيرة ، فنتصل بالحياة المصرية ، وننال من ثمار المدنية ، ثم نعود إلى الأزهر فنجد الاختلاف شديداً بين حياته وحياة الناس ، فنطلق ونثور ، ويكون حظ هذا القلق وهذه الثورة التمرد على الأزهر المنعزل من العالم ، والسيح من الطلاب ، والعبث بالشيخو الجاهلين بالأدب .

وسافر الزيات إلى باريس ، ودرس الحقوق ، وتعلم الفرنسية ، وترجم منها ، وافتتن بأساليب كتابها ، غير أنها لم تصرفه عن لغته ، ولا

طفت بأساليبها على أسلوبه العربي الأصيل ، وفي هذه الفترة التي أصابه فيها حب فتاة فرنسية شغل قلبه وفكره ، وقع نظره على قصة للشاعر الألماني الكبير (غوته) هي - آلام فرتر - قصة الحب الخالدة ، فبأثر أن يترجمها ، لأنها تعبر عن عواطفه المكتومة .
فقال في العوامل التي دفعت به الى ترجمتها سنة ١٩١٩ :

« كنت أجتاز هذا الحين وأنا شاب طرير ، حصره الحياء والانقباض والدرس ، ونمط التربية ، وطبيعة المجتمع ، في دائرة ليس فيها من الواقع غير وجوده ، واحساس مشبوب يتوقد بالجمال ، وقلب غريب يتجرق ظمأً الى الحب ، فالطبيعة في خيالي شعر ، وحركات الدهر نغم وقواعد الحياة فلسفة . وكان فهمي لكل شيء ، وحكمي على كل شخص ، يصدران عن منطق أفسد أقيسه الخيال ، وزور نتائج المثل الأعلى ، ثم فجّر هذه الحال التي وصفت هوى دخيل هادئ . وأحسست أن وجودي الخالي قد امتلأ ، وقلبي الصادي قد ارتوى ، وحسي الفائز قد سكن ، ورحت أسلك هذا الطريق السحري محمولاً على جناح الهوى ، حتى ذكرني الزمن القافل ، فأقام فيه عقبة الخيال بالواقع ، والحبيب بالخطب ، والعاطفة بالمنفعة . فلما قرأت « آلام فرتر » سمعت نواحاً غير ذلك النواح ، ورأيت روحاً غير هاتيك الأرواح ، وأحسست حالاً غير تلك الحال ، وكنت أقرأ ولا أدري في الحادثة سواي ، وأشعر فلا أشعر إلا بهوي ، وأندب ولا أندب إلا بلوأي . »

وفي هذه القصة المعبرة عن أحاسيس الشباب ، قال غوته لصديقه كريمان :
« وكل امرئ يأتي عليه حين من دهره ، يظن فيه أن فرتر إنما كتب له خاصة » .

والزيات في ترجماته لا يكتفي بالنقل الحرفي ، وطريقته : « أنني

أترجم النص الأجنبي الى العربية نقلاً حرفياً ، ثم أعود فأجربه على الأسلوب العربي الأصيل ، ثم أعود مرة ثالثة فأفرغ في النص روح المؤلف ، وشعوره باللفظ الملائم ، والإعجاز المطابق ، والنسق المنتظم ، فلا أخرج من هذه المراحل الثلاث إلا وأنا على يقين جازم بأن المؤلف لو كان كتب قصة أو قصيدة بالعربية لما كتبها على غير هذه الصورة ، لذلك جاءت ترجمته مثلاً لدقة التعبير ، وتخيير الالفاظ التي تنقل الصورة والفكرة ، وهي من جمال الأسلوب وأناقة لا تقبل روعة عن الأصل .

وترجم الزيات قصة « رفايل » ، وهي إحدى روائع لامارتين شاعر فرنسا الأكبر ، بأسلوب عاطفي ، حكى فيها قصة غرامه أيام شبابه ، وقد تدفق حسه بالجمال والطبيعة ، وفاض قلبه بالحب لمحبيته « جوليا » ، قال : « وجدت في حظها مشابة لحظي » فكللنا طريد هم ووحيد غربة ، وكللنا نضو أسقام وأليف وحدة ، وهي مثلي تتجنب الضوضاء وتتقي عيون الناس . لقد أثرت في كل قلب ، وامتزجت بكل نفس دون أن تتصل بانسان ، أو تتحدث الى أحد ، كانت الفكرة في كل خاطر ، والفتنة في كل ناظر ، والكلمة في كل فم ، والجلال في كل قلب . إن هذا النوع من الناس يشيعون الأنوار ، ويخطفون الأبصار ، ويحبذون الى مدارهم من حولهم دون أن يفكروا في ذلك ، أو يقصدوا اليه ، أو يشعروا به ، لهم مسا للشموس من نظام وجاذبية ، فهم يجذبون من تابعهم الأبصار والأفكار والنفوس ، فتتعلق بهم ، وتجري في الفضاء على ضوءهم .

وترجم قصيدة « البحيرة » للشاعر نفسه ، وقصيدة الوحدة ، وهاتان القصيدتان من أروع قصائد لامارتين ، يسيل من أروع الشعر العالمي ، وترجمها شعراء وكشّاب ، ولكن ترجمة الزيات تبقى هي المنفوقة على بقية الترجمات العديدة مثل ترجمة علي محمود طه المهندس^١ ونقولا فياض وغيرها .

الاستقامة والوضوح سمته :

والزيات أديب مطبوع ، تقسم كتاباته بالصدق ، ومقالاته بالفن . وهذا سر بقاء ما كتب ، بليغ ، وسر بلاغته وصف الشيء بصفته ، ووضع الكلمة في موضعها . وهو يفضل الإيجاز على الإطناب ، وجزمه إيجازه الإبانة والأناة . ظل يكتب في تواصل ، ولم يتخلف عن مجالات العلم والفن ، ويعبر عن متطلبات الحياة العربية مع دفقات من الأيمان تغمر قلبه بالحرارة والحياة ، وترجر بالشعور والوطنية ، ويتميز مذهبه في الحياة بالاستقامة والوضوح كما وصف نفسه :

« وبفضل هاتين الميزتين - الاستقامة والوضوح - بلغت الغاية التي قصدتها منذ وعيت ، ولم أبلغ الثراء الضخم ولا الجاه العريض ، ولكن بلغت عليه العيش الرخي ، والبال الرضي ، والذكر الحسن ، والسعادة الحقة أقرب إلى الرضا والسكينة منها إلى المال والمنصب ، وحرصت على أن يكون مذهبي واضحاً ، حتى إذا كانت المشكلة الصعبة تعرض فيكون حلها يسيراً بشيء من النفاق ، وقليل من المصانعة . ولكني كنت أنفر من ذلك كله ، وأحاول أن أعالجه بالصدق والصبر والصراحة فتتحل بعد أن تترك في النفس من الأثر ما يتركه الجرح في الجسد من الندوب . ولكن هذه الندوب ستظل على الزمن مثاراً للذة من لذات الروح ، فيها العزة والحرية والكرامة . نهج لي هذا المذهب ، وألزمي إياه طبع حر مسالم ، فأنا منذ حملت نصيبي من غيب الحياة أحاول أن أستقل في عملي عن إرادة الغير ، وأستغني بقدرتي عن معونة الناس ، فلم أضع يدي ولا عنقي في أغلال الوظائف الحكومية ، ولم أصعد صعود العليق على أكتاف الطوال من ذوي السلطان ، وإنما اضطربت في بحالي الحيوي طليقاً من كل قيد إلا قيد الخلق ، مستيقلاً عن كل عون إلا عون الله ، بذلك سلمت نفسي من رذائل الوظيفة ، فلا جبن ولا رياء ولا ملق ،

وبرئت خيالي من نقائص التبعية ، فلا خضوع ولا إغضاء ولا ذلة .

والزيات كما تحدث عن نفسه حامي وقور هادي يكره المساحكة والمجادلة ، وينأى بظلمه عن الخصام ، يمشي بتؤدة ، ويتحدث بصوت خفيض ، ويتأمل بعمق ، ويرسل أفكاره كالنسيم تجري رُخاء حيث أراد . فإذا أحس كرامته أو كرامة أمته يعتدي عليها أو عليه غريب أو قريب ، نار كالبركان ، وراح يرسل من قلبه شواظاً من نار يقذف به ذلك الجبار ، وقراء الرسالة يذكرون غضبه العارمة يوم تطاول « النبل عمرو إبراهيم » أحد الأمراء وتعاضم على المصريين أبناء الفلاحين - كما حلاله أن بنعتهم - أمثال محمد محمود ومحمد حسين هيكال ، نار ثورة الأسد الجريح يؤدب ذلك الأمير المتطاول ، فقال : « إن الوطن لا يعرف التفاضل بين أبنائه إلا بأثرهم في تقويته وترقيته وخدمته ، فالفلاحون على درجته العليا لأنهم عماد ثروته وعدة دفاعه وقوة سلطانه ، والأمراء درجته السفلى لأنهم فيه معنى السرف الذي يفقر والترف الذي يوهن والبطالة التي تميم ، وبين هاتين الدرجتين تفاوتت مواقف الوزراء والكبراء على حسب ما لكل منهم عليه من فضل . لقد كان امتياز طبقتك على طبقتنا أنك تمسك « القرباج »^(١) ، ونحن نمسك الفأس ، وتأكل الذهب ، ونحن نأكل التراب ، وتعبد الشيطان ، ونحن نعبد الله ، وتسلكم التركية وتسلكم العربية . لا يا سيدي النبيل ، ليس المصريون في الجنسية والوطنية سواء ، فإن منهم من تنصّر بالقانون لا بالأصالة ، وتوطن لمنفعة ، وكيف يستوى في ميزان الوطنية من يقف على مصر يده وقلبه ودمه ، ومن لا يعرفها إلا معرفة الغرماء ، ولا يعيش فيها إلا شهور الشتاء .

(١) السوط .

ونار لنفسه حين عرض به صديقه محمد كرد علي ، فكتب يرد عليه بأدب جم ، ولكنه ثار ثورة عارمة حين ظلمه العلامة أمين الخولي ، ولم يقف بسهامه الرائشة عند تسديدها الى جسم الخولي ، وإنما أبعد الرمي الى زوجه وشريكة أدبه وحياته ابنة الشاطئ . وسبحان من تنزه عن الخطأ ، ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ؟ .. كفى المرء نبلاً ان تعدّ معاييه .

الزيات في العراق :

كتبت جريدة البلاد في ١ كانون الأول سنة ١٩٢٩ خبر وصول الأستاذ الزيات ، قالت : « وصل بغداد أخيراً حضرة الأديب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات الذي ذكره خبر تعيينه استاذاً للادب العربي في دار المعلمين العالية ببغداد في عدد سابق . وقد قالت السياسة بصر في توديع حضرته ما يلي :

« رسول الثقافة المصرية :

علمنا أن الحكومة العراقية تعافت مع الأديب الكبير الاستاذ أحمد حسن الزيات على أن يتولى منصب أستاذ الآداب العربية في مدرسة دار المعلمين العليا ببغداد ، وقالت :

« ولستنا في حاجة لأن ننوه بتوفيق الحكومة العراقية في هذا الاختيار ، فالأستاذ الزيات من أعلام المدرسة الأدبية الجديدة ، وله طرافة في النقد الأدبي يشهد بها مؤلفه المعروف في « تاريخ الأدب العربي » وبيان ساحر يذكره كل من قرأ ترجمته « لآلام فوتر » و « زفائيل » . والاستاذ الزيات انما يذهب الى العراق رسولاً للثقافة المصرية الجديدة التي يبدو أثرها اليوم واضحاً في جميع البلاد العربية ، وسوف يكون له من

مهمته في عاصمة العراق وسيلة لتقوية الروابط الفكرية والاجتماعية بين
القطرين الشقيقين » .
تحية بغداد :

افتتح أول درس ألقاه الزيات بالكلمة التالية :

... ثم ألقى السلام على دار السلام وحاضرة الإسلام ، وأنحني إجلالاً
لأحفاد الهاشمين وسلائل العباسيين ، أولئك الذين بلغوا رسالة العلم والأدب
وأدوا أمانة الحضارة والفن إلى العالم الحديث ، ثم أحبي فيسكنم ناشئة
العراق ومعقد آماله ومجدي شبابه ، فأحمل اليكم عطف إخوانكم في مصر
وشدة إعجابهم بتمهضتكم وحسن تقديرهم لخطتكم ، وقوة أملهم في أن
يعود العراق بفضلكم وعملكم كما كان مغدق الجذع مشمر الاقنان جياش
التيابيع بالقوة والغزوة والعمران والسلطان والحضارة .

ان بغداد لم تحل من التاريخ الإنساني هذا المحل الأرفع الأوسع لأنها
عاصمة قطر وحاضرة خلافة وسوق تجارة ، وإنما شغلت صحائف الدهر
وملأت مسامع الكون ، لأنها كانت عنواناً لحضارة نظمت القديم والحديث ،
ورمزاً لثقافة شملت الشرق والغرب ، ومناراً لهداية عمى البر والبحر ،
وبرزخاً بين الظلام والعدم نجت عليه الإنسانية بقرائنها التليد من علم
وأدب وفن إلى هذا العصر ، وما أوزرت العبارة والحضارة عن « الزوراء »
وتفجرت الدواهي على العالم العربي إلا بتغلب الأعاجم وتحكم الهوى
وشيوخ الجهالة . فإذا عقدتم القلوب يا شباب العراق على استرجاع المجد
الذاهب ، واسترداد التراث المنهوب ، فلا سبيل ولا دليل إلا العلم . وإذا
اجتمع اليوم إلى أوروبا ومصر فافان تسترجعون من الأولى بضاعتكم وتستردون
من الثانية أمانتكم ، فإن علومكم بعد أن توجهتم الشرق لها وأضعف الزمان
أهلها ، ترحت إلى أوروبا عن طريق الشام والمغرب ، فأحييتها من موات ،

وأوجدتها من عدم . أما حضارتكم وثقافتكم وخلافتكم ، فقد لجأت فلولها الى مصر بعد أن رأت بغداد يصروعها غدر الفرس وتوحش التتر ، ورثت مصر بغداد ، والليت لا يرثه إلا شبهه ، والعظيم لا يخلفه الا مثله ، ولكن مالي أقول ورثت ، وبغداد القوة العظيمة إنما هيضت ولم تم ، وهمل الأمة التي سجلت أخبارها في كل خاطر ، وطبعت آثارها في كل ناظر ، تقوى يد الحدثان على محوها من سجلات الوجود ؟

إن بغداد التي انشأها العرب وحضرها العلم ، لا يحدها إلا العرب ، ولا يغمرها إلا العلم ، وقد اذن الله لمدينة المنصور ووليدة النور ومهبط وحى العلم أن تخلص من سلطان يأجوج ومأجوج بعد أن فندحها سبعة قرون ، فتولّى أمرها صفوة الأمة العربية ، وتبوئى عرشها فرع النوحية الهاشمية ، وأخذ قوام الجهل والفقر والظلم ينجاب رويداً عن سماء الراقدين ، إن بغداد هي الموطن الروحي لكل عربي ومسلم فيأديها نثقف ، وبحضارتها نتشرف ، وبهجدها نمتحز . عرفتها صغيراً في ألف ليلة وليلة فكانت موطن الأحلام والأنعام والشعر والسحر والحب والفتنامة ، وعرفتها كبيراً في التاريخ والأدب فكانت عرش الشعب وكعبة الأدباء ومبعث الأنوار وملئقي الأفكار ودار الحكمة ، ثم رأيتها وأسفاه اليوم فاذا ببغداد الكبيرة في القلب ، صغيرة وآسفاه في العين ، صغيرة ولكن صغرها صغر النواة تضمنت سر النخلة السحوق ، وإن بكم شباب الراقدين نساءها ، وفيكم رجاءها ، وعلى الله وعليكم اعتمادها فتعهدوا هذه النواة بالفداء والري ، تنفكم ظلها وثقتكم أكلها ، وتمتعوا منها بروح وريحان وجنة ونعيم ^(١) .

الادب العربي - أو الدرس الاول - :

ثم نشرت البلاد في ٦ كانون الأول ١٩٢٩ ، في « صحيفة الشعر والبيان » التي اعتادت الجريدة نشرها يوم الجمعة من كل اسبوع ، الكلمة التالية للزيات تحت عنوان الادب العربي ، وهي تتمة تحيته لبغداد ولطلابه في أول لقاء مع طلابه في أول درس .

« أدبتا العربي على سعته وجماله فوضى ، فلا حدوده مرسومة ، ولا مناهجه معلومة ، ولا قواعده ثابتة ، فنحوه أصداء مخلطة ، هيئة للهجات القبائل الجاهلية ، لا يكاد تتفق على وجه من وجوه الاغراب ولا يطرد مذهب من مذاهب القول ، حتى لموشك أن يكون كل كلام صواباً وكل كلام خطأ . وبلاغته مسائل اجتهادية وقضايا جدلية ونسكات لغظية ، لا تخور الى فن ولا تكشف عن غاية ، كأنها وضعت لكل شيء غير الشعر والكتابة ومذاهب مطموسة الاعلام دارسة الرسوم ، لا تدري أين تبثديء ولا أين تنتهي . فالكاتب يسلك الى غايته السبيل بعد السبيل ، وهو يظن نفسه على الجادة الأولى ، وربط وجدت في المقال الواحد ازدواج ابن المفتح وفقرات الجاحظ وسجعات ابن العميد ونكات القاضي الفاضل وترسل ابن خلدون ، ذلك لأن الادب العربي لم يكن أدب أمة واحدة ولا مظهر ثقافة واحدة ولا محصول لسان واحد ، وإنما هو مجموعة من الاخيلة والتصورات والمعتقدات التي امتزجت باقتراح الامم الاسلامية في شباب الدولة العباسية ، فهو أشبه بالبحر ، لكل نهر فيه منسوب ، ولكل متلاح فيه طريق ، وفي كل ناحية منه ثيار ، ثم هو من بعد مجتمع اللواؤ والمرجان ومستودع الحار والأحجار ، على أن الدهر ما لبث أن نظر الى هذا البحر العجيب المنادر ، فضفت روافده ، ونضبت موارده ، وجزر ماؤه ، حتى ارتد الى مثل الغدير الآسن يطن على متنه البعوض ، وتنق على حافته الضفادع ، انحسرت ظلال الادب العربي قبل أن تعبد

طرقه وتخصص قواعده ويكمل نقصه ، وطلمت سيول العجبة على ما بذر
عبد القاهر وأبن الأثير ، فاعتاقته عن النماء والتفرغ ، وأخذت الألسنة
العبية تتحرك في هذا التراث المضاع بالهراء والجزر ، فتعفوا طرائقه وشوهوا
حقائقه ، ثم ألقوه بين أيدينا جثة يتردد فيها ذكاء ، وصورة لا يحول
فيها روثي ولا ماء .

فنظرنا فيه ، فإذا هو مسيخ الخلق ، منكسر الطلعة ، لا إلى القديم ولا
إلى الجديد ، فوقفنا موقف الأثري من حلل فرعون ، يحيط جوانبها لتنظر
لا لتلمس ، وتؤثر لا لتلبس ، وأخذنا نحدد هذا الأدب البالي بالشرح
والتلخيص والدرس دون أن ندعم أساسه الواهي ولا أن نرفع بناءه
المنقوص ، فما برحنا نعتمد في البلاغة على تقسيم القدماء وتعليمهم ، ونقصمها
على تعليمهم وتعليمهم ، فنفردهم دواعي التقديم والتأخير والحذف والذكر
مثلاً إلى نحو ما قالوه من تعجيل الإساءة أو المسرة ، والتسجيل على
السامع وصون اللسان عن ذكره ، ونقول في التثنية : إن الثريا كعقود
العنب المنور ، وفي الاستعارة : رأيت أسداً في الحمام وعلى فرس ، وفي
الكناية : زيد كثير الرماد أو جبان الكلب أو مهزول الفصيل ، ونقرض
الشعر على النمط القديم من الوزن والقافية والأسلوب والعرض ، كأن
لم نسمع إلى اليوم بالشعر القصصي التمثيلي ، ونعرف النشر في تدبيح
الفصول وإنشاء الرسائل ، والغرب يطربنا كل يريد فنوناً شتى من القصص
الرفيع يعالج فيه كتابه مشاكل الحياة ومسائل اليوم .

لقد اختلفت مذاهب الكلام ، وتعددت أغراض الكتابة ، وتنوعت
فنون الأنشاء ، ورأى شبابنا في الأدب العربي صوراً حقيقية حية لما
يحول في نفوسهم وينتزي في رؤوسهم من الهوى والأمل والفكر ، فأقبلوا
عليه ظمأً مظمين ، يشتهون العذب الروي من حياضه ، ويقطفون الحلو
الجني من رياضه ، وتركوا أذبننا الصناعي التقليدي المتشابه يدوي على

ألسنة المحافظين وأقلام الجامدين من بقايا العهد القديم ، فالحال إذن تنادي بإعادة النظر في علوم الأدب وفنون الإنشاء ، فيصلح منها الفاسد ، ويتم الناقص ، ويفصل الجمل ، لتتسع لأغراض الحياة ومقتضيات الحضارة ومطالب العصر ، وبقيتنا أن أقدر الناس على الاضطلاع بهذا العبء الخطير هم أساتذة الجامعة ، لئلا يتهموا لهم من وسائل الدرس وحرية البحث وقوة الأثر .

وختم كلمته الرائعة بقوله :

« لا جرم أن قد آن لمعلمي البيان أن يصيخوا إلى هذا الهمس الساخر والانكار الحق » يريد همس الطلاب واستنكارهم لما يحفظون من قوالب بالية وأمثلة لا ذوق فيها ، « فيوفقوا بين موروث البلاغة ومستحدث الأساليب » ويؤلفوا بين ذوق الأسلاف وذوق الأخلاف ، ويوسعوا نطاق الفن الكتابي لتشمل الملحمة والقصة والرواية ، فإن الادب أصبح اليوم شعبياً فيه لكل نمط نصيب ، ولكل غرض سهم ، ولكل غاية مسلك ، ومما مثل الذين يحاولون أن يحصروا فنون الأدب في حدود القدماء ، ولا يستذيق الشعر الا مسؤول المدح والثناء ، الا كمثل الذين يحاولون أن يحصروا السيل الجعاف في المفيض الضحل ، ويتلمون بفقاقيع الماء عن المنطاد السبوح .

الزيات يشارك في تأبين المرحوم السعدون :

أقيمت في بغداد حفلة تأبين كبرى أثر انتحار عبد الحسن السعدون رئيس الوزراء ورئيس الأسرة النبيلة الشريفة أسرة السعدون التي كانت لها رئاسة عرب المنتفق ، وكانت انتفاضة وطنية اجتاحت العراق من شماله الى جنوبه إثر خادنة الانتحار ، فألبست لباساً وطنياً ، وألقي في روع الناس أنه ذهب شهيد الصراع بين مطالب الانكليز وبين رغبات الشعب التي عبر عنها بوصيته الخالدة : « الأمة تطلب الخدمة والانكليز لا يوافقون » .

وصل الأستاذ الزيات الى العراق والشعب لما يقق من أثر الصدمة ،
والحزن ما زال بادياً على وجوه الخاصة والعامة ، فتأثر أذب الزيات بالحادث
بكلمته الساحرة : (تأمل ساعة) ، ثم يشاركته بكلمته البليغة هذه بالرغم من
أنه كان طربح الفراش لوعكة ألمت به ، وهو لم يعتد جوة العراق ، قال :

ومصر أيضاً تبكي السعدون :

« سعد » في مصر مفرولاً يثنى جمعته العراق في « السعدون »

وقديماً كسر اعراب العراق قون الجمع ، فله ذاك الاسمان كيف اتحدوا
في المادة اللفظية واتفقا في الغاية المعنوية ، واختارتهما عناية الله ليكونا
نبيي وطشبة وباعثي قومية وعلمين من اعلام الهدى سار على هديهما
الضالون والحائرون والشرذ ! فكلاهما كان روحاً لبلاده ، ووحياً من الله
في وصاياه وإرشاده ، ومثلاً عالياً للنشء في صدق جهاده ، وزعيماً صلب
العود في رأيه واعتقاده ، وحياة خالدة بتضحيته واستشهاده ، هكذا
علمنا « سعد » وسمعنا عن السعدون ، فإننا لله وإنا اليه راجعون .

صدع سعد بما أمر قصارح الخصم بمعاداته ، وملاً عليه الارض بخطبه
ونداءاته ، ونبأ عنه بثقته ووده طيلة حياته ، وأثر السعدون الرفق به
فابتغى الخير من صلحه ، تحرى له وجوه النصيح ، فما انتفع بنصحه ،
فكانت عاطفته الجياشة حتى استبأس من نجحه ، فتفجرت من قلبه ،
وسالت من جرحه .

هكذا علمنا من سعد ، وسمعنا عن السعدون ، فإننا لله وإنا اليه راجعون .

على النيل حياة عجيبة ، وعلى الفرات موت مرعب : موت هو الحياة ،
ويأس هو الأمل ، وعدم معناه الوجود ، ورضاصة متقذرة دوت في سكون
الليل الساجي ، فكأنها صور القيامة أو ضيعة الكرامة ، وكأن روح

السعدون - وقد أكرهت على مفارقة جسسه - حلت في كل جسم ، فترى
العراق بين يوم وليلة وقد فاز كالبركان ، وثار كالعاصفة ، واهتز اهتزاز
الشجرة الفناء هاجمتها الزوابع الهوج .

يعزينا عن موت الحر أنه حياة لأمته ، والشعب الناهض لا بد له
من التضحية في نهضته ، وطريق الحرية الغالية محمرة بالدماء ، مخوفة
بالآلم ، والحرية منذ قدستها الشعوب وألهمت شرها إلى لحوم القرايين ،
ظمئة الى دماء البشر ...

فعزاء أيها الشعب الكريم ، وصبراً ، فإن من الشدة فرجاً ، ومن
العسر يسراً ، وأصخ الى صوت هذا الطلق يدوي من بعيد ، واكتب
إلى أبنائك صحيفة الفخر بدم هذا الشهيد ، وقل : يا رب ، هذه
التضحية ، فهل يكون لنا من بعدها عيد ؟؟ .

مشاركة الزيات

في حفلة تأبين عبد الرسول الجابي

كان الفقيه من نوابغ الشباب ، فذاً في ذكائه فرداً في صفاته حبيباً
لنفس كل من عرفه دؤوباً على الدرس برغم أنه سليل بيت عرف بالغنى
والجاه العريض ، وأولاد الأغنياء قليل منهم من يقبل على الدرس ويصبر
على التحصيل كشأن أبناء الأسر الفقيرة أو المتوسطة .

أنهى الدراسة الابتدائية والتحق بالأليانس لتعلم اللغات - الفرنسية
والانكليزية - وبعد أن أنهى الثانوية درس الحقوق وحصل على شهادتها
بامتياز ، وكانت وحدها تؤهله أن يتوسد أعلى المناصب لما له من شخصية
محبة وما لوالده من نفوذ ، ولكنه فضل المحاماة ، فزاولها برهة من الوقت ،
ثم انصرفت همه الى الاستزادة من العلم ، فرحل الى انكلترا ، والتحق بجامعة
أكسفورد في كلية « الاقتصاد السياسي » ، فكان مفخرة للشباب العربي في

ثفوقه على المثمنين من الشباب الغربي على اختلال صحته وتحول جسمه ،
وعاد إلى العراق يحمل العلم والخلق والصلابة في العقيدة والوطنية وروست
اليه وظيفة في مديرية الضريبة العامة فكان مثالا حسنا للموظف الكفؤ
علما وخلقا ، ولكن القدر لم يمهله طويلا فقد أصيب بمرض أعيا نطس
الأطباء شفاؤه وحمل البرق نفيه وهو في باريس يوم ٢٧ حزيران سنة
١٩٣٠ ولما تجاوزت السابعة والعشرين فكان لنعيمه صدى حزن وتفجع
على الشباب الناضر والأمل الزاهر والوالد الصابر .

وفي أربعينيته أقامت له حفلة تأبينية شارك فيها نخبة من الشعراء
والأدباء في مقدمتهم الأساتذة أحمد حسن الزيات والشاعر الأديب ناجي
القشطيني والأديب الشاعر محمد بهجة الأثري والشاعر الشيخ باقر الشبيبي
والدكتور الجمالي ، وأصدرت لجنة التأبين كراسا ضم هذه القصائد والخطب
طبع في مطبعة العهد بعنوان ذكرى فقيد الشباب عبد الرسول الجلي .

كلمة الزيات

الشباب الدائل :

سادتي : دخلت حين مقامي الى بغداد على معالي وزير المعارف .أسلمتم
عليه واعترف نفسي اليه ، فلقيني معاليه لقاء جميلا ، وآتسني بحسن
حديثه طويلا ، ولكنني كنت ألمح من خلال نظراته ، ومن كلماته
أن الرجل يتحامل على نفسه فكأنه يخفي وراء هذا الوجه المتهلل
والحديث المتسلل مضا ' موجعا ' وحزنا دخيلا ، فحملت ذلك على طبعه
واستأذنته وانصرفت فلقيني المستشار ، وكان أول ما قال لي بعد التحية
ما معناه : آسف أنك لقيت الوزير وهو في أشد حالاته ، وأخرج
أوقاته ، فإن ابنه مريض وقد تبيلفت به العلة اليوم ، وهو شاب
لا كالشبان ، وزهرة نضرة عاجلها الذبول قبل الألوان فمن حقه أن
يعظم بشه ' ويشتهر أساه .

كانت هذه الشهادة التزيية من لسان أجني أول ما وقع في سمعي
 عن الفقيد ، الكريم ، ثم أخذ بعدئذ لسان الحمد يروي إلى ذكره كلها
 جزء الحديث إلى ذكر الشباب العامل والخلق المصطفى ، والهمة البعيدة .
 فتمثل في ذهني لهذا الشاب صورة منسقة مهذبة ، لو أن « قديس »
 تخيل مثالا للتواضع الاني والطموح الحي والعزم الشافذ والخس اللطيف
 لما عداها . كان الحديث عن عبد الرسول من كل لسان ، وفي كل مكان
 مزيجاً من الأكابر والأسف ، لأن شبابه كما سمعت من النمط الذي يعوز
 الشعوب الناشئة والأمم المهيضة ، لجمعه بين فقه الدين والدنيا ، وملاءمته
 بين جدة الفكر وقدم الفضيلة ، وعزوفه عن ثروة الأهل ومنصب
 الحكومة ، وهو الحياة ابتغاء الكمال العقلي ، وطلباً للثقافة الصحيحة ،
 فكان تواتر هذه الأحاديث العطرة يغريني بلقائه كما يغريني عبير الزنائب
 بأفياء الرياض ، ولكن النفوس الكبيرة وأسفاه لا تتحملها أجسادها ولا
 تقوى على حبسها أقيادها ، فكانت نفسه الفتية الطموح لا تفتر عن الزوج ،
 واجتاحت القوة السبوح لا تقي عن الحفوق ، حتى بلغت به على صغره
 ذرى العلياء ، ثم استشعرت هناك نعيم اللانهاية فطارت إلى السماء .

جاء النعي على جناح البرق ، يعلن استشهاده الغريب ، فأرفض عن
 القلوب المعروقة الصبر ، واستولى على الناس ذهول وكمد ، وذهبت مع
 الذاهبين إلى القصر الحزين أواسي الوالد الواله ، فلم أسمع من الكرخ إلى
 الكاظمية إلا ذكر الفقيد يتصاعد من القلوب المحترقة كما يتصاعد البخور
 من خلال الحجر ، فكان أنه قريب إلى كل نفس وحبيب إلى كل قلب .

فيا وحشة الدنيا وكانت أنيسة ووحدة من فيها بمصرع واحد
 ويا حسرة على الأنفس الكريمة كيف تموت ؟ وعلى الآمال العظيمة
 كيف تفوت ، وعلى الوالدين يفرسان المني فيسقيانه بدم القلب ، ويكلاّنه
 بنور العين حتى إذا ورف الظل وآن للمنصور الزهر أن يكشف عن

موفور الثمر ، قال لها الموت الجائر : حسبكما هذا نصيبي .

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

ليست المصيبة في فقدان الفقيد مصيبة أهله فحسب ، إنما هي مصيبة الوطن والشباب والعلم ، فقد كان رحمه الله للوطن الناشئ عدة وقوة ، وللشباب الناهض زينة وقدوة ، وللعلم الصحيح رسولا وحجة .

إن الوطن لا ينهض إلا بشبابه ، وإن الشجر لا ينمر إلا بأغصانه ، أما الشيوخ والجدوع فهم الاصل والمدد والسند ، ولكنهم الضيق بالارض وأميل إلى السكون وأقرب إلى الجمود ، فلا تقوى على تحريكهم رياح الامل ، ولا تغرد على حطيمهم طيور السماء . فالفجيعة بالشباب الصالح فجيعة لا يفيد فيها الصبر ولا يعوض منها الاجر ، لأن الاحتساب والثواب إنما يرجعان إلى الوالدين . أما الامة فصاها في أمثال الفقيد الكريم ، يفت في سواعدها ويوهن من قواعدها ويضعف من قواها العاملة على حين تستغيث بأبنائها من « النذبة » وتهيب بهم إلى السعي متحدين لتنقيس الكربة فلا عزاء لها عنه إلا بسد الخلة وتوثيق العقدة وانتهاج الشباب العامل خطة الكريم الراحل فيستكملون فضائل النفس ويستقطنون دخائل العلم ، ويطلبونه لنفسه لا للمنصب ويعملون به للامة لا للكسب ، ويشعر كل منهم أنه كلمة مفيدة في جملة الامة وليسنة قوية في بناء الوطن ، فيسيرون بقومهم في طرق الإصلاح والتجديد ، ويقولون لمن أقام الوصاية إنها باطلة على دار (الرشيد) .

حينئذ تعرف الامة معنى العزاء ، لأنها لم تعرف معنى الشكر ، وحينئذ يحق لها أن تقول في أبنائها بلهجة الصابر الفخور .

نجوم سماء كسلا غاب كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكب

سكن الأستاذ أولَ قدومه بغداد فندق « كارلتون » على صدر دجلة بالقرب من جسر الأحواز (جسر مود) ، وكان من أوسع فنادق بغداد وافخمها ، مدخله من شارع الرشيد مصافحاً لمدخل (أورزدي بك) ، ولهذا الفندق شرفات وحديقة تطل على دجلة يتخذها نزلاء الفندق مستراحاً لهم . نذب الزيات للتدريس بالعالية بتوصية وعرض من زميله وصديقه الأستاذ عباس العقاد الذي رشحه استاذاً طه الراوي قبل الزيات ، فاعتذر لارتباطه مع الوفد وخوضه المعركة الانتخابية .

جاء الزيات العراق وشهرته تسبقه ، فقد عرفناه أديباً مشرق الديباجة بترجماته (آلام فرتر ورفائيل) ، وقرأنا له مقالاته في الصحافة المصرية ، فاستقبله المتأدبون والصحافة العراقية بالترحاب ، وتقاطروا على فندق كارلتون يسلمون عليه ويرحبون به ، وفتحت جريدة البلاد صدرها لنشر محاضراته ومقالاته ، فنشرت له تحيته لبغداد ، ونشرت مساجلته الطريفة مع الأستاذ محمد بهجة الاثري ، كما نشرت كلمته في رثاء السعدون ، ومحاضراته القيمة في الأدب العربي . وفي ٢٦ شباط سنة ١٩٢٩ نشرت له البلاد مقاله الممتع (تأمل ساعة) ، فكان له صدى استحسان لدى القراء ، وأثار تعليقات كثيرة على صفحات الجرائد ، وقال تقدير الوطنيين ولا سيما الشباب ، وكانت الصحافة يومذاك تعنى بالمقالة وصفحاتها تغطيها القصائد الوطنية والمقالات الادبية والاجتماعية والتاريخية ، والقراء على قلتهم بالنسبة إلى المتعلمين اليوم كانوا يتلقفون الصحف والمجلات والكتب يقرؤونها ويستوعبون أخبارها ويتذوقون أساليبها ، وقلما تقابل شاباً متعلماً لم يتأبط كتاباً أو مجلة يقبل على قراءتها وقت فراغه في الاندية أو المقاهي .

« في الشرفة الوسيعة من فندق « كارلتون » جلست اطالع في صفحة

دجلة ما خطته يد القرون ، وكانت شمس الأصل تنفض تبرها على أمواج
النهر وسطوح الكرخ وحواشي الأفق ، والطبيعة الأنيقة تنعم بالصفاء
والبهاء والدفء ، بعد ما أجهدها رعد الأمس وبرقه ، وأغصها وابل الغمام
وودقه ، فالسما مصرية الأديم ، والجو عبهري ^(١) النسيم ، والأفق الغربي
مزدان بقزعات ^(٢) من السحاب الأبيض الرقيق ، والماء قد استحال لجينه
نظاراً من طول ما حل إليه السيل من كنوز الجبل ^(٣) ، أخذت أصوب
النظر وأصعده في النهر والجسر والشاطئ ، فأرى أنماطاً من الناس
وأخلاقاً من الاجناس ، وصوراً من الأشياء تنكرها العين ويعرفها القلب ،
لأنها شرقية ، ولأنها عربية ، ولأنها مظلومة .

ذكرتني هذه المناظر مناظر غابت في سويداء القلب . ولفائفه ذكرتني
تقابل الرصافة والكرخ على دجلة ، تقابل القاهرة والجيزة على النيل
الاعلى ، وتقابل المنصورة وطائحا على النيل الاسفل ، وفي هذه الاماكن
الحبيبة كان مدرج طفولتي وشبابي ، وملتقى أحبتي وصحابي ، فهاجت
شجوني ، وسالت شؤوني ، فوضعت جبهي المضطربة على سياج الشرفة
البارد ، وعدت بالذاكرة وشيكاً الى بغداد ، ثم انطويت على نفسي ،
وأخذت أتفكر وأتذكر وأعمه في غيابة الماضي حتى انقطع صا بيني
وبين الحاضر ، فأنمحي من حولي العالم بأسره .

وحينئذ انبعث من جانب الكرخ صوت شاد يرتجع بالنغم العربي الشجي ،
فخيل إلي أنني أرى دجلة « الامين » وجسر « ابن الجهم » ^(٤) ، وكرخ المجان
والحلفاء من أهل بغداد المترفة ، ووقع في سمعي أن هذا الشادي يقول :

(١) العبهري : الباصمين .

(٢) القزعة : قطع من السحاب المتفرقة .

(٣) هو الفرين .

(٤) علي بن الجهم يشير الى قوله .

عيون المهابين والرصافة والجسر جالين الهوي من حيث ادري ولا ادري

سقى الله باب الكرخ من 'مستسز' الى قصر وضاح فهزكة زلزل
 مساحب أذيال القيانت ومسرح الد حسان ومشوى كل خرق معذل^(١)
 وصور لي أتي أسمع غناء الملاحين في الزلايلات^(٢) ، وأبصر « الدلفين »
 و « العقاب »^(٣) يخران العباب بالخليفة « الامين » وحسانه وقيانه ونداماه !
 وترأت لي على الشاطيء الشرقي قصور « البرامكة » الحزينة ، يقابلها
 على الشاطيء الغربي قصور الخلفاء والأمراء : تعج بالجواري والعلماء ،
 وتضج بالشعر والندمان ، وتوج بالساداة والقادة والجند ، وتفيض بالنعيم
 والجلالة والعظمة ، وتثلت في خاطري بغداد الامس كباريس اليوم في
 عدد سكانها وفخامة بنيانها ، واتساع رقعتها ، وازدهار مدينتها ، وانبعاث
 الحضارة من مجامعها ومنابرها ، وانثاق الهداية من جوامعها ومنابرها ،
 إلا أن باريس تشع في جواء مشرقة تسطع فيها شمس أخرى تضارعها
 وتضارعها ، أما بغداد التي عنت لها وجوه القياصرة ، وكان من جندها
 أبناء الدهاقين والاكاسرة ، فكانت شمساً واحدة ترسل الضوء والحرارة
 والحياة في القارات الثلاث ، فتبدد ما غشيها من ظلام وخود ونوم .

لا أدري متى كنت أصحو من نشوة هذه الذكريات الحلوة المرة لو
 لم يعمدي الى وجودي صوت منكر من أصوات الحضارة الحديثة ، قد
 انطلق من جوف مركب بخاري عظيم كان يشق بحيزومه صدر دجلة ،
 فسرحت طرفي في الافق ، فاذا شمس الشرق تجاهد ظلام الغرب ، وإذا
 القزعات قد ارتدت بياضها سواداً ، ضربت في حواشيه حمرة الشفق ،

(١) الخرق : الفخ الكرم الخفية ، والمعذل : من يعذل لافراط جوده .

(٢) الزلايلات : زحاما الزلال : أي الزردق .

(٣) الدلفين والعقاب : مركبان من مراكب الامين .

فصارت كأجنحة الغربان الدامية ، أو كقطع من الفحم علقت بأطرافها
نار حامية ، ثم نظرت شمالاً فإذا المكان الذي سجدت فيه رسل « شارلمان »
أمام « الرشيد » يخفق فوقه علم غريب ^(١) لا هو أسود ولا أبيض ولا
أخضر ^(٢) .

وإذا قطع من السحاب السود قد انعقد فوقه « ملبدة هنا » ملبدة
هناك ، فقلت في نفسي : ليت شعري أهذه بقايا أعلام الرشيد والمأمون ،
أم هذه أثواب الحيداد لبستها سماء العراق على السعدون ^(٣) ؟

(١) هو العلم الإنكليزي على دار الاعتقاد في الكرخ .

(٢) هي ألوان أعلام العرب الثلاثة في القارات الثلاث آسية وإفريقية وأوربية .

(٣) كان العراق يومئذ لا يزال مروعاً بانتحار الزعيم عبد الحسين السعدون .

مأساة الشاعر وضاح

كتب الزيات مأساة الشاعر وضاح اليمى ، ونشرتها له البلاد في ١٧ و ٢٤ كانون الثاني ١٩٣٠ ، فأرضت الفن وأغضبت التاريخ . كانت مثلاً رائعاً للإنشاء العالي ، فرد عليه الاستاذ الكبير محمد هبة الأثري بأسلوب أنيق ، وتحقيق دقيق ، وروعة من البيان لا يقل عن روعة أسلوب الزيات . وكان رده وتعليق الزيات على الرد نموذجاً عالياً للنقد العلمي النزيه ، أوضح في رده أن القصة مختلفة من وضع الشعوبين ، لمحتها الاختلاق ، وسداها الدس للشرف العربي في أكرم بيت من بموات قريش ، والحط من كرامة الخليفة الأموي في أعز ما يحرص على صيانه كرم من أبناء هذه الاسرة العربية ، والقصة ظاهر بطلانها ، بنفيها التاريخ ، وبنكرها العقل ، ويهدمها النقد العلمي . كانت المساجلة مثلاً يحتذى في الوقار والنصون والادب والنقد البناء الذي يجب أن يتسم به العلماء والأدباء في المناقشة والمداولة والرد ، لا كما نراه اليوم عند بعض أدعياء الأدب من التهجم والشتم والانكار لكل مزية يتصف بها غيرهم ، والله تبارك وتعالى أدبنا في محكم كلامه الكريم فقال : « ولا تنسوا الفضل بينكم » وقال : « ولا تبغضوا الناس أشياءهم » .

وقد نشرت القصة والمساجلة بين الزيات والأثري في كراس سنة ١٩٣٥

وطبع بمطبعة العهد ، ودامت صلات المودة بين الكتّابين الأدبيين موصولة ،
تجدد وشائجها كل سنة في أثناء اجتماعات مجمع اللغة العربية في القاهرة ،
وعلى صفحات الرسالة التي كانت تزين أعدادها بقصائد الأستاذ الأثري .
ولما في الرسالتين من أدب ممتع ، ونقد نزيه ، وفائدة للقارىء ،
أثبت نصيبها ، وهما بعد هذا وذاك من صلب موضوعي :

القصة (١)

- ١ -

في اليمن الخضراء ، وفي صنعاء ذات الظل والماء ، نشأ (وضاح)
أزهر اللون ، أصهب الشعر ، مليح القسما ، رقيق الأديم ، ثم ترعرع
بين حائل الأودية ومروج السهول وأزاهير الرثا ، فازداد رواء وجهارة .
وإذا كان الجمل يكتسب لون الصحراء ، والسماك يستفيد مرونة
الماء ، والطاووس يستعير أفواف الروض ، فإن اليانين لم تصلهم بطبيعتهم
ولا يبتئهم صلة ، فهم سمر الوجوه ، ضلال الجسوم ، قصار القدود ،
وأرضهم مشرقة الأجواء مونة المناظر ، خصبة التربة ، لذلك راىهم
(وضاح) بقدر ما راعهم ، فقالوا إنه من أبناء (الفرس) الطارئين على
اليمن في عهد (ابن ذي يزن) ، ولكن الحكم سغه هذا الرأي وقضى بعربيته .
لا يعنيك ولا يعنيني أن نكشف عن دخيلة هذا الشاب ، فنصف
تاريخ أسرته وحقيقة ثروته وطبيعة عمله ، إنما يعنيننا من (وضاح) ذلك
الفتى الطرير الذي أشقاء شعره ، وأبأسه شعوره ، وقتله جماله .
نريد أن ننقل عن لوح القدر هذه الصفحة الدامية التي كتبت لهذا

(١) نشرت في جريدة البلاد ، في ١٧ و ٢٤ شعبان ١٣٤٨ هـ . ١٧ و ٢٤ كانون الثاني

البائس ، وجرت عليه في غير رفيق ولا هوادة .

كان وضاح الجميل الشاعر كالبلبل ، يعرف في نفسه جمال الريش
وجمال الصوت ، فهو لا ينفك في حذر من الصائد ، وخوف من القنص ،
فكان يغشى المواسم والأسواق وهو مقنّع منتقب ، خيفة الحاسد ،
وحذر المرأة !

ولكن المرأة كانت تفتضه بكل سبيل ، وتزقيه في كل مرصد ،
وتترامى له في كل مكان : تحت النخيل ، وفي الأسواق ، وعلى الماء ،
وهو لا يزداد إلا غنماً وترفعاً ووحشة ، لأنه محبوب ، ومن طباع
المحبوب الإدلال ، ولأنه مطلوب ، ومن غرائز المطلوب الحرب ، ولم
يحد مع ذلك فيمن رأى من النساء روحاً جذابة ولا قوة غلابة ولا
جمالاً أبرع من جماله ، على أن (وضاحاً) خلق للحب ، وكتبت عليه فيه
الشهادة ! فعيناه على غير علمه تردادان الحبيب ، وقلبه من قلقه وانتظاره
يضطرب في حنايا صدره ، وعواطفه من اضطرامها وانبساطها تكاد
تسيل ، وكان يفر من ضوضاء (صنعاء) ومتاجرها وقوافلها إلى سكّون
الصحراء الرهيب ، وهدوء الطبيعة الموحش ، فيقضي سحابة نهاره جالساً
في روضة ، أو مستلقياً على غدير ، أو نائماً في مغارة ، كأنه نبي من
أنبياء بني إسرائيل ينتظر الرسالة .

- ٢ -

ففي صباح يوم من أيام الربيع مشرق الأديم ، عذيري النسيم ،
منصور الخائل ، استهوته الطبيعة فأخذ يضرب الأرض حتى تمتع النهار ،
وإذا هو على ماء من أمواه (الخصيب) من قرى (اليمن) ، وفي
(الخصيب) شدّ الجمال أطنايه ، وشاد الحب معيده ، والعرب يقولون
لك : « إذا بلغت أرض الخصيب فتهرّول ! » .

فجلس (وضاح) ينضح ظمأه ، ويرفه عن نفسه ، إلى أن طاف
به الكرى فنام .

تنبه (وضاح) ساعة الأصيل على صوت رخم الحواشي متسق النبرات
في رنين الفضة ، فنظر فرأى حورية من حواري الحقول قد حسرت عن
ساقها ، وغسست رجلاً في الندير ووضعت رجلاً على الخافة ، وهي
منحنية على الماء تجمع ثوبها بيد وتغلا سقامها بيد ، فرجف قلبه وبرق
بصره وخيل إليه أن عينه لم تقع من قبل على فتاة ، فنهض بملأ من
هذا المنظر الرائع عينيه ، فلفتتها حركته ، فرفعت بصرها إليه في
سكون طرف وقتور لحظ ، وكأنها همت بالنكوص لولا أن رأت منه
ما رأى منها ، فوقفت جامدة لا تتحرك وشاحصة لا تطرف ، بل
أحست من نفسها الهفوان إليه حين تقابل النظران وتجادب القلبان ،
ومشى إليها مشية الحباب في حياء ووناء ورقة ، حياءها فردت التحية ،
واستنسبها فاستنسبت كيندية ، واستسهاها فقالت : (روضة) .

ثم جرى بين المحبين حديث الشباب الحي المضطرب الحائر . . ويكاد
نصه يكون واحداً على اختلاف الألسنة والأزمنة والأمكنة فلا تثبته ،
وكيف تثبت كلام الناظر للناظر ، وتدفق خاطر للخاطر ، وعناق
القلب للقلب ، وامتزاج النفس بالنفس ، ولحن اللسان للسان ؟

كانت (روضة) كما تشتهي كل فتاة أن تكون ، فهي كما صورها
(وضاح) في شعره « كاعب وضية الطلعة ، لطيفة التكوين ، مصقولة
الجبين ، يزينه شعر أثيث ، شعر كذنب الكيت ، زجاء الحاجبين كأنما
شقاً بقلم ، تقوساً على مثل عين الطيبة ، ساجية الطرف ، ذلفاء
الأنف ، عسل الذراعين ، لا ترى فيها عظماً يحس ولا عرقاً يحس ،
طفلة الكفتين ، تعقد إن شئت منها الأنامل ، مشوقة القد قد
أفرغت في قالب الحسن ، .

رجسد كل منها في الآخر كشابة في زهرة الوجه وصبهة الشعر
وهجنة النسب بالدم الفارسي ، فتعارفا بلحظة ، وتفاها بلفظة ، وتآلفا
تآلف الأخدان ، كأنما كانا على موعد .

طوت شمس الطيفيل الغارية مطارفها العسجدية عن السهول والحقول ،
فلم يبق منها إلا هلال على رؤوس التلال وشعاف الجبال وأعراض
النخيل ، وأخذ الرعاة يروحون بالقطعان إلى الحظائر ، وآن الراعية
الحسنة كذلك أن تؤرب ! فقامت (روضة) متثاقلة ، وودعته متخاذلة ،
وسارت وراء قطيعها تنهادي في مرطها المفوف ونطاقها المحبوك وخمارها
الأسود كأنها إلهة للرعاة أو تمثال الحسن . تلاقيا مرة أخرى في سرة
الوادي المعشب ، وقد عملت فيه يد الطبيعة فأزرت به بعميم النبات ،
وطرزته بألوان الزهر ، وضحخته بعبير الخزامى وربنا البشام وأرج
الرنند ، فجلسا ساعة تحت دوحة يتساقطان عذب الحديث ، ويتناشدان
حلو الغزل ، ويتساقبان كؤوس الهوى ، ثم نهضا يسيران صاعدين تارة
في مدارج السيل ، وهابطين تارة إلى قرارة السهل ، ينجيان الكأفة ،
ويقطفان البهار ، ويلتقطان الجزع المفصل . فلما نفضت الشمس على
الأفق الغربي تهر الأصيل ، توادعا ، ثم توادعا على اللقاء ، وتعاهدا
على الوفاء بعد أن شق عليها رداءه وشقت هي عليه برقعها ، استدامة
للحب وبقياً على الهوى .

- ٣ -

ظل العاشقان في غفلة الزمان والإنسان ، يتلاقيان كل يوم على خلاء ،
حتى نَمَ على هواهما شعر (وضاح) ، فتنبه الغافل وتحرش العاذل
وتحذر الأهل ، فحالوا بينهما وبين لقائه وتواعدوه . فكان (وضاح)
يأتي كل يوم على عادته ، فيجلس في الأماكن التي اعتادها ، ويرتاد
الغياض التي ارتادها ، ويستروح الشُعَامَى والخُزَامَى ، فلا يجد قراراً في

مكان ، ولا جمالا في الطبيعة ، ولا روحا في أريج ، فيدنون من « الحبيب »
بترصد غفلة القوم ، ويتنسم ربيع « روضة » ، يقول :

يهددوني كيدا أخافهم مبهات أنسى يهدد الأسد

حتى لقي ذات مساء عبدها الذي كان يرعى عليها رائحا بالقطيع
الى مراجه ، فحمله رسالة اليها يطلب فيها أن توافيه على الكتيب من
غفت العين وهذأت القدم ، فوافته في إحدى أترابها ، فجلسا على الحصباء
يتشاكيان حرقه الجوى ، وتحكم الهوى ، وتعقب الرقيب ، وأخذت « روضة »
تحتكي « لوضاح » كيف استفاض الخبر وخاض فيه الناس ، وكيف حجبتها
إخوتها وراقبوها بعين لا تغفل ، وذكرت له والدنوع يتقاطر من عينيها
انهم صمموا على رفض خطبته ومنع تزويجه ، وقرروا تزويجها من موسى
كشيف الظل جناحي الخلقة ، وحذرت أن يدنون من الحي ، فان قومها
يأتمرون به .

غلي جوف « وضاح » وعصفت في رأسه الحمية ، ونزلت بقلبه الصبابة ،
وعقد نيته على معالجة الأمر بالحزم ، ومواجهة الخطر بالصرامة ، وقرر
زيارتها بعد هذا الحوار البديع الذي خلده وضاح في هذه القصيدة :

قلت : ألا تلجئن دارنا	إلى أبانا رجل غائر
قلت : فاني طالب غيرة	منه ، وسيغي صارم باتر
قلت : فان القصر من دوننا ،	قلت : فاني فوقه ظاهر
قلت : فان البحر من دوننا ،	قلت : فاني سابح ماهر
قلت : فحولى إخوة سبعة ،	قلت : فاني غالب قاهر
قلت : فليت رابض دوننا ،	قلت : فاني أسد عاقر
قلت : فان الله من فوقنا	قلت : فربي راحم غافر
قلت : لقد أعيدتنا حجة	قلت : إذا ما هجع السامر

واسقُطْ علينا كسقوط الندى ليلةً لا نادٍ ولا زاجر^(١)

وفي الليلة التالية كان «وضاح» في طريقه إلى «الخصيب» وكان إخوة «روضة» وعمومتها يرصدون سبيله، ويطلبون لقاءه بعد أن علموا من الرقيب اجتماع الخصيب، وكانت الحبيبة على علم بخروج القوم وقدم الحب المخاطر، فطرقت مضجعها المموم، وتحاجت قلبها الوساوس، وأخذها عليه المقيم المقعد.

لم يطل انتظار الجماعة للفرد فتلاقوا وراء الوادي، ثم كان عتاب على الأشعار الجارحة، وسباب على الشهرة الفاضحة، وقتال انتهى بطمنة تلقاها في موضع حب، ثم خلا المكان إلا من جريس بن، وفرس يحجم، وتحامل «وضاح» على نفسه فضمه جرحه وركب جواده وقفل راجعاً إلى أهله.

قضى المسكين شهرين على قراش الألم يتضور من ضربان الجرح وهذيان الحمى وثوران الحب. ولكن الجرح كانت قريب الغور فاندمل، والحمى كانت عارضة فأقلعت، والحب؟ هذا هو المرض الخامر والداء العيساء، فليس له غير الله من آس ولا طبيب، لذلك نصحوا «لوضاح» أن يخرج البيت، فشد إليه راحله، وسنلقاه هناك بعد قليل.

- ٤ -

أذن مؤذن الحج للمرة الثمانين بعد الهجرة، فسالت قبحا الجزيرة

(١) هذا شعر مولد يتألف مع عجان في العباس والغاوين من الشعراء الخلفاء، ولا يتناسب مع حب محبوب. وأين القصر من راعية بهم، بل أين البحر من أرض الخصيب؟ ولا أدري لماذا قلنتي كل قصص الحب في البيداء وعند الأعراب بهذه النهاية، منع المحبين من اللقاء والزواج، وتزوج المحبوبة من زوج غني بليد. إنسه الخيال الضعيف والوضع الواهي.

بالقبا ب والهو ا د ج ، وأشرقت دروب الحجاز ومسالكة بالناس رجالا وعلى كل ضامر ، واكتظت بطاح مكة ورباعها بالحجيج من الشام والعراق واليمن ، ودوت الفضاء المشرق بأصوات التهليل والتلبية ، وروى الثرى المكروب من دماء البدن والضحايا ، وتمطر الجو القائظ بأنفاس الحسان الغيد ، وفاضت أندية « مكة » النديلة بالقصف والعزف والغزل ، وخرج الشعراء من بني الأنصار والمهاجرين في مظاريف الحز وبرود الوشي على النجائب المحضوبة ، يتعرضون للغواني المحرمات ، ويقطفون من فوق شفافها اللعس ألفاظ الدعاء ، قبل أن ترفع إلى السماء . وهناك على الربوة العالية ، ضرب القسطاط الرفيع العماد ، وفرشت الطنافس ، ونصبت الأرائك ، وصفت الفارق ، وفضدت الوسائد ، وقامت الجوارى والولائد ، وعلقت السدول والستائر ، وبرزت من خلالها « أم البنين » زوج الخليفة « الوليد ابن عبد الملك » في زينتها وفنتتها ترسل النظر قارة إلى الأفق البعيدة وقارة تتصفح به الوجوه المختلفة والأزياء المتعددة ، والناس يتحامون جانبها ، ويتهيئون ظلالها ، لهيمة الملك وشراسة الجند وجلال الخليفة ، حتى الشعراء من شباب الهاشميين وخلفاء « ابن أبي ربيعة » لم يجرؤوا أن يمدوا إلى جمالها الفاتن عينا ولا لسانا ، لأن الخليفة كتب « يتوعد الشعراء جميعا إن ذكرها أحدا منهم أو ذكر أحدا من قبيها » . ولكن الملكة تريد على رغم الملك أن تكون من عرائس الشعر ، وأن تظهر في ديوان الشاعر كما ظهرت في ديوان الملك !

والشعر في « الحجاز » كان حينئذ للمرأة ، يصف حالها ، ويعرض جمالها ، فتصل من طريقه إما إلى الزواج وإما إلى الشهرة .

فترأت « أم البنين » للناس ، وسهلت للغزلين الحجاب ، وكان « وضاح » يومئذ مشغولا عن الشعر والشعراء بنفسه ، فهو يطوف بالبيت ويتعلق بستمور الكعبة ، ويسأل الله أن يشعب قلبه بالسوة : حتى إذا خرج الحجيج

الى « عرفت » ، وتطاولت الرقاب ، وتطلعت العيون ، وأرمأت الأصابع الى موكب الملكة الحاشد ، جذبه جلال الحاجة النبيلة وجمال وصائفها ، قدنا من فلكتها ، فوجد كهنة الحب وشياطين الشعر يسايرون ركبتها ويراقبون سناها ، فحشى بجانب الشاعر « كئيب » ، ووقعت عين « أم البنين » عليه فراعها جماله وعلقتها حباله ، فأشارت بطرف العين الى جاريتها « غاضرة » فأثبتت معرفته ، فلما أفاض الناس من « عرفت » ، وانحدروا الى مرمى الجمرات ، وقفت بجانبه فتاة فتانة ناهد ، وأسرت اليه وهو يرجم الشيطان أن الملكة تريد لقاءه في خيمهما على « ميسى » . اضطرب « وضاح » لهذه الارادة ، وخشي عاقبة هذه الدعوة ، وتردد طويلاً في الذهاب الى هذا الموعد ، لأن هذا الحب الملكي أكبر من عواطفه ، ولأن قلبه الجريح لا يزال يقطر في لفائفه ، ولأن خيال « روضة » يعتاده في جميع موافقه ، ولكنه عربي طماع طمّاح مخاطر ، فلماذا لا يبذل الشعراء ، ويكبت الأعداء بالسبق الى جمال الملكة ومال الخليفة ؟؟

أمسى المساء وكان هلال ذي الحجة قد توارى بضوئه الشاحب خلف الجبل ، وأخذت الأضواء المنبعثة من بواقي المشاعل والمصابيح والكوانين تكافح ظلمة الغسق ، وألقى الناس أرواقهم على الرمال مجهدين بعد نهار قاتظ احمرت حواشيه من دماء القرابين ، وضرب الكرى على آذان العامة ، فلم يبق يقظان إلا ذو الحس الرقيق من جرم جمال الليل الى جمال السهر ، وإلا نقيسان شاعران بسط الحب عليهما جناحه ، وأزال ما بينهما من فروق ، ورفع ما يفضلهما من حواجز حتى التقى ابن آدم بهنت حواء وجهاً لوجه ، وأقبلت « أم البنين » على « وضاح اليمين » تنافله الحديث ، وتساجله الشعر ، وتنصب له شرك الفتنة في مطاوي اللفظ ، وتسدد الى قلبه سهم الغواية في مرامي اللحظ ، وحسبنا أن نروي من هذا الحديث المشقق العذب هذا الحوار :

- وكيف حال « روضة » بعدك يا « وضاح » ؟
- على شرّ حال وأسفاه ! زوجها من مؤسّر مجذوم ، فأعنداهما
بالجذام ..

- وما حالك أنت من بعدها ؟
- أما قبل هذه الليلة ، فكنت لا أنتفع بنفسي ، ولا أشعر بوجودي .
- ومنذ الليلة ؟
- منذ الليلة عرفت نعيم السماء بعد ما عرفت في « الخصيب »
نعيم الأرض .

- اذن ستحبني (١) ؟؟
- نعم ، ولو خيرت ما اخترت .
- وستنسب بي في شعرك ؟
- نعم ، ولو كره « الوليد » !
- اذن ، اصحبني الى « دمشق » فامدح الخليفة ، وسأرفدك لديه ،
وأقوي أمرك عنده .

- ٥ -

وعلى « نهر بردى » وفي القصر المشيد ، زكت شجرة الحب حتى
عرشت على كل حائط ، وسطعت فوحتها في كل أنف ، وتهدلت أغصانها
المزهرة على سرير الخليفة ، ودنت قطوفها المحرمة من فم الجنون وليلاه ،
فأكلت منها « حواء » وجرت الى الخطيئة « آدم » ! وآدم دائماً هو الذي

(١) لو كانت من بنات الهوى لما جاملت محبوبها بهذا السرعة ، ولا أدري
كيف استساغ الزيات هذه الرواية وصدقها ، وراح يزوقها ريمد أطرافها حتى جاز في أدبه أن
وضاحاً أضحى عند أم البنين كمروس الأطفال تلعب به متى شامت وترده الى مأتمه
متى خافت .

يكفر الخطيئة .

ظل « وضاح » ابن الطبيعة الطليقة سجيناً في قصر « الوليد » لا يبصر
سماً ولا أرضاً ، ولا يرى غديراً ولا روضاً ، ولا يسمع حركة ولا صوتاً ،
ولا يشعر بمجرى الحياة إلا حينما تخرجه أم المؤمنين من مخبئه ساعة يغفل
الرقيب وتغفو العين المريبة ، فتطارحه أحاديث الغزل ، وتسقيه من سلاف
الهوى علكلاً بعد نسهل ، ثم ترده عند الخوف الى مأمنه .

ومضت على تلك الحال حقبة من الدهر ورفت عليها ظلال الأمن
فيها ، ولكن وجه الجريمة وقاح لا يُبدى من سفوره ، ذفير مهما كتمته
فلا مناص من ظهوره ، والخطيئة لا يطررها إلا عقوبة أو تضحية .
فأهدي الى « الوليد » ذات يوم جوهر نفيس ، فراقه حسنه وأحب أن
يظرف به « أم البنين » ، فبعث به اليها مع خادم له ومعه كلمة رقيقة ،
فمضى الغلام بالتحفة الى مجلس الملكة فلم يجدوها ، وعلم أنها في بعض الغرف
فدخلها عليها مفاجأة ، وكانت قد أحست بخطاه دون الباب فبادرت
الى إخفاء « وضاح » فأدخلته في صندوق وأغلقتة ، وحينئذ دخل الغلام
فرأى أواخر جسمه تغيب تحت الغطاء ، فأدى الى الملكة الرسالة ،
ودفع اليها الجوهر ، ثم قال لها بلمجة الحبيث الماكر : ألا تهين لعبدك
يا مولاتي حجراً من هذا الجوهر ؟

فاجابته « أم البنين » بلمجة العزيز الممتعض : « كلا يا ابن اللعناء ولا
كرامة » (١) .

(١) ان الذي ضمن هذه القصة على البيت الأموي شعوبي ضعيف الخيال ، أحداً لا يدخل
على أمه او زوجته الا أن يستأذنها فكيف ساغ بعقله أن يفاجئ العبد مولاته ، فأين وضائفها
وجراضنها ، وبين قتل العبد ويجيء الوليد وقت كاف لإخفاء الحبيب إذا كان له حقيقة ، وإذا
كان العبد قد قتل فمن أشاع الخبر ، وهو قد بقي مرأياً بين الزوج والزوجة . فالقصة موضوعة ،
وعقدتها فائمة وسبككتها واهية بعد هذا تهمة لسيدة عزيزة عرفت بالصلاح وأخت للرجل
الصالح عمر بن عبد العزيز وزوجة وأم أولاد .

ولعلمها أو كانت تحسن قراءة الوجوه لحشت فله هذا الجوهر حتى لا ينطق ، أو لعلمها فهت لمن قوله ، ولكن نفسها الملكية الأبية أنفت الحشوع لهذا العبد ، فأثرت نعمة زوجها على نعمة خادمه ، وهي مع ذلك قوية الثقة في شفاعته الجمال ووساطة الحب ! ومهما تكن الدوافع الى هذا الجواب فإن الخادم قد ارتد الى سيده بحيلة الأمر ، ولكن الأمر نزل من الخليفة « الوليد » في بال واسع ، فأمر بالغلام « فوجيشت عتفه » ثم لبس نعليه ، ودخل على أم البنين وهي جالسة تتشبط في تلك الغرفة ، فجلس على الصندوق وقد علم وصفه من الغلام ، ثم قال بلمحجته الهادئة الرزينة :
- يا « أم البنين » ما أحب اليك هذا البيت من بين بيوتك ، فلم تختارينه ؟

- أختارم وأجلس فيه ، لأنه يجمع حوائجي كلها ، فأتناولها منه كما أريد من قرب .

- ألا تهين لي صندوقاً من هذه الصناديق ؟

- كلها لك ، يا أمير المؤمنين .

- ما أريدها كلها ، وإنما أريد واحداً منها .

- خذ أيها شئت .

- أريد هذا الذي جلست عليه .

- خذ غيره ، فإن لي فيه أشياء أحتاج اليها .

- ما أريد غيره .

- إذن خذه يا أمير المؤمنين .

- فأشار الى الخدم ، فحملوه الى مجلسه ، ثم أمر العبيد فحفروا تحت

بساطه بشرأ بلغوا بها الماء ، ثم دعا بالصندوق أو الناووس ، وقال له :
« إنه بلغنا شيء إن كان حقاً فقد كفناك ودفناك وذكرك وقطعنا
أثرنا إلى آخر الدهر ، وإن كان باطلاً فقد دفنا الحشب وما أهون ذلك ! »

ثم قذف به في البئر ، وهبيل التراب ، وسويت الأرض من وراء
البساط ، وأخذ الخليفة مجلسه ، واستمر الفلك يدور دورانه الأبدي المنتظم ،

كأن لم يكن بين (الحسبيون) إلى (الصفا)

أنيس ، ولم يسمر (بككة) سامر

إلى الأستاذ الزيات^٧

أحبيك بتحية العروبة ، وأحيي فيك « الأدب » الذي تصل بيننا
وشائج ، وتجمعنا أوامر ، والبيان الذي ألفيته يترقرق على لسانك
سائفاً عذبا ليلة ضمتني وإياك « دار البلاد » فأخذنا بيننا بأطراف
الأحاديث حتى ملكني تواضعك الجم ، وخلقتك السمح ؛ وبيانك المشرق
الذي دلني على أن وراءه قلباً كبيراً هو منبع ذبائك التواضع النبيل ،
وذلك الخلق السجيح ، وهذا اللطف الفياضة كله بالروح الشريف .
فأنا ما زلت أتذكر ذلك وأذكره مكنيزاً ومُعْجَباً ، وما زلت أحب
لو أني أجسد في وقتي متسعاً فأجتمع بك وأتمتع بحديثك وأستفيد من
مساجلتك وخوارك في أدب العرب وبيان لغتهم الساحر الأخاذ . أما
- وقد ضاقت بي رقعة الوقت حتى لم أوفق لبلوغ الأرب على نحو ما
أشتهي - فلا أقل من أن تكون لي منه قسمة تتسع لإنشاء رسالة
يحملها اليك عني بريد « البلاد » بما يبدو لي من وجوه الرأي والفكر فيما

(١) بقلم الأستاذ الكبير محمد بهجة الأثري .

نشر الرد المفعم في غرة شهر رمضان ١٣٤٨ ٢١٨ كانون الثاني سنة ١٩٣٠

أطالعه من فصولك القيمة التي كان آخرها ما طالعت به الأدب منها
مأساة الشاعر وضاح ..



لقد قرأت بإمعان هذا الفصل الرشيق أسلوبه ، الناصعة ديباجته ،
الكريمة ألفاظه ، وما زلت أسايره وأقلب النظر في أعطافه حتى فرغت
منه ، وإذا أنا بإزاء أمر لا أعلم كيف أدبرت عني أوائله ، وأقبلت
عليّ أواخره ، وإذا أنا تجاه خبر لا أدري كيف غرب كسنته عن
بالك ، ولا كيف جرت به يراعتك شوطاً بعيداً ، والمظنون أنها براعة
تتلكاً دون المشتبهات ، فلا تضرب في مجاهلها قبل أن تحبر أعلام
المذائب وتأمين الحيلاب ووعوثة الموطىء الذي تطؤه ، فلقد راعني إيمانك
اليقيني بقصة وضاح وأم البنين على النحو الذي أوردته ، وراغني أن
يقدم أديب مثلك في عصر التمهيص على إثبات أخبار موضوعه نفاها
أهل العصور الغابرة واتهموها بالوضع . ولا أعلم هل تختلف معي في
أخبار الماضين وفهم التاريخ بأمر جوهرى ؟ فإني لم أقف على رأيك في
مزاعم الرواة وأهل الأخبار ، ولست أريد بمجرد ما لاح لي من الرأي
في مقالتك أن أقول لك ما لم تقل ، وأحكي على لسانك ما لم تحك ،
ولكنني أحب أن تعرف رأيي في ذلك ، لتدفع عني ما عني أن
يختلج في صدرك من وجوه الشبهات في سبب دفاعي عن أم البنين زوج
الخليفة الوليد بن عبد الملك .

فإني على سلفيتي وحي لقومي العرب لا أسبغ على الغابرين غلائل
التقديس والاحلال فيما ليس هو من الحق في شيء ، ولا أزعم أن الماضين
يحلون حق عن إثبات اللهم ، فأخرج بهم عن البشرية ، وأخلع عليهم
نعوت النبيين والصديقين ، وإنما أنا أعتقد أنهم بشر مثلنا ، فيهم الطيب
والخبيث ، وفيهم البر والفساجر ، وفيهم المؤمن والملحد ، وفيهم العالم

والجاهل ، وفيهم العاقل والأفيل ، لا يفضلوننا ولا نفضلهم الا برجحان
 كِفَّة صفة من هذه الصفات الفاضلة فينا أو فيهم . أما التشييع لنحلة
 دون نخلة ، وأما العصبية ، وأما الحزبية لحزب دون حزب ، فمعاذ
 الله أن يخطر لي شيء من ذلك ببال ، فما أنا في ديني بمقلد ، ولا في
 قضايا التاريخ - ولا سيما الإسلامي - بذي عصبية ، ولكنني امرؤ
 أستمع القول فأعصه ثم أتبع أحسنه وأحلّه منزلته في القلب ، وأحمد
 الله على أن لم يجعلني علوي الهوى أو أموي الرأي ، بل جعل مني
 إنساناً لا يعنيه بعد أن يبدو له رأي أفرغ له اجتماعه أو افق أهواء
 قوم أم خالف أهواء قوم آخرين . ذلك قول الحق ، أفضي به إليك
 لتعلم ولتعلم من يعنيه الأمر أني لم أجاذبك بردة المساجلة عصبية لذري
 « عبد شمس » وأرباب التيجان من « بني مروان » ، أو تقديساً مطلقاً
 للقوم لأنهم كانوا ملوكاً للعرب والإسلام ، يجلّون عن النقيصة ولا يعلّق
 بهم ذام !

أقول هذا وأنا جدد مقتبظ بأن أرى قلماً مثل قلّمك مطبوعاً على
 الجري في ميسادين الإصلاح يتنزى في بحاله الذي انفرج أمامه ، ثم
 لا يخرج عنه فيتخذ من الأخبار الموضوعة قصصاً لا يفتيى بمغزاه إلا إلى
 غير ما هو منه الإصلاح ، ولئن أعجبتنا الغلائل المصنّعة التي خلعتّها
 على هذه الأحداث ، والألوان التي رسمتها بريشتك التي يحدر بمشاق الإنشاء
 الرقيق أن يترسوموا خطوطها - لم يعجبنا ما تحت ذلك من المعاني
 والأخيلة ، فإنها معان وأخيلة تؤلم الواقع ، وتحشد ضمير التاريخ الذي
 لا يريد من أهل الأدب الانساني أمثالك إلا أن يثقفوا عليه ، هذا إذا
 لم يروا أن يوسعوه تمحيصاً فيحسنوا إليه بنفي الشوائب التي ما زجت
 صفو حقائقه حتى أخذت منها على كثير .

وما تحدثت به في قصتك عن أم البنين ووضاح ، قد كنت تستطيع

- وأنت القدير - أن تقص نبأه كما قصه الأخباريون ، وتعلق عليه كما علقوا . هذا إن لم نطالبك بأن تبألغ أنت في ثمينه أكثر منهم لما جدد في هذا العصر من أصول وطرائق في النقد والتحليل تتقنها أنت وما كانت منهم على بال ، وكنت تستطيع أيضاً - إن لم تر بدءاً من كتابة هذه القصة - أن تقصها كما تريد مستبدلاً بأسماء أبطالها وأماكنها غيرها مما تختاره ، فتكون في منجاة مما صرت إليه . ما وجدنا هذه القصة أياها الفاضل ، تدخل في حساب الصدق والواقع ، لا من ناحية العقل ، ولا من ناحية النقل . فكيف يسوغ لنا أن نقبلها ؟ أم كيف يسوغ لنا أن نرويها واثقين مطمئنين ، فنندس بالتهمة شرفاً طاهراً ، ونلوّث بالوقية عرضاً نقيماً ؟

أم البنين تمشق وضاحاً ، وتجمعه بها على عترة من زوجها الخليفة ، تطارحه الغزل . ثم يطرّفها الخليفة بجوهر نفيس يحمله اليها خادم له ومعه كلمة رقيقة ، فيعضّي الخادم اليها فلم يجدها ، ثم يعلم أنها في بعض الغرف ، فيدخل عليها مفاجأة ، فتجسّس بحُطّاة دون الباب ، فتبادر إلى إخفاء وضاح فتدخله في صندوق وتغلقه . - حينئذ يدخل الخادم فيرى أواخر جسم وضاح تغيب تحت الغطاء ، فيؤدي إلى الملكة الرسالة ، ويدفع اليها الجواهر ، ثم يستوهبها بلهجة الخبيث الماكر حجراً من هذا الجواهر ، فتمتعض منه ، فيتوارى ، فيرتد إلى سيده الخليفة يجلبية الأمر ، فتوجأ عنقه . ثم يلبس نعليه ويدخل على أم المؤمنين فيجدها جالسة تنشط في تلك الغرفة ، فيجلس على ذلك الصندوق ، وما يزال بها حتى يأخذه منها ، ثم يأمر أن تحفر بشر فيقذف الصندوق فيها ، وهو يقول : « إنه بلغنا شيء » ، إن كان حقاً فقد كفناك ودقنا ذكرك وقطعنا أترك إلى آخر الدهر ، وإن كان باطلاً فقد دقنا الخشب ، وما أهون ذلك ! »

فأنت ترى أن الأمر محصور بين أربعة : أم البنين ، ووضاح اليمن ،
والخليفة ، والخدام . فأما الخادم الذي نقل السر إلى الخليفة فقد أمر
الخليفة به فوجئت عنقه فمات قبل أن ينث الحديث . وأما وضاح فقد
رمي في البئر وهيل عليه التراب ثم سويت الأرض ورد البساط إلى
مكانه . بقي الخليفة وأم البنين ، فهل يعقل أن واحداً منها حدث
بالخير حتى شاع وملا الاسماع ؟

اللهم ، لا !

فإن قلت : إن الخدم الذين حملوا الصندوق ورموه في البئر ، قد
حدثوا به .

قلنا لك : ومن أين لهم أن وضاحاً كان في الصندوق والخليفة نفسه
لم يفتحه ، ولم يدر أكان فيه شيء حقاً أم لا ، حتى قال فيما يزعم
الواضع : « إنه بلغنا شيء » ... إن كان حقاً فقد كفناك ودفناك الخ ... ؟

ثم هل يعقل أن الخليفة اليقظ الذي بادر إلى الخادم فقتله - على
افتراض صحة ذلك - يغفل عن هؤلاء ، ويدعهم أحياء يتمتعون
بخيراتهم ، ويتحدثون بما يجزع منه حتى لم يبق سمع لم يطره هذا النبأ ؟

حديث خرافة ، يا زميلي الأستاذ ، من أبين الأحاديث الخرافية
وضحاً ، وواضعه كذاب ضعيف الحيلة ، لا يحسن الوضع ، يتخذ أول كلامه
آخره وآخره أوله .

فهل يليق في مذهب القصص أن يتخذ هذا الكذب المتخاذل أساساً
لقصة ؟ وفي أساسها يرمي بخليفة عربي شريف 'همام' وزوج خليفة هي
من أرومة قومها الغر في الذؤابة والسنام ؟

هذا يحمل من النقد والتحليل عرضنا له من ناحية العقل والمنطق .

ونحب أن نعرض الآن لتزييفه من ناحية النقل ، ولا أحسب أن هذا لا يدخل في محيط اطلاعك الواسع ، فلعلك قد حرثت « كتاب الأغاني » حرثاً وقتلته بحشاً ، حتى وفقت لاستخراج مثل هذه « الأقصوصة » منه ، ولعلك - لو أعدت النظر فيه - تجد أبا الفرج الإصفيهاني ، وهو من تعرف مذهبه ونحلته ، قد أفضى إلينا في كتابه هذا ^(١) بأن هذا الحديث من وضع شعوبي زنديق في عهد بني العباس ، وقع بينه وبين رجل من ولد (الوليد) قحار ، خرجا فيسه إلى أن أغلظا المسابقة ، فوضع الشعوبي كتاباً زعم هذا الزعم .

ووضاح ، بعد ذلك رجل نكرة أشبه أن يكون خيالياً ، وضعه القصاص وضعاً متكلفاً ، فهم مختلفون في كل أمر من أمورهم : مختلفون في نسبه ، مختلفون في نشأته ، مختلفون في عشقه وأخبار من بعث .

وقصته - كما يقول صاحب حديث الأربعماء فيما أتذكر الآن - مكوّنة من عناصر مختلفة منها السياسي ، ومنها العصبي ، ومنها المبالغات العامية . وهذا الرأي نوع من التحليل لقول صاحب الأغاني في تحديده عنه وعن عشيقته المزعومة روضة : « ... ولم نجد لها خيراً يروي أهل العلم إلا لمعاً بسيرة وأشياء تدل على ذلك من شعره ، فأما خبر متصل فلم أجده إلا في كتاب مصنوع غثّ الحديث والشعر لا يذكر مثله » .

وبعد ، فهذا بجمل ثانٍ من القول في هذا الخبر المصنوع ، وإننا لنتقاضى قلم الأستاذ أن يصوغ لنا من عقود الأفاصيص كل ما يثير الإعجاب ويهز النفوس ويربي الفضيلة ويحيي القومية من معاني الشجاعة والفرورية والمجد والإرادة والهمة والمضاء وما إلى ذلك مما كانت تفيض به الأخلاق

(١) الأغاني ج ٦ ص ٣٢ ط. الساسي .

العربية ، وتفيض به عنهم الكتب والأبناء ، فما أشد حاجتنا اليوم الى مثل هذا النوع الذي أذكره ، وما أشد هذا النوع من المعاني العالية الى قلم صناع كقلم الأستاذ مجيد الصياغة ، ويبدع في تنويع الصور البيانية !

نص جواب الزيات :

الى الأستاذ الأثري^(١)

أدت اليّ البلاد ، كتابك الرقيق القيم ، فبرز عظمي ما وجدت من سمو أدبه ، وتبل غصبه ، وجعل من رجال الأدب أن يصطنعوا الأدب ، ومن حماة الحق أن يتبعوا الحق ، وجدير بمن اصطفاه الله لحمل هذه البراعة القدسية أن يصل ضميره بربه ، ويقطع أسباب الهوى من قلبه ، فيبحث للعلم ، ويكتب للإفادة وينقد للحقيقة . إن فقه لسان العرب أيسر من فقه لسان الأدب ، لأن اللغة من الناس ، والأدب من الله ، وللمرء حيلة فيما يكسبه ، ولكن لا حيلة فيما يوهبه .

أما بعد ، فتعمال يا زميلي تخض فيما بدأت من حديث وضاح ، لعلك أخذت عليّ ما أخذت لأنك حسبتني كتبت ترجمة تأريخية أو حررت حادثة واقعية ، ولم يسدر في خلدني حين قصصت نبأ هذا الشاعر البائس الا أن أصور الحياة البدوية ، والبيئة العربية في أفاصيص أفترعها من الأساطير أو ما يشبه الأساطير ، فأنا في هذه القصة وفيما نشرت من أمثالها قصصي لا مؤرخ ، وبين القصص والتأريخ رحم جزاء وعداوة مستحكمة ، لأن التأريخ يروي ولا يبتدع ويحقق ولا ينفق ويصدق ولا يمين . أما القصة فانها تخلق وتبالغ وتؤثر بالصور الكلامية

(١) نشر في جريدة البلاد في ٨ رمضان ١٣٤٨ هـ - ٧ شباط ١٩٣٠ م

الغلابة ، ثم ترتب الأحوال وتسوق الحوادث على حسب الخيال الممكن لا على حسب الأمر الواقع . وفي اعتقادي أن « ولتر سكوت » ومن نهج نهجه من القصصيين قد أساءوا إلى التاريخ والقصة جميعاً حيناً أرادوا أن يصلوا رحمهما ويوفقوا بينهما بابتداع القصة التاريخية ، فإن القصة بطبيعتها تفسد التاريخ وتشوهه بقبولها الاغراق والاختلاف والرواية المتهمة ، والتاريخ بتوحيده الحقيقة وتحيصه النقل يضيق مجال الخيلة ويحصر حدود القريحة .

فاذا اتفقنا ، يا سيدي الأستاذ ، على ما اتفق عليه علماء البلاغة الحديثة من أن للقصصي أن ينسج الأخبار ويسرج الاحاديث في حدود الإمكان ابتغاء التأثير والامتناع ، لا ابتغاء التقرير والاقناع ، خرجت من عهد ما أخذت علي ، وأدخلنا مأساة وضاح في باب القصص الشعري ، ثم خرجنا معاً نضحك من يترك أسفار التاريخ المحررة ، ليدرس العصر الجاهلي في قصة عنزة^(١) .

ولكنك تقول لي : إن الاعتماد على فن القصص لا يكفي مساعداً لنسبة حادث متخيل إلى انسان متحقق ، وأنا أقول لك : إن حادث وضاح لم يكن متخيلاً كله ، فإن حبه لروضة واتصاله بأم البنين وقتله في دار الوليد أمور تواترت بها الرواة ، وتوافرت على حدوثها الشواهد ، وما كان علي إلا خلق الظروف ووضع الألوان وربط السياق وجلاء الصورة .

هلم نعد النظر في (الأغاني) ، وهو أوفى وأوثق كتاب ترجم بوضاح ، فماذا نجد ؟ نجد أن أبا الفرج قد روى في أمر وضاح وأم البنين عشر

(١) حينئذ لو أن الأستاذ الزيات وقف بالرد عند هذا الحد ، إذن يخرج من بعض ما لغترف ، ولكنه ماحك ومجادل ، وإراد إثبات باطل الرواية . بباطل رواية ثانية ، فأخفق .
(المؤلف)

روايات في أساسها الاصمعي والخليل بن أحمد والحرمي بن أبي العلاء وابن الكلبي من أثبات الرواة ، وبديع وكثير من عاينوا الحادث ولاسوا أهله . تتناصر هذه الروايات جمعاء على أن وضاحاً شبيب بسأم البنين ، وأن أم البنين هويته واستقدمته ، وأن الوليد قتله ودقنه في داره ، وإنما الخلاف في مسألة الصندوق ، فعلي بن سليمان الاخفش يروي في كتاب المغتالين عن ابن الكلبي ان أم البنين هي التي وضعت في الصندوق على النحو الذي قصصناه ، وخالد بن كلثوم يقول إن الوليد لما هم بقتل وضاح راجعه ابنة عبد العزيز ونصح له ألا يفعل حتى لا يكون في قتله تحقيق فعله ، فلم يقبل منه ، وجعله في صندوق ودقنه حياً .

أما وضع أم البنين اياه في صندوق اخفاء لأمره عن الخادم المفاجيء ، فيقول خالد : إن رجلاً شعوبياً افتراه ، ليغيظ به رجلاً من أعقاب الوليد .

فالحادثة إذن قائمة الاساس باجماع الرواة ، وما كان الخلاف الا في مسألة تفصيلية مهما تعددت وجوهها فلن ترى فيها وجهاً أجمل من وجهه ، والذي حملني على الاخذ برواية ابن الكلبي اتفاقها مع المنطق ، فان دفن وضاح في قصر الخليفة دليل ناهض على اقامته في مجاسه ، فان وضاحاً أهون على الخليفة من ذلك ، والوليد أقدر على أن يوعز بقتله بين أهله ، فيسلم لسانه من الخجل ، ويده من القتل ، وعرضه من القالة .

على أن العقل يظاهر النقل في إمكان وقوع هذه الحادثة ، فان عصر الأمويين كان عصر انتقال من خلافة الى ملك ، ومن بدارة الى تحضر ، ومن يؤس الى نعيم ، وفي عضور الانتقال تتحطل القيود ، وتتغطل الحدود ، وتفسد الأخلاق ، وتطفئ الشهوات ، وتكثر هذه الخاطر الغزبية . ولا أريد أن أثقل على طبع الأستاذ بسرد ما يعلم من أخبار الشعراء مع النساء في موسم الحج في شباب هذه الدولة ، وحسبي أن أذكره بحادثة

من هذا النوع لا يتأري في وقوعها أحد ، وهي أشبه في طبيعتها بحادثة
وضاح من الليلة بالليل ، ووقوعها قرينة قوية على وقوع تلك ، أريد حادثة
أبي دهبيل الجملي مع عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان ، فقد يعلم أن
أبا دهبيل الشاعر الجميل رآها في سرادقها بالحج ، فلأ عينيه من جمالها على
غرد منها ، فلما فطنت له سترت وجهها وشتمتها ، فقال فيها :

إني دعائي الحين فاقتادني	حتى رأيت الظبي بالباب
يا حسنك اذ سبني مديراً	مستتراً عني يحلباب
سبحان من وقفها حسرة	صبت على القلب بأوصاب
يدوب عنها ان تطلبتها	أب لها ليس بوهاب
أحلمها قصراً منيع الذرا	يحمي بأبواب وحجاب

فلما اضطربت الألسن بهذا الشعر ، وسمعت عاتكة إنشاداً وغناء
أعجبت به ، ووصلت الشاعر بالهدايا ، وجرت الرسل بينها وبينه ، وصدرت
عن مكة فتبعها ، ووردت دمشق فوردها معها ، وهي تتعهد بالبر والعطف ،
وانتشر الصوت بهذا الأمر انتشار الصبح حتى بلغ سمع معاوية ، فغلا
بالشاعر خلوة حذره فيها جوار يزيد ابنه (فان له سورة الشباب وأنفة
الملوك) ، وإنما أراد معاوية أن يهرب أبو دهبيل ، فتتقضي القالة عن ابنته ،
فخرج الى (مكة) هارباً على وجهه ، فكان يكتب عاتكة ، وكانت
لمعاوية من الخصيان رقباء على ابنته ، فجاءه أحدهم ذات يوم يقول : « إن
كتاباً سقط الى عاتكة ، فلما قرأته بككت ، ثم أخذته فوضعتها تحت
مصلاها » ، فأمر الخصي أن يلطف لهذا الكتاب حتى يأتيه به ، فلما قرأه
الخليفة اعتلج في صدره الغم ، وبعث الى يزيد ، فلما جاء قال له : « إن
هذا الفاسق أبا دهبيل قد كتب هذا إلى أختك عاتكة ، فلم تزل باكية
منذ اليوم » ، وقد أفسدها فما عرى فيه ؟ ، فكان من رأي يزيد أن يكن
له عبد من العبيد في أزقة مكة فيريحهم منه . ورأى داهية العرب أن

رأي ابنه فائل ، فصرفه ، وحبج في تلك السنة . فلما انقضى موسم الحج ، دعا اليه وجوه قريش وشعراءهم ، وكتب فيهم اسم أبي دهبيل ، ففرق فيهم صلات كثيرة ، ثم صرفهم واستبقى أبا دهبيل ، وأقبل يعاتبه على ما صنع في رفق ولين ، ثم سأله في آخر الحديث : هل تزوجت ؟

فقال : لا ..

فقال : أي بنات عمك أحب اليك ؟

قال : فلانة .

قال : قد زوجتكما ، وأصدقتهما ألفي دينار ، وأمرت لك بألف أخرى يجري عليك مثلها في كل سنة .

فعقل الشاعر لسانه في فيه ، وكفن حبه المقتول في دمه ، وانصرف معاوية مسروراً الى دمشق ، ولم يحج في تلك السنة إلا من أجل أبي دهبيل .

أظنني يا سيدي الاستاذ قد أدليت اليك في شي من الاجمال بحجج من الفن وبينات من التاريخ ، وشواهد من القرائن تساعدك على تأييد مذهبي في هذه القصة . فاذا نعت نفسك ، وأراحت ضميرك ، وجدت الله على السلامة من الملامة ، وان وجدت مع كل ذلك ان الشبهة قائمة ، ووجوه الخلاف لا تزال قائمة ، فأني أعدك ان اطوي هذه الاسماء متى عزمت على نشرها مع غيرها للقراء (١) .

(١) تاريخ بني امية وضع بيد اعدائهم ، إما عداوة نخلة ، او عداوة سياسة ، او عداوة جنس ، وهذه الاخبار والمثالب التي يتناقلها رواة اكثرهم عرفوا بالوضع وخلق المثالب تقرباً من هوى الخلفاء العباسيين ، او بدافع الخط من الاسرة العربية التي اعلنت راية الاسلام خفاقة على سفوح الأنفول وسهول التركستان وسهول البنجاب وعلى شرائع الوار ونجاد البرنس ، وابن الكلبي رجل وضع مثالب العرب ، وهو كذاب مجاهر بالشعوبية يناصرها على العرب ، ومثله الهيثم بن عدي وهو شر من صاحبه ، ومثله يديج مولى عبدالله ، وكثير عزة هل ادل على غفلته وضعف عقله من اياته برجمة محمد ابن الحنفية ، وانه في غار حبي يندى المني والعمل ؟ (المؤلف)

عود على بدء

الى الأستاذ الزيات (١) :

هبطت عليّ من محلك الارتفاع رسالتك بل طرفتك هبوط نشير الطل
على نظم زهر الروض في السحر ، فنقعت فؤاداً بات ظمناً الى نداها ،
وانعشت روحاً كان شيقاً الى شميم شذاها ، وعكفت عليها امتع النفس
باستجلاء ما ختمتها من اغراض ومقاصد وإشارات ، واشتوف وذيلة
الروح بما خلعت ريشتك الجيلة عليها من الوان ودهان ، واللسان يتحرك
رطباً بقول الشاعر :

ظفر الطالبون واتصل الرض - ل وقاز الأحباب بالأحباب

أجل ، إن ظفري برسالتك ظفر بأخائك ورضاك . ومن الحق على من
يصطنع هذا الأدب العلوي الطاهر أن يرضى بأقواله وأفعاله « الأدب » ،
وكل من يتصل اليه بسبب ، ويمت اليه بنسب ، لأن الأدب في الحقيقة
ليس هو صنعة اللسان يحذقها الإنسان ثم يبرزها قوالب لا تجد تحتها إلا
الخييس من معاني الروح الكثر الجاف ، وإنما هو أدب النفس : يصل المرء
بربه ويعلوه عن مراتب الضعة والهوى ، ويقطعه عن جاذبات الارحام
وقاطعات حبال الإخاء ، وذلك مضافاً هذا الفن الذي تمت اليه ، ونقيمه
فيما بيننا مقام الوالد ، ونعمل على رفع شرفه حين نتداول فنونه وتغاذب
أبحاثه حتى تنتهي بذلك الى مداولة التعارف فمجادبة حبال الإخاء
فأخذ بضبع الإنسانية .. لذلك لا أراني في عودتي اليك أذكراك فيما
تضمنته رسالتك من فنون القول الا عائداً على التعارف أحكم وشائجه ،
وعلى الإخاء أوثق أواصره ، وأعوذ بالله أن أكون من ذوي اللجاج بالباطل ،

(١) نشرت في جريدة البلاد في ١٥ و ١٧ شهر رمضان ١٣٤٨ هـ - ١٤ و ١٦ شباط ١٩٣٠ م.

أو المساجلة على غير طائل .

لقد كان الخلاف بيني وبينك ، أيها الزميل النبيل ، يتناول حادثاً واحداً هو حادث وضاح مع أم البنين : هل يصححه العقل ويؤيده النقل ، أو يبطلانه ؟ وإذا به يصبح - ليها أوردت - في فنون مشتبكة من القصص والتاريخ والجرح والتعديل والمعقول والمنقول ، كلها يسترعي النظر ويستثير الانتباه ويستدعي التمهيص ، وأحسب أن في تناولها بالتحليل البري ، خدمة للأدب والتاريخ والحقيقة أراك جد حريص عليها .

تقول أيها الفاضل في شرح مذهبك : « إنك حين قصصت نبأ هذا الشاعر الباتس لم يدر بخلك إلا أن تصور الحياة البدوية والبيئة العربية من أفاصيص تنزعها من الأساطير أو ما يشبه الأساطير ، فأنت في هذه القصة وفيما نشرت من أمثالها قصصي لا مؤرخ » .

حسن جداً ، وأحسب أنك لو وقفت عند هذا المعنى من تنصلك إذن لخرجنا من البحث ونحن ظافرون بالذي قصدنا إليه من القول بأن مأساة وضاح أسطورة من الأساطير ، وإذن لانقطع الخلاف بيني وبينك إلا في أمر الغاية التي ترمي إليها القصة الغرامية المنتهية بنتيجة يندى لها الجبين ، وفي أمر آخر هو أن القصة التي تخلق وتسرج الاحاديث وتبين لا يمكن أن تصور ألوان الحياة ما لم تجد من الواقع مستنداً وظهيراً . نعم ، لو أنك وقفت عند ذلك المعنى من القول لانقطع سبب الخلاف بيني وبينك في الجوهر ، وسهل الخطب فيما يستتبع ذلك من الرأي في القصص ومراميه . ولكنك عدت بعد هذا أنتقرير فوقفت من الأمر موقف المؤرخ ، لتدفع اعتراضي : (بأن الاعتماد على فن القصص لا يكفي مساعداً لنسبة حادث متخيل الى إنسان محقق) ، فقلت : (إن حادث وضاح لم يكن متخيلاً كله ، وإن حبه لروضة واتصاله بأم البنين وقتله في دار الوليد أمور (تواترت) بها الرواة وتوافرات على حدوثها (الشواهد)

ثم سلكت لتأييد ذلك طريقة البحث في الأسانيد ، فسميت مَنْ سميت من الرواة الذين ستعرض لهم ، ثم ظهرت ذلك بقصة لعلها أوهى من قصة وضاح في نظر النقد والتحليل ، وأكذب منها في مذهب الجرح والتعديل كما سأريك .

وأنا أقول لك : إن وضاحاً رجل ذكره اختراعه الرواة ، وهم يروون عنه الشيء ، وتقيضه ، ويختلفون في كل حال من أحواله ، فهو عربي حميري ثارة ، ومن سلالة الفرس ثارة أخرى ، أو هو في مذهب الموفقين عربي ولكن أباه مات عنه طفلاً فتزوجت أمه رجلاً من سلالة الفرس الذين يسمون الأبناء ، ورواية رابعة تشعر أن أباه مات عنه وهو رجل متصل بالخلفاء في دمشق وأنه رقاة بشعر . . فبأي ذلك نأخذ ، يا سيدي الأستاذ ؟ إن ما رأيت من الخلط والخيوط في نسبه ونجاره ، تراه بعينه فيما يتحدثون به عن أحواله وحبه ، وعن حبيبته روضة ، أهى فارسية أم عربية - ؟ وعن موته كيف كان أدفناً في البشر وهو في الصندوق ، أم اغتيل اغتيالاً ؟ إذ شبب بأُم البنين في شعره ، فتمي ذلك الشعر إلى الوليد فأوعز باغتياله ؟ كل ذلك تضارب وتناقض يدل دلالة بينة لا يداخلها الريب ، على ما أرى في أمر هذا الرجل المخترع . ورواة يختلفون كل هذا الاختلاف ، ويسرجون كل هذا السرج الفاحش ، لا أستطيع أن أجرو في مذهب العلم قاعته معك اختلافهم وكذبهم (تواتراً) أصدق به مثل خبر الصندوق الموضوع ، فأنت تعلم من غير شك أن (المتواتر) هو ما يرويه جماعة لا يمكن تواطؤهم على الكذب لكنهم وعدائهم وتباين أماكنتهم ، وأين توافر الشروط كلها أو بعضها فيما يروون من أخبار وضاح فتؤمن بها ؟

والله ، لو أني وجدت فيها خبراً واحداً سالماً من التناقض والاعتلال

لنزلت على حركك ، وسميت (متواتراً) كما تسمى ما لم يعبث حتى من (الآحاد) ، وإن كنت أخرج على مواضع العلم ومصطلحاته ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن قط ، ومن اعتدلتهم أثباتاً من روى أحاديث وضاح أو لابسوها كلهم منهم مجروح ، وأبو الفرج حين ينقل عنهم لا ينقل عنهم لكونهم ثقات ، وإنما هو يريد أن يكون أغانيه جامعاً لما تضطرب به الالسنه إن حقاً ، وإن باطلاً^(١) . فما على الناظر في كتابه إلا أن يعرف ذلك ، ليمحص الحق من الباطل .

فمن أولئك الرواية هشام بن محمد بن السائب الكلبي راوي خبر الصندوق ، وهو رجل كذاب أشير ، أجمع المحققون على اطراحه واطراح أبيه أيضاً لاستتعارها بالكذب والوضع . وكان هشام شعوبياً يتمصب على العرب ، رضع في مثالهم كتاباً نقضناه بكتاب سنخرجه للناس . وهذا صاحب الأغاني نفسه حين ينقل عنه يقفسي على ذلك بمثل قوله : « هذا من أكاذيب ابن الكلبي » ، وقوله : « لعل هذا من أكاذيب ابن الكلبي »^(٢) .

ومنهم الهيثم بن عدي ، وهو شر من هشام وأبيه ، فقد ذكر الجاحظ في (البيان والتبيين^(٣)) : أن ابن الكلبي كان يأكل الناس الكلا ، حتى إذا رأى الهيثم بن عدي ذاب كما يذوب الرصاص ! وقد أجمع العلماء على جرحه وترك حديثه ، لكذبه وسقوطه وانكشاف قناعه^(٤) . وللحسن ابن هاني ، ودعبل الخزاعي هجاء مرّ فيه لا نحب روايته .

ومنهم بديع مولى عبدالله بن جعفر ، يقال له بديع المليح ، كان مغنياً

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٩٠ و ٢٠٠ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وميزان الجرح والتعديل للذهبي .

(٣) ج ٣ ص ٧٣ ط . السلفية .

(٤) راجع الخطيب البغدادي والذهبي .

يعني اغاني غيره ، وكانت امه بربرية . وكانت ترقى من عرق النساء ، فأخذ ذلك عنها ، وكان هو صاحب سَمَر ، ومثل هذا الرجل لا يعتد علماء الجرح والتعديل بروايه .

ومنهم كُشَيْتَر عَزَّة ، وكان احق مسرفاً في الحق ، ضعيف العقل الى حد غريب ، كان الناس يتخذونه هزواً وسخرية ، فيصدق كل ما يلقي اليه ، ويسمع المزاج فيجيب جاداً مقتنعاً . مرض ذات يوم فدخل عليه نفر يهودونه ، فسألهم : هم يتحدث الناس ؟ قالوا : يتحدثون بأنك الدجال ، فأجاب : أما اذ قلتم هذا فاني لاجد في عيني هذه ألماً منذ أيام ! وكان مذبذباً منافقاً ، يقدم محمد ابن الحنفية ويؤمن بالرجعة ، ثم يمدح بني أمية ويقول في مدحهم ويفاخر بعشيرتهم نفاقاً ، بل كان يستبيح الكذب والنفاق في كل شيء (١) .

لا أريد ان أولف معجماً في رجال أسانيد الاغاني فاستوعب احوالهم ، وانما قصدت ان اضرب لك الأمثال ، لاثبت لك ما تسميه (تواتراً) وتأخذ به على انه ثابت صحيح استناداً الى روايات هؤلاء الكذبة من الشعوبيين والخباريين - لم يتوافر فيه شرط من شروط التواتر ، بل ولا الآحاد ، بل الادلة قائمة على تسميته كذباً واختلاقاً .

اما ورود اسم الاصمعي والخليل بن أحمد في بعض الاسانيد ، فلا ينهض دليلاً على صحة هذا الخبر . ذلك لان الراوي عنها ، وهو محمد بن المرزبان ، يروي عن الوضعيين والكذبة أمثال ابن الهيثم وابن السكيت وابيه ، فلا حجة فيه ، ولا خير بما يرويه .

ومن الغريب أن تقول ، يا سيدي الأستاذ ، باتفاق خبر الصندوق

(١) راجع اخباره في الأغاني ، ووفيات الاعيان ، وحديث الاربعاء .

الذي رواه ابن السكيت مع المنطق ، بعد أن أنهت لك في رسالتي السابقة الدلائل النقلية والدلائل العقلية على استحالة . وليتك إذ قلت باتفاقه مع المنطق كررت على دليلنا المنطقي فنقضته وأبطلته ، ليعلم أي الادعاءين ألصق بالصواب ، ولكنك لم تفعل ، بل طويت الأمر على غرور ، وتعرضت لغيره ، فكان كما عرضت عليك .

وذكرت (معقولا) آخر يظهر (منقولك) في إمكان وقوع هذه الحادثة ، فذهبت الى أن العصر الأموي عصر انتقال من الخلافة الى الملك ومن البداوة الى التحضر ومن البؤس الى النعم ، وذلك يقتضي أن تتحلل القيود ، وتعطل الحدود ، وتفسد الاخلاق ، وتطغى الشهوات . . واذن فالعصر الأموي في رأيك عصر فساد ولهو وعيث وبحون ، استحالة به طاهر الاخلاق الى رجس وفساد ، وغر العهر الناس ملوكهم وصعاليكهم وساغ فيه الجهر بالفحشاء فلا قيود ولا حدود : كل ذلك لأن الخلافة استحالت الى ملك ، والبداوة الى تحضر ، والبؤس الى نعيم ، ونحن نعلم من أمر الخلافة والملك أن الخلافة قائمة على الشورى في انتخاب الافضل كأننا من كان لا تنتقل الى الأبناء والحفدة ، والملك قائم على القهر والقوة وحصره في الأعقاب . وتغير صورة الحكم وتطورها على هذا النحو ليس فيه شيء من دواعي تعطيل الحدود وانتشار موبقات الاخلاق ، والا كان الملك في طبيعته سببا في فناء الامم وتدمير الشعوب ، ولا قائل بذلك ، بل الواقع المشهود قائم على خلافه ، كما أن انتقال كل أمة من البداوة الى التحضر ، ومن البؤس الى النعم ، لا يقتضي بتفسيح الاخلاق وتغلب الرذائل وان صح في بعض الامم لم يصح قط في العرب فاجر

الاسلام^(١) اذ كان الدين في عنفوان شبابه ، والناس على نصرته حراس ،
وشرائع الآداب مرعية الجانب ، وأولو الامر عليها ساهرون من ايام
الخلفاء الى عهد معاوية الى الوليد بن عبد الملك الى عمر بن عبد العزيز .

وحسبك أن تعلم ان الحر التي هي الاولى في مرافق الامم المتحضرة
لم يستطع أحد من الشعراء المسلمين في عصرهم أن يجزئ على ذكرها
ووصفها (هذا اذا استثنينا الوليد بن يزيد ، وفي أخباره مجال كبير
لشكوك الناقدین . ثم أبا الهندي أيام افول الدولة وانتقال الحاكم بتهذئة
الفن وتسكين الاضطرابات) اذن فانتقال العصر الاموي من البداوة
الى التحضر ، لم يكن من طبيعته - والدين الاثر العميق في النفوس -
فساد الاخلاق وطغيان الشهوات ، وانما كانت طبيعته التوسع في الفتوح ،
والاستبحار في العمران ، والتشديد لدعائم الملك ، والحرص على ضبطه
والاحتفاظ به ، واذا كانت مشاهد الحضارة المادية تدفع العرب بطبيعتها
الى الانغماس في « بحاج الذات » ، فقد كانت طبيعة الدين المتمكنة
منهم تمنعهم أن يأخذوا منها الا ما لا يفسد مروءة ولا يدنس طهراً
ولا يمس عفافاً ، فكان القوم مع أخذهم بحظهم من متاع الحياة يحتفظون
بآداب الدين ، ويحرصون على شرائع الاسلام ، ولا يفرطون فيها ولا يفرطون .

وحسبك أن تعلم أن شعراء الغزل الذين نشؤوا في الحجاز وفي أكناف

(١) اني اتفق مع الاستاذ الجليل بقرينة قصة وضاح وانما من دس الوضاعين الخاقدين على البيت
الأموي ولكني اختلف واباه باستحالة وقوع مثلها بل رافطع منها من العرب فحجر الاسلام . ألم
يضرب الجيش الأموي الكعبة صدر الاسلام ألم يسبوا المدينة ويستبيحوها ثلاثة ايام ؟ ألم يسبوا
نساء آل محمد ويقتلوا حتى الاطفال ؟ فأين هذا من اقامة الحديده ؟؟ اكلوا على نصرته حراساً
يوم قتلوا عثمان ؟

هذه شؤون سياسية وعسكرية ، وكلا الجانبين المتخاصمين شريك في تبعاتها ، والكلام في قضايا
الاخلاق والآداب العام كما يرى من استمرازه على هذا النحو في الصفحات الآتية .

البداوة كانوا الى العفاف أقرب منهم الى ما يُشتم منه فجور ، حتى إذا استعرضت في (الأغاني) حديث زعيمهم عمر بن أبي ربيعة ساعة حضرته الوفاة مع أخيه ، علمت أنه كان امراً ناجحاً في أقواله ، عفيفاً في أفعاله ، ومع ذلك ضج الناس من هؤلاء الأفراد الغزلين الذين كانوا يشيرون بكل شريفة هاشمية أو أموية ، أو من سائر قبائل العرب ، حتى منعوا النساء من الحج . ومضوا يرفعون عقائرهم بالشكوى إلى الحكام ، وترصدوهم للاغتصاب ، على علمهم بأنهم لا يريدون بذلك إثماً ولا نكراً ، وإنما يذهبون في تشييبهم مذهب المديح والدعابة ، « والشعراء يتبعهم الغاوت ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ... » . ولقد حدثنا الاخباريون أو قل حدثنا التاريخ بتواعد الوليد والحجاج والشعراء الغزلين إن ذكروا في غزلهم إحدى نسائهم أو إحدى وصائفهم ، وطارد عمر بن عبد العزيز الشاعرتين الاحوص وابن أبي ربيعة ، وكذلك طارد هذا الثاني كل من عبد الملك بن مروان وسليمان بن عبد الملك ، ونذر مروان بن الحكم وهو على المدينة من قبل معاوية ليقطعن لسان جميل بن معمر لتغزله بشيئة ، إذ شكاه اليه أهلها بذلك مع مراقبتهم ووثوقهم بعفته ، ويحسن أن نعلم أن من هؤلاء الغزلين من كان يدفعه الكيد السياسي — ليس غير — إلى الغزل بنساء الولاة والحكام ، كما فعل العرجي حين تغزل بأبى محمد بن هشام والي مكة زوجه حتى أدى ذلك الى الإيقاع به . . وغيره يومئذ كثير .

ومهما يكن من شيء فإن الروايات في هذا الباب وذاك كلها متضافرة على أن القوم كانوا أعفاء حراساً على الشرف والمجد ، والحكام ذوي حزم وغيره على الحرمات . ولو لم أجد من بينات التاريخ وقرائن الاحوال دلائل على أنهم كانوا بالمنزلة التي أصف لك ، لآمنت معك بأن عصر بني أمية عصر تحللت فيه القيود ، وتغطلت الحدود ، ففسدت الاخلاق

حتى لم يبال الناس ديناً ولا شرفاً ، ولكنني - والحال ما أرى - لا أستطيع ، في مذهب العلم ، أن آخذ بظاهر طرف من أقوال أفراد الشعراء ، وأغض عن « ماجرياتهم » مع الناس وأولي الامر ، وأتناهى الرجوع الى طبائع العرب ، فأؤمن بأن العصر الاموي هو كما أقروا في أخبار هؤلاء الافراد الغزليين ، وأن هؤلاء الافراد الغزليين يمثلونه اصدق تمثيل ... هذا إذا اكتفيت بما تقدم ، ولم أنظر النظرة الدقيقة فيما يكتنف هذا العصر من عصبية الاحزاب السياسية ونكاية بعضها في بعض ، ثم استغلال الشعبيين لخصومات هذه الاحزاب ونشاطهم لوضع كل ما يوافق مذاهبهم السياسية الباطنية : من تشويه للدين بوضع الاحاديث على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، وتشويه لتاريخ العرب باختلاق الاكاذيب والخط من ملوك العرب وخلفاء الإسلام وكبار صحابة النبي ، حتى كان من شجار الهاشمين والامويين والخوارج ، واستغلال الشعبية هذا الشجار الذي رسخت جذوره وامتدت عروقها - ما ترى من الانباء السيئة في الكتب تحمل على القوم وهم منها براء ، ومن هنا فان من يقدم على البحث في التاريخ الاسلامي ، وهو غير بعيد النظر في علم طبائع الاجتماع وأخلاق الامم ومنازع الشعوب يأخذ أخبار الحوادث بظواهرها ويلقي الكلام على عواهنه - يقع في خلط غريب ، ثم لا يسيء الا الى نفسه ، كما وقع كثير من المؤرخين والمفسرين وأئمة النقل في مغالط تزدري بحاكميها لاعتمادهم على مجرد النقل غشاً أو سميناً ، كما أقاض في ذلك العلامة ابن خلدون في أوائل المقدمة .

فاذا عرفت ، أيها الاستاذ ، مذهبي في البحث التاريخي ، عرفت مصدر الخلاف بيني وبينك في فهم العصر الاموي . فأنا لذلك لا أستطيع أن أطمئن الى أكثر ما يرويه (الاغاني) من احاديث السيدة سكينة والثريا بنت علي وزينب بنت موسى وأضرابهن مع الشعراء ، ولا الى ما نقلت من حادثة أبي دهبيل مع عائكة وما هو منها بسبيل .

ولقد قلبت حادثة أبي دهب التي ترى أنه لا يجارى فيها أحد على وجوه من النظر ، فما بانت لي إلا واهية سخيفة ، واهية من جانب السند ، سخيفة من جانب المنطق . أما سندها ففيه شيوخ الكذابين والوضاعين وزعماء الشعوبيين هشام بن الكلبي وأبو الهيثم بن عدي ، ووجود واحد من هؤلاء في سند ما كان مساعداً لطراح الخبر واسقاطه .

وأما سخفها فلأن فيها استحالة ظاهرة ، وهي القول إن معاوية لما سمع بتشبيب أبي دهب بابنته ومراسلته لها من مكة غادر دمشق إلى مكة ليعقل لسانه في فمه ، فدعاه في الشعراء ، ثم صرفهم واستبقاه عليه يعاقبه على ما صنع في رفق ولين ثم زوجه واحدة وأصدق زوجه ألي دينار - وأمر له بألف أخرى يجري عليه مثلها في كل سنة ، فعقل بذلك لسانه ، وانصرف عنه مسروراً إلى دمشق ، ولم يحج في تلك السنة إلا من أجل أبي دهب ! فأي شيء في هذه الاسطورة يتساهل له المنطق فيسفف ويسفف حتى يصدق ؟ أيما در معاوية وهو ملك العرب العظيم دمشق إلى مكة من أجل أبي دهب ليعاقبه ويؤوجه ، ويتوسل إليه بالمال والمقال ألا يرسل ابنته ولا يتغزل بها في شعره ؟ أليس أبو دهب أهون عليه من ذلك ، ومعاوية أقدر على أن يأتي به إليه من مكة إلى دمشق ، فيعاقبه أو يؤدبه أو يفعل به ما يشاء كما يوحى إليه دهاؤه ؟ أرايت ، يا سيدي الأستاذ ، أن الحكاية التي كذبها ابن الكلبي ، فأردتها دليلاً لتأييد الأكذوبة الأولى : أكذوبة الصندوق ، كيف تشف عما تحتها من سخف لا يمكن أن يصدر إلا من مثل ابن الكلبي وأبيه والهيثم الشعوبيين ^(١) .

(١) أوجزت القول في إبطال هذه الأكذوبة ، ولعلي أعود إليها وإلى ما هو منها بسبيل مما ورد في الأغاني وغيره ، في فرصة تسمح بوقت يتسع ، (الأثر)

لقد جريت الى هذا المدى في التحليل مسابقة للبحث ، وأريد أن ألفت نظر الأستاذ الى أمر ساق له هذه الحادثة ، وهي تناقضه ولا تأتلف معه ، فذكر في أول رسالته أنه حين قصّ نبأً وضاح لم يدر في حليته إلا أن يصور « الحياة البدوية » وهذه الحادثة الثانية حادثة أبي دعبل التي ساقها هنا لتأييد تصويره لتلك الحياة البدوية إنما ساقها هنا مثلاً لمؤثرات « الحياة المدنية » ، فكيف يجمع بين الضب والنون ؟ على أنه إذا وقع أمر ما للإنسان ، فهل يقتضي ذلك أن يقع مثله لغيره ؟ فليس من المعقول أن نجزم بوقوع حادثة وضاح لأن شيئاً بها وقع لغيره ، وكلا الحادتين موضوع باطل في مذهب العلم وحجة المنطق كما رأيت .

وفي الجملة إن الحق الذي لا مرية فيه أن كثيراً مما نخذه في (الأغاني) وأشباه الأغاني من كتب الرواية والنقل إنما هو سحر وقصص مكذوب منتحل بعيد عن مذاهب اليقين ، وليس مما يسوغ في دين العلم والنقد أن ينتزع من الاساطير المرقشة أقاصيص يراد منها تمثيل حالة الأمة الروحية والخلقية ، لأن الكذب الذي يوضع للهدم ، لا يمثل الواقع الذي يقرره العلم ، فإن نفسية العرب في فجر الإسلام هي غير ما تحكيه عنهم الاساطير الشعبية ، فالقاص الذي ينتزع هذه الروايات ويؤرقها بشيء من ألوان الخيال لا يعدو مرقبة القاص إلا إذا انتزع أو زوق ما ما يصدقه الواقع والمعروف من طبائع الاجتماع ، ونفسية الأمة التي يتحدث عنها ابتغاء التأثير والتمثيل ، وإلا فإن إثم ما يذنبه أكبر من نفعه ، وأمره أقل من أن يذكر ويؤبه له ، وأجل براعة المنشيء الأديب المفكر أن تصرف في أمثال هذه الميادين .



وبعد ، فهذا ما بدا لي تعليقه على رسالة الأستاذ الصديق ، فإنت
وقع موقع القبول فذلك هو المأمول ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته (١) .

(١) لم يرد الزيات وأغلق باب الجدل خشية أن يحوزه إلى فئوع من المعاصكة . كل يريد أن
ينصر حجته ، وقد يؤدي به إلى مزالق لا يتقبلها الرأي العام العراقي يومئذ ، وهو أميل إلى
إخفاء التصون والمفاق على الأسلاف ، ولا يستسيغ إعلان الفاحشة وهتك الاستار - عملاً
بالقول المأثور (اذكروا حسن موتاكم) . هذا إذا كانت لنا حقيقة ، فكيف وهي احاديث
مختوعة لأبيات ماجنة يشك الرواة في قائلها ، ويشكر أهل العلم حقيقتها ، ونحن كفر اقدظفرونا
بنمودج للنقد التزيه والأدب العالي بمختلجان ، وكان لنا وقع حسن في نفوس المتأدبين .

مطارحة أدبية

ونشرت جريدة البلاد بعد ذلك في يوم الاثنين ١٠ شباط ١٩٣٠ مقالاً للأستاذ محمد مهدي البصير (الدكتور) يساجل بمقاله أو مطارحته الأدبية الأستاذ الزيات ، وقد وفي الأستاذ الأثري الموضوع كما أسلفنا ، وإني أورد نص المطارحة إغماً للفائدة ، قال :

الأستاذ الزيات أيدي بيضاء على اللغة العربية وعلى الأدب العربي الناهض تستدعي اكباره وتستثير الاعجاب بمداركه ومواهبه ، ذلك لانه ترجم وألف آثاراً حسنة وأسفاراً جليلة نافعة ، وما فنيء حضرة جاداً مثابراً بكل ما أوتي من النشاط والذكاء والحدق والمهارة على مزاولة الترجمة والتأليف . وكلنا رجاء أن تتكامل جهوده وأعماله بما تستحقه من النجاح والفوز . وقد قرأنا أخيراً للأستاذ أقصوصة رائعة انتزعها من حياة الشاعر وضاح ، ونفجها من أسلوبه السحري البديع ، فجاءت مثلاً في جزالة التركيب ولطافة الأسلوب وبلاغة التعبير وجودته ، بيد أننا إذا أمعنا النظر في ما وراء ذلك رأينا أنها لم تخل على بداعتها من شطحات غريبة طغى بها القلم السبيل أثناء تدفقه ، وسبحان المبرأ من كل عيب . فمن تلك الشطحات - المأمول أن يسعنا عفو الأستاذ قبل كل شيء - تصوير الشاعر وضاح بطل القصة تصويراً لا ينطبق على حياته ،

فقد وصفه الأستاذ بالميل الى العزلة والانصراف الى التفكير الهادئ
الوديع تحت ظلال الغابات وفي أفياء الحقول والمروج الانيقة الخضراء
شأن الفلاسفة وكبار المفكرين والانبياء ومن جرى هذا المجرى . والحقيقة
أن الشاعر وضاحاً لم تكن هذه الحياة الفلسفية المشبعة هدوءاً والسكينة
في يوم من الايام ، وان حياته لم تكن سوى حياة انسان تكتنفه الضجة
وتحيط به الجلبة . وهو لا يرى في هذا كله بأساً لأنه لم يخلق فيلسوفاً
في روحه أو حكيماً في طبيعته ، انما خلق شاعراً بسيطاً يأنس بالوضوء
ويتصل ما أمكنه الاتصال بالجمهور فيشاطره حياته ويشاركه في آرائه
واخلاقه وعاداته (هذا إن وجد هذا الوضاح) . وهناك في مراحل
القصة العديدة شطحات أخرى رأينا أن نضرب عنها صفحاً لصغر قيمتها
وقلة الاعتداد بها إلا أن الذي يهمنا كثيراً هو سرد الاكذوبة التي
تكوّن بيت القصيد في القصة واثباتها على أنها حقيقة مقررة لا تقبل
نزاعاً ولا جدالاً . تلك هي الاكذوبة التي وضعها أحد الشعوبيين
المتعصبين وحملها على أم البنين زوج الوليد بن عبد الملك المعروف بنبه
وغيرته وبصلاح سريره وسيره ، ولم يكن ثمة سبب لوضع هذه الاكذوبة
المرذولة ، وحملها على ملكة جليلة القدر عظيمة المنزل سوى أن خصاماً
عنيفاً حصل بين أحد أحفاد هذه الملكة وبين رجل من الشعوبية في
صدر دولة بني العباس ، فكانت نتيجة ما أشرنا اليه من اختلاق تلك
الاكذوبة وحملها على الملكة البريئة وتسييرها في الآفاق خسة ودناءة .

وأنت تستطيع أن ترجع الى الجزء السادس من الاغانى لتري مؤلف
هذا الكتاب يتحدث اليك بما أسلفنا ذكره من الاختلاق والافتعال
مؤيداً ذلك بمعناته وأسانيده على جاري عاذته ، على أنه لو لم يتصد
أبو الفرج الى بسط قصة الشعوبي المتعصب بأفعاله وخصومته لما جاز
للأستاذ الزيات أن يعتقد بإمكان إقامة شاب جميل غريب في بلاط ملكه

ارستقراطية متعجبة تغالظه وتسامرهُ عند الخلوات وتنادمه في ظل الفرص
الساخنة . والآن أود أن أقطف لك نبذة طيبة بما قاله الاستاذ
الفاضل بوصف اقامة الشاعر الجليل وضاح في كنف الملكة الائمة على
ظنه ، قال حضرته :

« ظل وضاح ابن الطبيعة الطليقة سجيناً في قصر الوليد لا ينصر
سماه ولا أرضاً ولا يرى غديراً ولا روضاً ولا يسمع حركة ولا صوتاً ،
ولا يشعر بجري الحياة إلا حيناً تخرجه أم البنين من مخيمه ساعة يغفل
الرقيب وتغفو العين المريية فتطارحه أحاديث الغزل وتسقيه من سلاف
الهوى عللاً بعد نهل ثم تردة عند الخوف الى مأمنه » .

قال : « ومضت على تلك الحال حقبة من الدهر ورفت عليها ظلال
الامن فيها للبحر ... » .

لنسلم على أن أم البنين قد تنازلت عن جلالها الملكي وواجهها الزوجي
فعاشرت وضاحاً واتخذته خليلاً أو عاشقاً عف الضمير طاهر الذيل على
أقل تقدير ، ولنفرض جسداً أن الشهوة الحيوانية الخبيثة المتغلبة قد
حدث بهذه المرأة الضعيفة الطائشة على أن تحتجب عشيقتها كما تحتجب
طرائف الحلي والخلل ، ولكن كيف تسنى لوضاح أن يعيش في ناحية
من قصر الوليد عيشة السجين كل هذه الحقبة ؟ من كان يشهده بما لا بد
له منه من طعام وشراب وما أشبه ذلك ؟ من كان ينولى القيام على
شأنه ؟ أكانت أم البنين هي التي تفعل ذلك بذاتها ، أم كانت تعهد
به الى وصيفة ذكية مؤمنة ؟ وسواء أكانت الملكة هي التي كانت تفعل
ذلك بذاتها أم أنها كانت تعهد به الى وصيفة ، ألم يفتبه الى تلك الحركة
المتكررة المتجهة دائماً الى ناحية الختم الامين أحد من سكان القصر وأفراد
الحاشية ، على كثرتهم ووفرة عددهم ؟ ألم تتهاوس بذكرها الشفاء ؟
ألم تتغامز بشأنها العيون والحواجب ، ألم تتحول تلك الهمسات وهذه

الغمزات إلى ضجبات عالية تهتز لها مفاكيب القصر وتنتلي بها مسامع
الوليد ، حتى يستيقظ من رقدته ويتنبه من غفلته ؟؟

كل هذه الأسئلة لا تنبسر الإجابة عليها لأحد سوى الاستاذ . على
أننا إذا تدبرنا أمر هذه القصة وتفهمناها جيداً رأينا أن لا مندوحة لنا
من أن نعتبرها مختلفة محمولة على أم البنين وعلى وضاح معاً في عصر متأخر
لسبب من هذه الأسباب العدائية التي تبرز بنظر البعض اثنان أي عمل
كان من الأعمال التي لا يفتخر بها انسان ما دامت الغاية المتوخاة وهي
الانتقام من الخصوم تقتضي ذلك ، أو أن تذهب إلى أن وضاحا شاعر
ماكر وقد وسوس له شيطانه أن يصطنع الهيام ويتكلف الغرام والغزل
في أم البنين ليلحق بها ويزوجها الخليفة « النزارى العدناني » هذه الوصمة
الفظيعة والسبة الخالدة ، تنقصاً لشرفها وتهجماً على مقامها ، لا شيء
سوى أنها نزاريان عدنانيان ، وأنه شاعر يائي قحطاني ، وأنت تعلم ما
شأن العدنانية والقحطانية في أيام بني أمية ، وقد سبق وضاحا إلى مثل
هذه القملة عبد الرحمن بن حسان الأنصاري ، وهو شاعر يائي قحطاني
تشبب برملة بنت معاوية بن أبي سفيان وزعم أنها تبادلته الحب وتمن
عليه بالوصل ، إلا أن معاوية الداهية تمكن من حمله بحيلة لطيفة على
تكذيب نفسه بنفسه بغير ما إكراه ولا إيجاب ، نعم انه لا مندوحة
لنا من أن نأخذ بأحد هذين الأمرين ، وبرهاننا على صحة ما ندعيه أو
نفترضه في هذا الشأن أن صحيفة حياة الشاعر وضاح قد طويت في أيام
الوليد بن عبد الملك ، وأن الرواة يروون له أشعاراً غزلية كثيرة يزعمون
أنه نظمها في أم البنين ، فينبغي أن تكون هذه الأشعار قد نُظمت
ورويت بعد وفاة الوليد ، أو قل بعد سقوط الدولة الأموية ، وأضيفت
إليها الأخبار والحوادث الغرامية المختلفة المتصلة ، وحملت جميعاً على الملكة
البريئة كذباً وبهتاناً ، وأنها « أعني أشعار وضاح » قد نُظمت ورويت

وجّهت بما يلائها من الحوادث المحزنة في أيام الوليد شكاية وتحدياً له
 وارضاء للخصومة القوية الشديدة المتبادلة وقتئذ بين العصبيتين العدنانية
 والقحطانية اللتين كانتا إذ ذاك أشد ما تكونان تعادياً وخصومة . وبديهي
 أن كلتا الوجهتين لا تقتضي سوى تبرئة الملكة النزيهة المتهمة . هذا ما
 تحب أن يكون ، وإلا فهل من المعقول أن شاعراً ليست له ضغينة سياسية
 تأكل قلبه وتفقدته رشده وتضطره الى التضحية في سبيل غرضه ، يستطيع
 أن يجرؤ على التشيب بملكة وذكرها علناً بما يسيء إلى سمعتها ويضر بشرفها
 وكرامتها سواء كانت بينه وبينها غرام وصلات وعلائق غرامية
 في طبقات الخفاء أم لم تكن ، أليس من الحق الذي لا نزاع فيه
 أن ذلك مما يعرض حياته الى خطر مما وراءه خطر ؟ وقضية
 أخرى أود أن ألفت اليها أنظار القراء ، وهي : أن الشاعر وضاحا
 قد جرب نفسه ما يستدعيه التعرض الى ذكر الحفريات والتحدث عنهن
 بصراحة في منظوم الكلام من نتائج وخيمة وعواقب سيئة ، فان رهط
 روضة (وهي أولى عشيقاته كما ذكر الأستاذ) أنفوا من تشبيه بكرعيتهم ،
 وغضبوا لذبوع اسمها مقروناً باسمه على ألسنة الخاصة والعامة فصمموا
 على الانتقام لشرفها ولشرفهم منه وكنوا له على طريقه الى الملتقى بها
 فحصلت بينه وبينهم معركة دامية تكشف عن سقوطه مشخماً يجرّح
 بليغة الى الأرض . فليت شعري أمن المعقول أن تكون نتيجة هذا الدرس
 البليغ الذي أتاحه القدر لوضاح في غرامه الاول أن يستهتر فيما بعد بنظم
 القصائد الغزلية الماجنة وحملها على ألسنة الرواة مصحوبة بتفاصيل رواية
 غرامية يمارس تمثيلها هو وعشيقته الملكة على ما يزعم ؟ ألم يكن هذا
 نظير ما نزل به من رهط حبيبتيه روضة عندما تعرّض لها في أشعاره
 وتحدث عنها في أشعاره . أما انه إذ جاز لنا أن نستخلص من كل ما
 تقدم نتيجة حاسمة ، فاننا نستنتج بمزيد الاطمئنان والثقة أن الرواية التي
 قيل ان الشاعر وضاحاً وأم البنين قد اشتركا فيها على مسرح الخلاعة

والاثم لم تكن سوى رواية خيالية مفتعلة في أخبارها ، متحلة في أشعارها مختلفة في كل شيء من الأول الى الآخر .

محمد المهدي البصير

وعلقت البلاد على كلمة البصير :

البلاد : « لقد أجاب حضرة الأستاذ الزيات على تعليق الأستاذ محمد بهجة الأثري حول هذا الموضوع نفسه .

وعلق الأستاذ الأثري على جواب الزيات بقال مدعوم بالحقائق والوثائق والمستندات ونشره في البلاد في ١٤ شباط ١٩٣٠ في صحيفة الشعر والبيات » .



الادب وعوامله وحظ العرب من تاريخه :

ألقى الأستاذ أحمد حسن الزيات المحاضرة الأدبية الأولى في قاعة (الثانوية المركزية) في ١٧ كانون الثاني سنة ١٩٣٠ م ، وكانت عامة حضرها جمهور كبير من المعنيين بالادب ومن عشاق الزيات ، وإني ألخص المحاضرة الاولى ، ثم أعود فأثبت المحاضرة الثانية لاهيتها ، وفي رأي أن المحاضرة الاولى كانت كمقدمة للثانية .

قال :

لا تريد يا سادة أن نهدم لنصبح من غير أدب ، ولا أن نظهر النقص لنسيء الى مجد العرب ، إنما تريد أن نغير ما بأنفسنا من خمود وتقليد وجهل ليغير الله مسا بنا من تأخر وعبودية وظلم ، لا تريد أن ترم جروحنا على فساد ونغل ، ولا أن نقيم صروحنا على خواء وخلل ، وإن أدبنا بحمد الله لا يزال قويا فتيا ، يشاد الزمن ويحالد الحوادث ويفيض بالحياة فيضان النيل والفراثين ويردى ، وواجبنا أن لا ندعه يفيض في

الصحاري والسهول . واجبتنا أن ندبره بأقامة القناطر والجسور ، وأن
نظهر مجراه من الاعشاب الدنيئة والصخور ، وأن نحول تياره الى الارض
القريبة الخصبه ، فنجعل منها ربوعاً عامرة وجناناً ناضرة ، فيهبها متاع
الاذن بالتغريد والشدو ، ولذة العين بالرواء والبهجة ، وشهوة النفس بالذكاء
والعطر ، وسعادة العالم بالسلام والوثام والمحبة . أما الزهاوي والرصافي
والمطران والزركلي وحافظ وشوقي ، فهم الاوتار السليمة الباقية من قيثارنا
المفقود ، يشجوننا غالباً بألحان الذكرى فتأمنى على الماضي ، ويضطربوننا
أحياناً بأنغام الامل فنفرح بالمستقبل ، وإنا لنرجو متى وجد هذا القيثار
وأكملت الاوتار أن يصنع شعراؤنا ما صنع كتابنا فيؤلفوا من الالحان
الشرقية والغربية موسيقى جديدة يتقدمون بها كتاب الجهاد الى محاربة
الفساد وغزو الاستعباد وتثبيت الحرية .

بعد هذه المقدمة عرض للفظه الادب ، وفصل تأريخها ومعانيها في
الجاهلية وفي اليونانية والسومرية ومعناها الاسلامي . فلما بلغ العرب عهدهم
الذهبي الزاهي في بغداد وازدادت حضارتهم وازدان عمرانهم بالعلم تطور
لفظ الأدب كما تطور مدلولها ، وأخيراً عرفها الزرخشري بأنها تعني « علوم
الأدب التي يمتاز بها من الخلل في كلام العرب لفظاً وكتابة . ثم تطور
مدلول الكلمة حين أخذنا نتلقى على الغرب العلوم والادب والفن
والحضارة ، فصار لمعنى الأدب مدلول عام ، فالمعنى العام لها تشمل جميع
ما صنف في أي لغة من الابحاث العلمية والفنون الادبية . أما المعنى
الخاص ، فيراد بالادب التعبير عن مكنونات الضمائر ومشبوب العواطف
وسوانح الخواطر بأسلوب إنشائي أنيق ، مع الإلمام بالقواعد التي تعين
على ذلك .

وذكر أسباب جهل العرب لمعنى الادب العام ، وبراعتهم التي تميزوا
بها في التأريخ الادبي الخاص ، يريد تراجم الاشخاص « فقد بلغوا فيه

غاية الاتقان وجاوزوا حدود الافتنان وذهبوا فيه كل مذهب ، فقسموا
كتبه إلى عامة وخاصة ، فالعامة تترجم للناهين على قباين أوطانهم
وأزمانهم وعلومهم ، وهي إما مرتبة على حسب الاسماء أو على حسب
الانساب . فالاول منهج ابن خلدان في كتابه وفيات الاعيان ، وابن شاكر
الكتني في فوات الوفيات ، وصلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات .

والثاني منهج عبد الكريم السمعاني في كتاب الانساب . وقد ترتب
على أزمنة الوفيات كما فعل أبو الفداء والذهبي وابن كثير مشعلاً . وأما
الكتب الخاصة بأنواع شتى ، منها طائفة وضعت لمن اشتهر في علم أو
فن بعينه في جميع العصور كبقية الوعاة للسيوطي ومعجم الادباء لياقوت
وتاريخ الحكماء لابن القفطي ونزهة الالباء في طبقات الادباء لابن
الانباري ، وهي مرتبة على حسب الاعصر . وأحياناً توضع بغير ترتيب
كما فعل صاحب الاغانى ، ومنها طائفة وضعت لمن اشتهر في فن مخصوص
في عصر مخصوص كبيتمة الدهر للثعالبي ودمية القصر للباخرزي وخريدة
القصر لعماد الدين الاصفهاني الخ . . .

سيداتي سادتي :

ذكرت في المحاضرة السابقة أن تاريخ الأدب فرع من التأريخ العام ،
لأن الأدب تعبير عن المشاعر والخواطر والأخيلة ، وهي تتأثر بأحوال
العيش وأطوار المجتمع وأنظمة الملك وتقلبات السياسة ، ومما للتاريخ
الصحيح موضوع غير البحث في جميع ذلك .

هذه قضية مرسلّة مبهمّة ، يقتضي جلاؤها شيئاً من التفصيل والتدليل
والأمثلة .

وسبيلنا الى ذلك أن نلم بالعوامل المؤثرة في الأدب ، وهي دستور
المؤرخ وشريعة الأديب ونبراس الباحث فيما يصدر عن الإنسان من كذا

الأذهان وفيض القرائح ، فالعامل الأول : طبيعة الإقليم ومناخ البلد ، وأثرها في حياة الإنسان وسلائل الأجناس معلوم في بدائنه المعقول ، فأحوال الإقليم هي التي تنهج لساكنيه سنن معاشهم ونظام اجتماعهم ، وتكون الكثير الغالب من خلاقهم وطباعهم ، ومناظره هي التي تربي ذوق أبنائه ، وتقضي خيال البدو : فألفاظه خشنة كالجبل ، ومعانيه وحشية كالأوايد ، وأساليبه متشابهة كالصخر ، وأخيلته مجذبة كالقفقاز ، ولبن تجددوا في غير الجزيرة العربية أمثال الشنفرى وثأبط شراً والسليك بن السلكة من هؤلاء الشعراء الصعاليك الذين تقنوا بحياة البادية ومناظرها وأباعرها وغزلاتها وكتبتها وأطلالها وجبالها بشعر متين الرصف صادق الوصف جاف اللفظ عنجبي الخيال .

وقد اختلف الشعراء في شبه الجزيرة نفسها باختلاف الأماكن : فهو في نجد غيره في الحجاز ، وهو في أهل الوبر غيره في أهل المدر . ولهذا العامل وحده أعزوا انقراض الأراجيز ، وهي أقدم الأطوار لشعر البادية حين ارتحل ناظموها من الصحارى المجذبة الى سواد العراق وريفه ، وفي حواشي العراق وظلاله ، وخمائل نجد وجباله ، اخضر عود الشعر واستقام وزن القصيد ، ومن ثم قال القدماء : إن امرأ القيس ومهلبل بن ربيعة وعمر بن قيس هم أول من قال الشعر وأطال القصائد . وما كانوا في الواقع إلا زعماء النهضة الأدبية في هذه البلاد .

وظل عامل الطبيعة يفعل فعله في الأدب خلال القرون ، فخالف بين الشعر في عواصم الشرق وبينه في الأندلس ، فقد وجد شعراء العرب في أوروبا ما لم يجدوه في آسيا من الأجواء المتغيرة والمناظر المختلفة والأمطار المتصلة والجبال المؤثرة بعميق النبات ، والمروج المطرزة بألوان النور ، فهدبوا الشعر ، وتألقوا في ألفاظه ومعانيه ، ونوعوا في أوزانه وقوافيه ، وديجوه تدبيج الزهر ، وسلسلوه سلسلة النهر ، وسلكوا به مسالك التنوع

والتجديد ، وهذا العامل هو الذي يخالف اليوم بين الأدب في مصر وبينه في الشام والعراق . فالطبيعة المصرية تكاد تكون نائمة ، فالجو معتدل في جميع الفصول لا يكاد يختلف ، وحقول الوادي الحبيب لا تعرى من الزهور والزرع ، والسماء السافرة والصحراوان الوسيعتان لا تكاد مناظرهما تتغير . فإذا لم تكن طبيعة بلادنا فهي على الأقل مسالمة ، لأنهم لم نزعنا بالزلازل العنيفة ، ولا تهزنا بالعواصف الرعثن ، ولا نخزنا بالبرد القارس والحر اللافح ، فطبعنا أهلها على الوداعة والفكاهة والبشاشة والكسل ، والحفاظة على القديم من العادات والأخلاق والآداب ، فلا تتطور هذه الأمور في مصر إلا بمقدار ، ولذلك تجدون شعرا منتزعا للفظ ، جيد السبك ، بطيء التجدد ، هادئ الأسلوب ، لين العطف لا يأخذ الأمور إلا بالملائنة والرفق . بينما تجدون الشعر في الشام شديد الحركة كثير التنوع سريع التجدد خلق الأساليب لتعدد المناظر واختلاف الصور وتقلب الطبيعة ونشاط الحياة . وهو في العراق قوي أبي ، فائز ساخط ، متوثب منتشر على أسنة الخاصة والعامة لالتمساب الخيلة وتوقد الشعور وصفاء الحس من إفراط الطبيعة في الحر والبرد وغلبة الحياة البدوية على كثرة السكان ..

على أن هذا العامل قد أخذ يضعف منذ أواسط القرن الماضي لسهولة المواصلات وكثرة التخرعات وانتشار المدنية ، فيستطيع الإنسان أن يعيش في آسيا وأفريقيا كما يعيش في أوروبا ، ويزداد ضعفاً في المستقبل دون أن يحس ويبعد .

العامل الثاني - خصائص الجنس ، فشعر العرب يختلف عن شعر اليونان في المذهب والخيال والغرض ، وشعر ابن الرومي يختلف عن شعر ابن المعتز ، وقد نشأ في بلد واحد وعصر واحد ، لأن الجنس الآري أميل إلى الاستقصاء والتفصيل والتحليل والتعمق ، والجنس السامي لذكاء قلبه

وحدة خاطره يفهم الشيء في لحظة ثم يلخصه في لفظة ، فهو أميل الى التعميم والاجمال والبساطة .

العامل الثالث - دوام الحرب بين جنسين أو أمتين ، لفتح بلاد أو صد عاد أو تحرير وطن . فإن هذه الحروب لستمحض عادة عن أبطال يسمون في الخيال ويعظمون في الصدور ويكبرون في الزمن حتى تنسب اليهم الخوارق ، وتخلع عليهم الحمائم فتسير بذكرهم الرواة ، وتحدث بأفعالهم القصص ، وتنتقل شهرتهم من فم الى فم ومن جيل الى جيل ، وهي في خلال ذلك تتسع وتفيض حتى تصبح سيرهم لدى الشعب حديثاً وطنياً يجب أن ينشر ، وتراثاً قومياً يحرص أن يزيد ، فيفيض الله لهذه السير المتجمعة على طول الدهور شاعراً سمح القريحة ، فينظمها بأسلوب شائق ونمط جميل . كذلك دارت الاليادة الاغريقية على حروب اليونان لاهل طروادة ... والهاهاراة الهندية على الحروب التي نشبت بين نينهو وبين كرو ، والشهنامة الفارسية على تاريخ الاكسرة ، ووصفت الحرب التي شعلت أهل إيران وأهل طوران . وقد كانت تلك الحروب مفخرة الفرس الاولين ورمزاً للخلاف الدائم بين إلهي الخير والشر .

وكذلك دارت أغاني زولان الفرنسية على حروب الفرنج لعرب الاندلس . وهذا هو الشعر القصصي أو الملاحم الذي خلا منه الشعر العربي ، لاسباب لا يتصل ذكرها بموضوع اليوم . على أن عامل الحروب قد أثر في النثر والشعر العامي ، وإن لم يؤثر في الشعر الفصيح ، فإن نشوب الحروب الصليبية قد اقتضى تدوين بعض القصص الحماسية كقصة عنترة وسيرة بني هلال والاميرة ذات الهمة ، إثارة للنفوس ، وتحميماً للشعب ، وتفريخاً من الهم .

العامل الرابع - طبيعة العمران وتوزيع الثروة وما يتصل بذلك من حال الاجتماع ، فإن تقدم الحضارة ورفاهة العيش ونماء الثروة تؤثر في

الذوق ، وتزيد في الصور ، وتساعد على نشر العلوم ، وتنوع في معاني الشعر وأساليب الكتابة . وشاهد ذلك أن مبدن الحجاز حينما زخرت بالمال ونعمت بالفراغ منذ خلافة عثمان إلى أواخر القرن الاول للهجرة ، تدفق أهلها في اللهو ، وعكفوا على الغناء ، وألقوا أزمته في يد الصباية ، وانقطع شعراؤها الى الغزل فافتنوا فيه وتصرفوا في معانيه وأغفلوا سائر أنواع الشعر الاخرى كعمر بن أبي ربيعة وجميل بن معمر وكثير عزة . وشاهد آخر على تأثير الاحوال الاجتماعية في الفنون الادبية هو شيوع البذاء والفحش في شعر بعض البغداديين على عهد الرشيد والمأمون ، فقد حدث شيء من ذلك في الجاهلية وفي العصر الاموي حين كان الفرزدق وجربل ومن لف لفهما يتجاوبون بالفحش ويتهاجرون بالبذاء ، الا أن ذلك لم يكن مقصوداً ، وإنما كان يقال هجاءً للعدو وسباباً للخصم . أمما الفحش في شعر أبي نواس ومطيع بن اياس وحسين بن الضحاك وابن سكرة وابن الحجاج ، فقد كان صادراً عن خلق ، وناقلاً عن طبع ، ومعبراً عن حالة ، فالشعراء يقولونه ويفعلونه ، وأهل البيوتات وذوو المثالة يسمعونونه ولا يتكروونه . فهاذا نعال ذلك الفساد الذي نال الطبائع العربية الحرة ، فجعلها قتهن الكرامة وتلقي شعار الحشمة ؟ إذا عللناه بتفاسد الترف ودنایا السرف حين تطفئ الحضارة ويشور البطر ، كان هذا التعليل وحده غير فاصل ولا مقنع ، فإن أكثر أمم التمدن الحديث اليوم قد غرقوا في اللهو وشرقوا بالنعيم وأمعنوا في الخلعة ، ثم لا تجدون النوابغ من شعرائهم وكتابهم يحرؤون على أن ينهوا على أنفسهم بالفواحش أو يحجروا في كتبهم بالفضائح ، وناهيك بما حدث لفكتور مركرت حين نشر قصة لاجرسون .

إنما الاشبه بالحق أن هناك سبباً آخر يساعد هذا السبب ، وهو كثرة الرقيق . وتأثير الرقيق إنما حدث من جهتين ، أولاها قيام العبيد

على تربية الاحداث في كرائم الأسر ، وفي كثرة العبيد دناءة في الطباع ووقاحة في القول ، فأفسدوا الذن ، وعودوهم هجر القول وفحش الحديث . وأخرهما اقحام الجواري والسراري خدور العقائل ، فأعديهن من أخلاقهن بالجحانة والخلع ، فسقطت المرأة من عين الرجل ، فأخذها بالعنف ، وضرب عليها الحجاب ، وأقام عليها الحصة على عادة الفرس ، وأقصاها عن تربية الولد وتدبير البيت ، واتخذها للمتاع واللذة ، فكان في ذلك أن قشت في الخاصة أخلاق العبيد والإماء ، فتنادروا بالفحش ، وأكثروا الشعر في الإحاض والمجون . واليكم شاهداً آخر على تأثير الأحوال الاجتماعية والأمور المادية في فنون الأدب . ظهر أدب العامة أو الشعر باللغة العامية في بغداد والأندلس في عصر واحد ، ففي بغداد ظهر « المواليا » على لسان صنائع البرامكة من العامة ، وظهر نوع آخر ذكره ابن الأثير صاحب المثل السائر قال : « بلغني أن قوماً ببغداد من رعاة العامة يطوفون بالليل في شهر رمضان على الحارات وينادون بالسحور ، ويخرجون ذلك في كلام موزون على هيئة الشعر وإن لم يكن من بخار الشعر المنقولة من العرب ، سمعت شيئاً منه فوجدت فيه معاني حسنة مليحة وإن لم تكن الألفاظ التي صيغت بها صحيحة ، ولكن الشعراء والأدباء استخفوا به واحتقروه فلم يقلدوه ولم يدونوه ولم يأبهوا لأربابه . وحاول بعض الأطباء وهو محمد بن دانيال الموصلی أن يبتكر نوعاً جديداً من الأدب اقتبس من ألعاب خيال الظل ، فألف كتاباً سماه (طيف الخيال) ، فحبط عمله وخاب أمه .

وأما في الاندلس ، فابتدع عبادة بن ماء السماء القزاز الموشح ، وابتكر أبو بكر بن قرمان الزجل ، فطرب الناس لها وأعجبوا بها ، وأقبل أمراء القريض وزعماء الأدب على نظمها وجمعها ، فنبغ فيها النوابيع واشتملت على روائعها الكتب . فما السبب إذن في استهجان

البغداديين ، لأدب العامة وعزوفهم عنه ، واستحسان الأندلسيين له ونبوغهم فيه ؟ السبب يعرفه المؤرخ الباحث ، وهو أن بغداد كانت شديدة الارستقراطية ، لأنها موطن الاشراف وذوي الاحساب والمثالية والثروة ، فكانوا يترفعون عن الشعب ، ويستخفون بأدبه وذوقه وذكاؤه ، ويجدون من الغضاضة أن يتجولوا بجليته ، ويجروا على أسلوبه . ولكن الاندلس كانت ديمقراطية غنية كأمريكا اليوم ، فلم يعتز فيها بالنسب لتساويهم فيه ، ولا بالثروة لعموم الرخاء فيهم وحسن توزيع الثروة بينهم ، فكانت منازل الخاصة والعامة متصافية وأذواقهم متقاربة ، لذلك لم يتأب الشعراء والأدباء عن تقليد الأدب العامي وتدوينه .

العامل الخامس - الأديان وما يتمثل بها من الأخلاق والمعتقدات . وتأثير الأديان في الادب بمعنييه العام والخاص ، أمر ثابت بأدلة الطبع والسمع . فانها تخلق موضوعات جديدة لمصنفات جديدة ، وتؤثر في الأخلاق والمواظف تأثيراً يتردد صداه في مناحي الادب ، على أن تأثيرها الذي يعنينا الآن هو ايجادها لأنواع خاصة من النظم والنثر .

فان بني الانسان كما تعلمون منذ أفزعتم تهاوليل الطبيعة ، وادهشتمهم تعاجيب الفلك ، أحسوا بقوة القوي فألهوها كما فعل اليونان والهنود . أو نسبوا الاعاجيب الممتعة الخيرة لمبدأ ، والتهاوليل المفزعة الشريرة الى مبدأ آخر كما فعل الايرانيون الاقدمون . ثم امتلأت نفوسهم بحلاها وعظمتها ففاضت على ألسنتهم بالأناشيد والصلوات ، فكان من ذلك الشعر الديني ، وهو مبدأ كل شعر في كل أمة ، ومن أقدمه أناشيد (رع) عند المصريين ، وأناشيد (فيدا) عند الهند البراهميين ، وأناشيد (جالا) عند الايرانيين ، وأناشيد (ارقبة) عند اليونانيين ، وسفر أيوب عند العرب ، ورأيتي الضعيف أن الشعر العربي لم ينشأ في الصحراء على ظهور الابل ، وإنما نشأ كذلك في المعابد العربية إبان انفصال العرب

عن الاسرة السامية الاولى ، فظهر على السنة الكهان باسم السجج ،
ومن أقدمه سفر أيوب على أرجح الآراء ، وربها عدت الى بسط هذا
الرأي في فرصة أخرى .

وتأثير الاديان في الاداب غير متحد ولا متشابه ، لاختلاف العقول
في إدراك هذه القوة الخفية . فاليونان قد عذبوا آلهتهم ، وجسدوها
على صور البشر ، ونسبوا اليها ما للانسان من كرم ولؤم وغضب وحلم
وحرب وسلم وعفة ودعارة وزواج ولذة ، ولم يميزوهم عن الناس إلا
بالقوة والخلود ، لذلك كان شعرهم الديني في الالهة أشبه بشعرهم الديني
في الملوك ، يصنف الخوارق والعظائم والقوة ، ولا ينم عن رحمة الخالق
وخشوع المخلوق ، ولا يدل على الرجاء الذي يبعث على الطاعة ولا على
الخوف الذي يردع عن المعصية .

أما بنو اسرائيل ، فقد وحدوا الله ، وبرزوه من النقص ، ونزهوه
عن المثل ، وملأوا صدورهم بهيبته وعزته وجلاله ، فكان شعرهم في
ذاته العلية فياضاً بالتقديس والاحلال والابتهال والاكمال والبكاء والرجاء
والخوف . كذلك يختلف تأثير الدين الواحد في الادب باختلاف الأزمان
والبلدان وطبقات الناس ونظام الحكم . فبان في كل دين من الاديان
الساوية قسماً وحدانياً اجتهادياً يختلف أبنائه في فهمه اختلافهم في الطبائع
والمنازع والغاية . فأشعار الخوارج مثلاً تنضح بالدماء ، وتطفح بالحماسة ،
لتمصبيهم وتصلبيهم وجعلهم غاية الاسلام جهاد مخالفيهم في الرأي . وأشعار
الشيعة تفيض باجلال زوج البتول وصهر الرسول وتمجيد ذكرى بنبيه
وتشيل آلامهم ورناء من قتل من أعلامهم ، وأشعار الصوفيين تصف
مقاماتهم وتذكر اشارتهم وتكثر من الكناية بالغمر والسكر والعشق
والعبق من شدة تعلقهم بالله . ولا يقتصر تأثير الاديان على النظم ،
ولما تؤثر كذلك في النثر ، فلولاها لما كانت النبؤات عند الاسرائيليين ،

ولا التمازي عند الفرس ، ولا خطب المنابر ومقامات الوعظ عند المسلمين والمسيحيين .

العامل السادس : العلوم النظرية والتجريبية وتأثيرها في ترقية العقل وتقوية الشعور وتنمية الصور ، لا يحتاج إلى تمثيل ولا تدليل ، ولكن لها تأثيراً خاصاً في خلق أنواع طريفة من الأدب كالشعر التعليمي مثلاً ، وهو نوع من الشعر يجمع بين رشاقة اللفظ ودقة البحث وحقائق العلم . وترونه في الآداب الأجنبية القديمة والحديثة أرفع وأمتع منه في الآداب العربية ، فإن من الغضاضة على الفن والاساءة الى الذوق ، أن ندخل فيه منظومة ابن عبد ربته في التأريخ ، وألفية ابن مالك في النحو . وقد استحدث اليونان في النشر المحاورات الفلسفية برصعونها بדרر الالفاظ وغزير البيان ، كمحاورات أفلاطون . وهي نوع طريف من الأدب الاغريقي قلده شيشرون في محاوراته في الاخلاق والفلسفة والبلاغة ، كذلك أحدث انتشار العلوم نوعاً من القصص الخيالية تمزج فيها حقائق العلم بزوجة الخيال وغرابة الحوادث تحقيقاً لرأي من الآراء أو تشويقاً لعلم من العلوم ، كما فعل الفرنسيان فلانمريوي الفلكي وجون فيرن القصصي ، وكما صنع أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل الاندلسي في رسالة « حي بن يقظان » . فقد أراد بوضع هذه القصة أن يشرح كيف يستطيع الانسان بمجرد عقله أن يتدرج من المحسوسات البسيطة إلى أسمى النظريات العلمية ، ولكنه يعجز عن ادراك أرقى الحقائق بغير وحى من الله وهداية من نبي . ثم كان نفثاى العلوم التاريخية في صدر القرن التاسع عشر ، وميل الجمهور الى دراسة الماضي أن ظهر في انكلترا القصص التاريخي . ابتدعه الكاتب الانجليزي (ولتر سكوت) ، واقتفاه في فرنسا ألفريد دفتي في رواية خمسة مارس ، وفي ألمانيا جورج ايسبري في قصته المصرية ورد ، وفي مصر جورجي زيدان في رواياته الاسلامية .

والعلوم فضل ظاهر على اللغة في المادة والأسلوب ، وأثر قسوي في ترقية النثر خاصة لأنها تكتسبه القوة والدقة والوضوح ، وما ارتقى النثر في أمة من الأمم إلا بعد تقدمها في الحضارة ورفيها في العلم ، لأن النثر لغة العقل ، كما أن الشعر لغة الخيال ، فالنثر اليوناني لم يرق إلا بعد عصر هوميروس بأربعة قرون حين دوت تأريخ لوسديد ومحاورات أفلاطون وخطب ديمستين ، والنثر العربي لم يرق إلا أوائل الدولة العباسية على يد ابن المقفع ، والنثر الفرنسي لم يرق إلا بتأثير الفلاسفة الرياضيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر كبيسكال وديكارت .

العامل السابع :

أحوال السياسة الداخلية ، فإن لمدها وجزرها ، ولانتقاض حبليها أو اتساق أمرها أثراً بالغاً في فنون الأدب يختلف باختلاف حاله .

ففي خلافة معاوية مثلاً انتشر الهجاء المقذع في العراق ، وفاضت بحور الغزل الرقيق في الحجاز ، وما علة ذلك إلا سياسة هذا الخليفة ، فقد كان يخشى العراق على عرشه الواهي الدعائم ، فسانه بالتفريق ، وإحياء العصبية ، وإذكاء التنافس بين الشعراء والقبائل ليشغل الناس عن الخصومة في خلافته بالخصومة في أمر جرير والفرزدق والأخطل . وكان يستوحش من ناحية الحجاز ، فاعتقل شباب الهاشميين في مدينه ، وسلط عليهم الترف وشغلهم بالمال وخلص بينهم وبين الفراغ ، فمكفوا على اللهو والصبابة والغزل . وبعد خلافة المتوكل العباسي ازدهر الأدب العربي وازداد ابتكاراً وانتشاراً وكثرة ، وعلة ذلك السياسة أيضاً ، فإن الخلافة العباسية قد انتقض حبليها في أواخر عهد المأمون ، وانصدع شملها في عهد المتوكل باستقلال الولاة في فارس والشام ومصر والمغرب ، فكان ضعف السياسة قوة للأدب ، لأن الشعراء والادباء ، والعلماء بعد

أن كانوا مكدرسين في بغداد لا يرمعون عنها ، تفرقوا في الممالك الجديدة ، فوجدوا من أمراءها وأجوائها ما ساعدهم على وفرة الانتاج ورفع شأن الأدب . وللأحوال السياسية كذلك أثر في خلق فنون جديدة من الأدب أو ترقية ما كان منها .

وتطرق في محاضراته الثانية هذه الى القضايا التالية ، قال :

« ومن هذه العوامل اختلاط الأجناس المختلفة العقليات والمعادات والاعتقادات بالمصاهرة والمجاورة في امة واحدة ، وأثر هذا العامل أظهر ما يكون في دولة العباسيين في بغداد ودولة الامويين في الاندلس ، ففي البلدين اتصلت المدنية السامية بالمدنية الآرية فالتقى التصور العميق بالتصوير القوي ، والعقلية العالية بالوجدان الشعري . ومنها : التقليد والاحتذاء ، ولقد كان للتقليد في الآداب القديمة شأن نابه وأثر ظاهر . وضرب لذلك الأمثلة من الشعر اللاتيني وتقليده وأخذه من بحور الشعر اليوناني .

وتكلم على الأدب الفارسي والأدب التركي ، وقال : « انها صنعة التقليد ، ونقحة من نفحات الادب العربي . فان الفرس حينما استولى الإسلام على أفئدتهم ، ولغته على ألسنتهم ، ظلوا زهاء قرنين يقرضون الشعر بالعربية دون الفارسية . فلما هبوا في القرن الثالث يستردون مجد أجدادهم وبطاردون العربية ونفوذها من بلادهم ويوحون الى شعرائهم من أمثال الدقيقي والفردوسي أن يجددوا مفاخر الأسلاف بتأليف المنظومات القصصية والانشيد القومية ، لم يجدوا ذلك ميسوراً إلا باحتذاء الشعر العربي واقتباس أوزانه وبديعه ، وكذلك فعلوا في النثر .

وأما الاتراك العثمانيون فانهم حين أخذوا يدنون أشعارهم في أوائل

القرن الثامن اقتبسوا من الفرس بعض الاوزان العربية ممدداً لأوزانهم القديمة ، ولكنهم ابتداء من القرن التاسع أغفلوا أوزانهم واصطنعوا العروض الفارسي ، وهو في الاصل العروض العربي . وفي منتصف القرن الماضي جدد الوزير ضياء باشا المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ دعائم الشعر ، وخلصه من التقليد ، وانضوى الى طريقته رهط من الشعراء المجددين مثل كمال يكن وأكرم وناجي ، فأنقذوا أديهم من سخط التقليد ، وقوره بالابتكار والتجديد .

هذه أهم مقومات الحاضرتين .

نسائهم النيل الى وادي الرافدين :

نقلت أنباء القاهرة وفاة العلامة اللغوي أحمد باشا تيمور ، فكان لنبا وفاته أصداء الأسمى والفجعية في نفوس أهل الفضل والعلم ، فدعا صديقه الاديب الكبير الاستاذ محمد بهجة الاثري الى إقامة حفل تأبيني كبير في مقر جمعية الشبان المسلمين المجاور لقصر نقيب الاشراف السيد عبد الرحمن النقيب على دجلة في محلة المربعة ، وألقى فيه الاستاذ الاثري قصيدة جميلة قدمها بكلمة رنة نشرت في جريدة البلاد ، كما ألقى مدير الجريدة المذكورة الاستاذ رفائيل ترجمة ضافية للفقيد ، وكان الاستاذ الزيات من أسهم في هذه الحفلة بكلمة بليغة نشرتها البلاد في يوم الاحد ٨ حزيران ١٩٣٠ بعنوان : (نسائهم النيل الى وادي الرافدين) ، هذا نصها :

سادتي الأفاضل :

باسم الأمة المصرية ، وباسم الجامعة العربية ، وباسم الشهداء في سبيل العلم والوطنية ، باسم أسرة الفقيد الكريمة أقدم جزيل الشكر وموقور الحمد الى حضرات الداعين والمدعوين الى هذه الحفلة الموقرة . وأذكر

بالأعجاب هذه العواطف النبيلة التي عبر عنها حضرات الخطباء ، فأحسنوا التعبير ، وأجادوا البيان . جميل جداً يا سادة أن تتجاوب أصداء الأسي في جميع الاقطار العربية كلها عشت بأمالنا الخطوب ، وعدت على رجالنا عوادي السياسة أو الموت ، وأليم جداً يا سادة أن تتخطف المنايا أقطابنا وهدأتنا والبحر الذي نسلكه مضطرب والمركب حائر والمرقأ بعيد .

إن المرحوم أحمد باشا تيمور ، برد الله ثراه ، كان علماً من أعلام الإسلام والشرق ، احتقر الراحة والثروة والجاه في سبيل لغتنا وأدبنا وتاريخنا ، فلم يدع ربة إلا نقاها ، ولا غامضة إلا جلاها ، ولا منقبة إلا نقب عنها ورواها . كان رحمه الله مثال الانسان الفاضل ، جعل قلبه لله ، وعقله للعلم ، ووجدانه للفضيلة ، وسعيه للخير ، فاكسب رضا الله بالتقوى ، وشرف العلم بالعمل ، ومحبة الناس بالاحسان .

لم ينفق ماله في المجد الزائل ، ولا عمره في اللهو الباطل ، وإنما أنفق ثراه الضخم في صنع البر ، واقتناء عشرين ألف مجلد من أندر الكتب المخطوطة والمطبوعة في العالم ، ثم عكف عليها عكوف الصابرين ، فما ترك كتاباً منها الا قرأه ونقده ، واستفاد منه وكتب عنه وعلق عليه ، ثم وقف هذا الجهد الجاهد والذهن الثاقب على خدمة العلم والعلماء في الشرق والغرب ، يحقق المسائل ويحل المشاكل ويديج المقالات ، ويؤلف الكتب وكل ذلك في تواضع شديد ، وأدب جم ، وسماحة نادرة ، ثم ختم هذه الحياة الصالحة بحبس هذه المكتبة الثمينة على طلاب العلم بعد أن وقف عليها من أجود أراضيه عشرين فداناً تغل ثلاثة آلاف روية في العام .

إن حياة الفقيد العظيم كما سمعتموها من الاستاذ بطي مثل من المثل العليا للحياة العاملة في غير ضجيج ، الناصبة في غير ملل ولا ضيق ،

الحافلة المثمرة في غير غرور ولا دعوى ، فهي أشبه شيء بالنبع العذب يسيل حلو الخمر في مطمئن الأرض ، فيروي العطاش ، ويمرع السهول في غير هدير ولا صخب ، أو هي المزنة القادية المتون ظلمات اللأغب المحرور ، وبلمات الثرى المجهود ، ثم ذهبت تاركة وراءها الربيع المزهري والمرتع الخصب ، شكر الله سعي من سارع في هذه الحفلة بالألقاء أو الاصغاء ، وحيا الله فيكم يا شباب الرافدين هذه النخوة العربية ، وهذا الشعور (١) النبيل الذي تبدوونه من حين إلى حين لجزء من أجزاء الوطن العربي المشترك وعوض الله العلم والعربية عن الراحل الكريم خير العوض ، إنه سميع مجيب .

(١) ألقى أن العراق كان ولا يزال سباقاً في مشاركة الأقطار العربية أفراسها وأفراحها ، إذكاء للشعور القومي ، وتخليداً لذكرى أهل الفضل ، وإشاعة لأقدار أهل العلم والفن ، فيما كان يحدث حدث أو يغزل في مصر أو غيرها قضاء في علم من أعلام الأمة إلا وتجد في أنفوس العملية من أبواب العلم صداء وأساء ، وقد أقيمت حفلات التأبين لذكرى بشا ، وسعد زغلول ولصاحب المنار السيد محمد رشيد رضا كما أقيمت حفلات التأبين لأحمد شوقي وحافظ إبراهيم ، وعباس محمود العقاد ، إلا أن هذه للمواطف الكريمة والشاعر القومية لم تجد لها رعاية في مصر قبل انتشار الوعي القومي على لسان صاحب الرسالة وأحمد أمين والسنهوري وزكي مبارك وأضرابهم .

تاريخ ألف ليلة وليلة

ومما نذكر له بالاعجاب تلك المحاضرات الممتعة في الأدب العربي والحضارة العربية وفي تاريخ ألف ليلة وليلة، وقد توالى في أماسي الخمس الأول والثاني من شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٢ فكانت تفتزج أرواحنا بروحه ، وتنثني نفوسنا بروعة أسلوبه ، وبسحرنا بحسن أدائه ، وبطربنا بنبزات جرمه الخلو وكلماته المنقمة الناعمة ، فكنا ننسى أنفسنا ونسوه عن الوقت ، ويدركنا المساء فيسكت عن السحر المباح ولما يدرك شهرزاد الصباح ، وما زال الكلام عليها يمتد وفيها رغبة ملحة أن يتصل الكلام ولو فائنا مدفع الإفطار ، وكانت القاعة على رحبها تقص بالمستمعين من المتأدين عشاق أدبه الغض يحدها القاري ، الكريم بنصها بإلاحق الكتاب . والزيات في ما ترجم وألف وكتب من المقالات ، وما أكثر ما كتب منها في الرسالة والأزهر والرواية ، أديب مطبوع ، جمع رصانة الأسلوب مع عمق التفكير ، وطلاوة التعبير وجودة الصياغة والأسلوب المشرق ، جمع الثقافة القديمة والثقافة الحديثة ، وجمع إليها رقة الحاشية والشعور المرفق ، فهو أديب متأنق ، يغلب على أدبه التجديد والفن ، والنشر الفني لا ينفع معه الارتجال ولا يخدمه الخاطر العابر . والتأنق صفة أصيلة في الأستاذ الزيات ، تلازمه في حديثه ، وتلهمها في تفكيره ، وتزاهي في ملبسه ، وتلحظها في مشيته وجلسته ، لا يرضيه الكاتب

المعجلان ، ولا الكاتب الذي يكتب عفو الخاطر ، وإنما يعجبه الأعداد
والالتزام والتفكير والتدبر .

وصفه صديقه الأديب الناقد محمود محمد شاكر ، فقال : « ورأيت
الزيات في كل أسلوب هو الزيات لا يختلف ولا ينفجر ، والكاتب إذا
صار إلى هذه المرتبة حيث تراه هو معها اختلفت الأغراض ، وتباينت
الأساليب ، فاعلم أنه إنما يشق لك ما يكتبه من حزن نفسه ، ولا
يقبل الزيف ، وهو يعطيك ولا يسألك ، ويبذل لك ولا يمن عليك ،
ويعلمك ولا يدعي أنه أعلم منك ، وذلك بأنه قد بلغ في العقل والفكر
والصفاء والبيان حيث يعلم أنه ملك قارئه ، لأن القارئ ملك له ،
وأنه مرشد لا مسيطر وأنه أخوك يناقذك الحديث ، وأنه كان
بمنزلة الأب » .

وقال : « والزيات كما عرفته في كتاباته روح هادئة متكنمة مسترسلة ،
يسكاد بختفي في نفسه حين يفكر ، ويحاسب نفسه ولكن على التسامح
والرضا والاستسلام ، فإذا أراد أن ينفجر خيل إلى أنه عين حثة
ترسل لو أذعها ساكناً ساخناً حامياً كلاماً إذا غلب ثم هدأ بعد هدأة لا
يضر ببعضه في بعض ، ولذلك ترى نقده إذا نقد شديداً بالغاً ،
ولكنه رقيق غير عنيف » .

يرضيه الأدب الوقور العف ولا يرضي البذى المكشوف ، ولا
يسميه أدباً . آمن بالعروبة والاسلام ، ونافع عنها ، وعالج قضايا
الامة العربية في مشرقها ومغربها ، وكتب في المناسبات الدينية ،
وعمق مفاهيمها في نفوس قرائه ، فكتب في العام الهجري ، والمولد
النبوي ورمضان والحج وليلة القدر ويوم بدر ، وكان في كل ما كتب
صادق العاطفة قوي الشعور عميق الايمان ، كما كتب في الاستعمار ،

وجسد أخطاره في أرض العروبة ، وأوضح مخاطر الصهيونية وأبان أهدافها التوسعية ، وألهم الجاسة في نفوس المواطنين من أبناء العروبة ضدها ، ودعا الى توحيد القوى لمحاربتها واجتثاث جذورها من قلب الاراضي العربية قبل أن تقوى وتزاد فتكون مصدر قلق المنطقة وتشريد أهل فلسطين الشرعيين .

فلما وقع الخطب وقررت الدول الكبرى التقسيم وتحلت بريطانيا عن مسؤولياتها ، بعد أن زودت العصابات الصهيونية بالسلاح وأعدتهم للإيقاع بعرب فلسطين وتشريدهم من أرضهم ، كتب رحمه الله : « هاهي ذي تقسم فلسطين احدي القبليتين وثالث الحرمين قسمة ضيزى بين العرب الأصلاء واليهود الدخلاء ، وتحمل الصهيونيين على ضمايرها وبواخرها من أركان الارض الى فلسطين ، لينصبوا فيها الصليب للحق ، كما نصبوه من قبل لعيسى ، ويبذروا الشقاق للناس كما بذروه في يثرب - لمحمد - ، ليت شعري ما جريرة العرب والمسلمين على الأمم الاوروبيين والامريكيين ؟ هل جريرتهم عليهم أنهم فتحوا العالم وطهروه وأعلنوا دين الله ونشروه ؟ قد يكون الفتح ترة العنصرية ومع نشر الدين تعصب الكنيسة ..

ولكن ترة اليهودي المقهور وتعصب الكاهن ، لم يكونا وحدهما السبب في هذا الاستخفاف الدولي بالاسلام والعروبة ، إنما السبب الأقوى فيما أعتقد أن المسلمين عولوا على الحق دون القوة ، وعولوا على القول لا الفعل ، واعتقدوا الفرد ، ونسوا ان دينهم قرآن وسيف وتأريخهم فتح وحضارة ، وشريعته دين ودنيا ، وحرهم جهاد وشهادة ، وزعامتهم خلافة وقيادة ..

ولم يترك الزيات فرضة تقرأ أو تستنسخ إلا اهتمامها ، وعادود الكتابة في قضية فلسطين ، وعمق مفاهيم العروبة في نفوس الناشئة يوم

كانت فكرتها في نفوس الساسة والمثقفين باهتة بل غامضة. ونحن ما زلنا نذكر باعجاب مقاله القيم ، باعتزاز وفخر « فرعونيون وعرب » الذي ردّ فيه على من كان ينزع نزعة فرعونية أو يفكر تفكيراً أقليماً ، قال :

« أفرعونيون نحن أم عرب ؟ أنقيم ثقافتنا على الفرعونية أم نقيمها على العربية ؟ نعم ، قالوا ذلك القول ، وجادلوا فيه جدال من أعطي أزمة النفوس وأعنة الأهواء ، يقول لها : كوني فرعونية فتكون ، أو كوني عربية فتكون ، ثم اشتهر بالرأي الفرعوني اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام ، فبسطوه في المقالات ، وأيدوه بالمناظرات ، ورددوه في المحادثات حتى خال بنو الأعمام في العراق والشام أن الأمر جدّ ، وأن ثلاثة من الكتاب أمة ، وأن الفكرة عقيدة ، وأن مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مسلات ، والمساجد معابد ، والكنائس هياكل ، والعلماء كهنة ... مهلاً بني قومنا لا تعتدوا بشهوة الجدل على الحق ، ورويداً بني عمنا لا تسيئوا بقسوة الظن إلى القرابة ، إن الأصول والانساب عرضة للزمن ، والطبيعة تواسج بينها القرون وتفصل فيها الاجواء ، حتى يصبح تحليلها وتمييزها وراء العلم وفوق الطاقة » .

لقاءات وصلات :

وفي السنوات الثلاث التي قضاها الزيات في العراق قامت له مع أدبائنا وشعرائنا ورجال المجتمع البغدادي صداقات وذكريات ، وثواشجت له مع الكثيرين منهم وشائج روحية ومودات رأينا صداها على صفحات مجلته الرسالة - وكانت مادة من مواد كتابه (العراق كما رأيته) . نبنت له صداقة مع جميل صدقي الزهاوي ، ومعروف الرصافي ، وطه الراوي ، ومحمد بهجة الاثري ، وساطع الحصري ، والشبيبي ، ورفائيل بطي ، ومصطفى علي ، وناجي الأصيل وكمال ابراهيم ، وتوكدت بينه وبين

طلابه مودات وصداقات دامت ذكرها في أنفسهم . ومن أبرز طلابه ناجي معروف وجواد علي ومزاحم الشابندر وعبد الغني الجرججي رحمه الله وناجي يوسف وغيرهم ، أحبوه وأحبهم ، وعرف العراق معرفة الدارس الناقد ، فكان لهذه الصلات صداها الذي تردد فيما بعد على صفحات الرسالة والرواية ، ومن أثرها كتابه « العراق كما رأيته » الذي أعدّه فصوله وأتم نسخه وتبويبه ، ولكن ظروفًا سياسية أرجأت نشره في وقته ، وبمضي السنين عصفت بأوراق الكتاب يد الأعمال وامتدت إليه يد الغفلة من صنّاع المنزل ، فضاع الكتاب ، ولكن بما يعزينا عن فقدته كله أن الزيات قد نشر بعض فصوله في الرسالة وفي الأجزاء ٤١ ، ٤٢ و٤٣ من أجزاء مجلة العربي التي تصدر في الكويت لسنة ١٩٦٢ .

وبما قصه علينا في شأن هذا الكتاب ، قوله :

« في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٢ ولدي ولدان : طفل وكتاب ، أذكر هذا كل الذكر ، لأنني في ذلك اليوم المقرور عدت في متوع الضحى من دار المعلمين بالكرخ الى داري بالرصافة ، فلزمتها جالساً أمام المدفأة الموقدة أكتب الفصل الأخير من كتابي « العراق كما رأيته » . ثم جاءني النبا من مصر بعد ذلك بأن « رجاء » ولدي في هذا اليوم نفسه وكان طفلي وكتابي أعز شيء علي ، لأن ابن نفسي كان نتيجة ثلاث سنين من خير عملي .

« أجل قضيت ثلاث سنين في تأليف « العراق كما رأيته » جمعت مادته من الآثار والأسفار والأساطير والكتب والمناظر والأحاديث في سنتين ، ثم حررته وأنشأته ببغداد في سنة . فلم اكتب منه في القاهرة إلا رحلي الى كردستان والموصل وجبال عباد الشيطان^(١) وعودتي الى

(١) أراد سنجار والشيخان وسكانها من اليزيدية لا يعبدون الشيطان وإنما يتقون شربه .

سوريا عن طريق دير الزور وحلب ، ثم وجهت عزيقي الى نشره ، فهيأتها للطبع ، وتربصت به مواتاة الفرصة ، ولكن الفرصة انقالت ، حتى وفد الى مصر صديق من رجالات العراق له بصر وخطر^(١) فرغب ان يقرأ ما كتبتة عن بعض الناس ، وما غلفت على بعض الحوادث ، فجعلته اليه في « الكنتنتال » فحبس نفسه عليه نصف نهار لم يبرح فيه الفندق ، ثم رده اليّ في المساء وهو يقول في سمته الرزين ومنطقه المتند : « أشهد أن كتابك أول ما كتب عن العراق في صراحة ولباقة وأخلاص وصدق ، ولقد طويت عني ما قلته في » ولكنني بعد أن قرأت ما قلته في غيري أكاد أعرفه بالاستنتاج والحدس ، ولعلّ من الخير لنا ولك أن تؤخر نشر القسم السياسي منه الى حين ، أما قسمه الأدبي والاجتماعي فستكثر حولها الاقاويل والاحاديث ، ولكنهما في الأدب والنقد والتأريخ نصر وفتح .. »

تزلت على رأي الصديق العظيم - وليته لم يفعل - وعدت بالمخطوط الغالي الى موضعه من المكتب ، ثم أعلنت أنني سأنشر بعض صورته الأدبية في « الرسالة » ، وقد نشرت بالفعل صورتين أو ثلاثا ، رنت بها الأذان ، وأصغت اليها الافئدة .

ولكن ، وأسفاه لم يعد للطفل الحبيب نفس ينسم على نفسي بهود الجنة ، ولم يبق من الكتاب العزيز سطر يشعب فؤادي بذكرى العراق .

والهفتاه على ولدي الذي أبدعه الله ، وعلى أخيه الذي أبدعته نفسي ، جاءا معاً في الشتاء فلم أجِد بفضل وجودهما برداً ولا عبوساً ولا كآبة ، وذهبا معاً في الربيع فلم أحس بسبب فقدهما دفئاً ولا

(١) هو الزعيم المغفور له ياسين الهاشمي .

طلاقة ولا بهجة . أودى بهما القدر العاث خداعاً وغيلة ، فسلب العين الكلاؤ ريبة الحذر ، وجرد الدفاع الميظنة من فرصة الحيلة .

دبّ للطفل الموت الوجي^(١) في وعكة خفيفة من البرد ظنّها الطبيب زكاً عارضاً ، فإذا هي الخناق « الدفتريا » ، ومشى للكتاب القدير المحتوم في ركام من الورق المتروك فذهب به إلى النار .

وهكذا قضى الله أن تذهب إلى العدم ، خلاصة العمر وعصارة الفكر في فترة ضائعة من فترات الغفلة ، وهيهات أن يكون لهما في الحياة عوض ، فإن الغفلة إذا انقطعت من الجسم لا ترجع إليه ولا تتجدد فيه ، وسحر المنظر الجديد لا يتكرر أثره في نفس زائرة ومخيلة .

القهوة الضحيانة :

ومن أوراق الكتاب الفقيد .. وصف لمقهى كان يقع على دجلة ملحفاً بفندق كازلتون جاء فيه :

« هذه القهوة الضحيانة التي رقدت على صدر دجلة النابض ، واستقرت في الدفء والضوء والسكون كانت أحبّ القهوات إلى القلب العميد ، والخيال الشاعر . كنت كثيراً ما أغشاها بعيد الغداء ، فأجد جماعة أو جماعتين يلعبون الورق هنا ، وفقى أو فثنين يتساقطان الحديث هناك ، وبائع « الأبيض وبيض والعنبا » يسرق خطاه بين هؤلاء وأولئك ، فيذكر بشدائه البطون التي شغلها عن طلب الطعام سكرة القمار أو نشوة المنادمة ، فأجمل ظهري إلى أحلاس القهوة ، ووجهي إلى دجلة ، وعميتي إلى الجسر ، ثم أشاهد « فلماً » عجيب الألوان من الناس والأجناس

(١) الوجي : السريع .

والصور .. فهذا قطيع من الغنم يعبر الجسر إلى المجزرة في حصى راعيه ، وهو مستسلم لصوته منقاد لعصاه استسلام الأمة للطاغية يقودها إلى الحرب ، وانقياد الخليفة للقدر يسوقها إلى الموت .. وهذا الملك « فيصل » يعود من قصر العرش إلى قصر الزهور ، من غير حرس ولا جلبة ، فيقف في غمرة الناس على فم الجسر ينتظر أن يعبر القطيع راعيه ، وهناك تلاقى راعٍ وراعٍ ، وتقابل قطيع وقطيع !

الحلقة :

وكتب صورة ثانية من كتابه المفقود تحت عنوان « الحلقة » وصف بها رفقة من رجال العراق كان يطلق عليهم ياسين الهاشمي « الحلقة » قال :

« ستة من الاخوان جمعهم تشابه الذوق ، وألف بينهم تجانس الهوى ، فتساموا الصفاء ، وتقاسموا المودة ، وخلطوا حياتهم بحياة بعض . فما كانوا يفترقون أصائل الأيام ولا عشايا الليالي ، كانوا يتخذون سامرهم كل ليلة في دار أحدهم . فيتجلقون على مائدة الشاي السخية ، أو يتقابلون أمام المبدفأة الواهجة ، ثم يدبرون بينهم 'سقاط الحديث على أروع ما تشققه الأذهان الحصبية من براعة الفكر ، وملاحة النكتة ، وطلاوة الخبر ، وسلامة النقد ، وصحة الحكم ، فلا يدعون شأناً من شؤون الحياة ، ولا وجهاً من وجوه السياسة ولا أمراً من أمور البلد ، إلا تناولوه باللسان المرهف والفؤاد اليقظ والنظر المستقل ، فهم معارضون ولا لسان لهم في حزب ، ومصلحون ولا يد لهم في زعامة ..

كانوا يمثلون نواحي النشاط الفكري في العراق أصدق التمثيل ، فقيمهم رجل الجيش ، ورجل التعليم ، ورجل القانون ، ورجل الطب ، ورجل المال ، ورجل الشعب ، ذلك إلى امتياز كل منهم بسمه من سمات

الطبيع ، وصفه من صفات الخلق .

فطه الهاشمي عذب الروح ، سري الأخلاق ، وقور النفس ، مضروف
الهم إلى القراءة المنتجة والتأليف المحكم فيما يتصل بالتأريخ والحرب ، ولو
ترك إلى نفسه لما خرج من مكتبته ^(١) .

وناجي الأصيل نبيل العاطفة ، حلو الفكاهة ، سمح المقادة ، أفلاطوني
الزعة ^(٢) ، يعيش في السماء ، ويحلم دائماً بالمدينة الفاضلة .

ويوسف عز الدين ^(٣) متشد اللسان ، حصين الصدر ، سريع الفطنة ،
يتبسط في هزل الكلام ، ويتحوط في جده ، ولا ينفك لإخوانه موضع
السر ومرجع المشورة .

وكامل الجادرجي ^(٤) متوقد الذكاء ، متمرد الطبع ، متوثب العزيمة ،
دائب الحركة ، صليب الرأي ، يدين بالديمقراطية ، ويميل إلى الاشتراكية ،
ويرفرق بينناحية على الفلاح والعامل والمتعطل .

(١) دخل الوزارة مرات ورأسها قبيل ثورة العراق ٢٩٤١ ميس ١٩٤١ وترك بعد وفاته
مذكرات عالج فيها قضايا العراق بصراحة وإقتضاب ، حتى ثورة قور ، وكان الواجب
يقضي عليه أن يبدي رأيه في أحداثها وما لاقها من المخاوف ومضاعفات وما أعقبها من
اضطرابات ولكنه آثر السلامة .

(٢) رأس الجمع العلمي العراقي ودخل الوزارة قبلها ، توفي في الأسبوع الأول من ثورة ١٤
ومضان ٨ شباط ١٩٦٣ ، رأي فيه أن شهرته أكثر من حقيقته ، لم تعرف له مواقف جريئة
يسالم كل حكم ، ويفيد من كل وزارة ، ويتظاهر بالعلم والعفة .

(٣) يوسف عز الدين إبراهيم كان مديراً للمعارف ثم مفتشاً عاماً للمالية ، وعين وزيراً
للمعارف أيام انقلاب بكر صدقي ، رجل عمل قليل اللغو بعيد عن الادعاء .

(٤) دخل الوزارة أيام بكر صدقي ، ورأس الحزب الوطني الديمقراطي وعارض سياسة
نوري السعيد كما عارض الأحلاف ، يرجع إليه وإلى أعضاء حزبه شيوع الفكرة الاشتراكية
وعلى قنطورته عبر الحزب الشيوعي العراقي ، ولما واتتهم الفرصة تنكروا له والحزب الديمقراطي
توفي سنة ١٩٦٨ .

وموفق الآلوسي^(١) طموح القلب ، سريبع البادرة ، يارز الشخصية ،
يعتمد برأيه إلى حد العناد ، ويعتز بنفسه إلى حد المخاطرة .

وشوكة الزهاوي^(٢) واسع البال ، ضيق الأفق ، رصين العقل ، قد
قصر جهده على عمله فلا يكاد يطمع في شيء ، ولا يشارك في رأي ، ولا
يحفل بمحدث .

وأولئك كانوا لا اجتمع لهم من ضروب الثقافة وشئ الحلال ، صورة
مضجرة الأمة ، يعيشون منعزلين وهم فيها ، ويفكرون مستقلين وهم
منها ، كأنهم كانوا لأمالها رموزاً تتميز تميز العنوان وتنفرد انفراد العلم ،
كانوا جميعاً في ربة الحكومة ، الا كاملاً ، فكان للجبهة الكلمة الحرة ،
والفكرة الطليقة ، وقف على السياسة الصريحة قواء ، وأيقظ لأطوارها
المختلفة رأيه ، فكان يناصر الحزب مسا دام معارضاً ، فإذا قبل الحكم
تركه إلى غيره ، حتى انفرد هو ذات يوم بالمعارضة ، كان اليد اليمنى
لياسين الهاشمي في حزب الاخاء ، وياسين أمل البلاد المرجو ، وزعيمها
المنتظر ، فلما رآه يقصد الحكم عن طريق الملاينة والمسايرة ، خالفه ومعه
مقاعد البرلمان ، ووظائف الديوان ، وخرج مغاضباً إلى الجهاد
بالنفس والمال ، فزارل المحاماة ، وعالج الصحافة ، ولقي في سبيل ذلك
ما يلقي المعارضون المتزمتون من الضيق والعنت . .

كان للزيات في هذه « الحلقة » كرسي وثير ، يلقاه أصحابها بالترحاب

(١) درس في الحقوق وانتخب عميداً لها ، وعين مديراً للخارجية ، وترك العراق بعد
انقلاب بكر صدي ، واختير سفيراً للملكة العربية السعودية ، واخيراً احيل على المعاش ،
ويستكن سويسرا في الوقت الحاضر ، لم يترك اثرأ علمياً ، وقد صلح حاله وابعد عن عبادة
رؤسائه .

(٢) طبيب حاذق في فنه ، وبرغم ذلك أقحم في الوزارة وهو ابعد ما يكون عن السياسة
ومطاولها ، توفي في الخمسينات .

والتكريم ، وكان يجد لهم في نفسه من الطمأنينة والأنس ما لا يجده عند غيرهم ، فكان يناقلهم شجون الحديث ، فيعلم منهم ما لا يعلمه عن طريق الدراسة ، أو الصحافة ، أو الرسمية ، يقول في ذلك :

« كانوا يحملون في نفوسهم آمال العراق الناشئة ، وفي رؤوسهم ثورة الشباب الجديد .. سياستهم الجماعة قبل الفرد ، والعلامة قبل الخاصة ، والعراق قبل العروبة ، ولكن آراءهم في رأيي أشبه بأحلام الفلاسفة ، تحت رواق المعبد ، لأنك إذا استثنيت « كاملا » لا تجد فيهم من يفكر في انقلاب ، أو يحجر بمعارضة » .

وكان ظن الزيات صائبا ، فقد اشترك كامل الجادرجي في انقلاب ١٩٣٦ بقيادة بكر صديقي ، وساند الانقلابيين بتكوين الجبهة الشعبية ، واندفع في إدخال المقترحات الاشتراكية مما سبب له معارضة اضطرته أن ينسحب من الوزارة ، وقد اشترك من أعضاء الحلفاء في الوزارة آخرون هما : يوسف عز الدين ابراهيم لوزارة المعارف ، وناجي الأصيل للخارجية ، وأخرج من الحلفاء اثنان من العمل الرسمي ، طه الهاشمي : أبعد عن رئاسة أركان الجيش ، وموفق الألوسي من الخارجية .

وكان هذا الانقلاب أول حدث زج الجيش فيه بالسياسة ، ولا شك أن فساد الحكم وتطلع الشعب إلى الإصلاح والحد من تدخل المستشارين البريطانيين هو الذي أدى إلى تدخل الضباط في الاشتراك بالانقلاب ، ولكن ما عثم أن استغل بعضهم مراكزهم فأنحرفوا عن الأهداف التي جاهدوا الناس بانجازها مما دفع آخرين من عسكريين وساسة أن يدبروا انقلابا مضادا نفذت فيه خطتهم ونجحت باغتيال بكر صديقي ومحمد علي جواد ، ومن يومها لم تعرف البلاد طعم الاستقرار .

ذكريات الصيف في بغداد :

والصورة الثالثة التي احتواها كتاب الزيات المفقود ، وصف الصيف في بغداد ، الذي يصل حره أيام تموز وآب ، إلى خمسين درجة أو أكثر أحياناً ، وحق للمقريزي أن يقول : « إن من محاسن مصر ، أن أهلها لا يحتاجون في حر الصيف إلى الدخول في جوف الأرض كما يعانيه أهل بغداد » .. يريد به السرداب .

ووصف حر العراق كاتب عراقي ، فقال : « حر لا يطيب معه عيش ، ولا ينفع فيه ثلج ولا خيش ، فهو كقلب المهجور ، أو كالمتور المسجور » ..

والزيات لم يقض الصيف كله في بغداد ، وإنما كانت الدراسة تعطل في اليوم الاول من تموز ، فيسارح العراقي إن لم يكن قد بارحها قبل ذلك ، ولكنه حر العراق الذي لم يألفه في مصر أو غيرها ! فقال في وصفه : « السنة في العراق فصلان ، شتاء وصيف ، وليس بين الفصلين المتعاقبين إلا استراحة قصيرة لا تزيد على شهر . فالحر يبدأ من أواخر مارس ، ثم يتدرج حتى يبلغ الأوج في أشهر يونيو ، ويوليو ، وأغسطس » ثم تنكسر حدته بعد ذلك . هذا في العام . أما في اليوم ، فيطلع الحر بطاوع الشمس ، ثم يصعد بصعودها ، حتى إذا أقبل الضحى بلغت الحرارة خمسين درجة مئوية في الظل ، وانقلب البيت قرناً من غير وقود ، والهواء لهما من غير دخان ، وحينئذ تحس كأن روحاً نارية تمتد إلى وجهك فتحرقه ، وإلى نفسك فتزدهقه ، وإلى صدرك فتضيقه . فإذا كنت في الطريق لذت بجدار تحته ظل ، أو بقهوة فيها مروحة . وإذا كنت في دارك تجردت من أكثر ثيابك ، وألقيت بنفسك في السرداب فظلات به إلى أن تغرب الشمس . والسرداب في بيوت بغداد حجرة في أسفل الدار تنخفض عن سطحها مترين أو أكثر ، وليس فيها فتحة

شبر الباب ، وفي جدران الشتم على السدين شبك مربع يبيع الرخامة
 ثلثي الجدار ، البادكير ، وقد سدت بها يشبه مربية السرير قد خشيت
 بأعصان الصفصاف المورقة ، يرشونها بالماء الحين بعد الحين ،
 فترطب الهواء ، وتحركه المروحة الكهربائية ^(١) ، فينسم على الجالسين
 بالطراوة . ودور بغداد مبنية من طابقين ، فالطابق الأسفل للصيف ،
 والطابق الأعلى للشتاء . وهذا الطابق الشتوي لا ينفك يرسل في النهار
 والليل حرارة كوهج النار فلا يدخله في الصيف أحد ، إنما يمرون به
 سراعاً في الليل وهم صاعدون الى سطح الدار ، ليناموا أهناً النوم
 تحت السماء .

وإذا كانت أيام الصيف في بغداد لفحات من سحر جهنم ، فإن لياليها
 نقحات من نعيم الفردوس . وخير ما يعوض الأجساد من ذوبانها المستمر
 في عرقها الدائم ، تلك العشايا الجميلة التي يقضيها البغداديون على ضفاف
 دجلة . فهم يخرجون اليه كل مساء عائلات وجماعات وأفراداً ، ومعهم
 الخدم والفرش والطعام والشراب والفاكهة ، فيركب بعضهم زوارق
 النزهة ، ويجلس بعضهم في جزائر النهر ، وهؤلاء يغنون ويرقصون
 ويقصفون ، فيمسي دجلة بمائه وشطآنه وجزره مقصفاً محدوداً بين
 الرصافة والكرخ ، يضيح بالمتاع واللذة ^(٢) ، ويفيض بالانس واللمس ،

(١) صحت الزاديب بعد استعمال المكيفات الحديثة . هذا في بيوت بغداد القديمة .
 (٢) رحم الله أيام زمانك يا استاذ فقد فقد البغداديون ما فيهم الموسرون واهل الرواتب العالية
 تلك المنازة والمقاصف وسقف السمك واتخاذ شواطئ دجلة مصايف ، يقضي فيها الناس أشهر
 الصيف . كانت الحياة رخيصة ، ومواد العيش زهيدة ، لا تكلف إلا يسيراً من دخل الموظف
 او التاجر . اما اليوم فانها عشرة امثالها ، يوماً كنت تشتاع السمكة التي تكفي العائلة يربح
 دينار او اقل ، واليوم لا تقدر ان تشتاعها بأقل من ثلاثة دنانير او اكثر ، وقس عليها غيرها .
 ولا شك ان وجود المباني الحديثة وما يلحق في الدور من الحدائق الواسعة قد عوضت عن
 منازة النهر وان كانت المقاهي على شوارع ابي نواس ما زالت مكتظة بروادها الى اليوم .

ويستمتع بالشرب والسرور .. رثائك خالة الباغية ، تراثهم البغداديون من أسلافهم ، منذ أيام العروس في عهد الرشيد والأمين . ولا يزال لها في تاريخ الأدب أثر قوي ، وفي قصص ألف ليلة وليلة صدق رائع .

وحسبي أن أذكر لك في سبيل الترفيه يوماً من أيام بغداد ، وليلة من ليالي دجلة ، قضيتها مع صديقي المرحوم السيد عبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي المعروف ، وكان يومئذ لاجئاً بعاصمة العراق من اضطهاد فرنسا أم الحريات !

دعاني الزعيم ذات نهار من أنهار تبرز إلى الغداء ، فتجاملت على نفسي ، وذهبت إليه في الظهيرة . فوجدته في الحجرة السفلى من داره ، متهاكماً على فراشه ، وقد تعرى جسده البدين البطين ، إلا من إزار كإزار الحمام . فقلت مداعباً : أنتحرم يا أستاذ في غير وقت الحج ؟ فقال على البديهة ، وهو يضحك ضحكته العريضة المذبة : وكيف لا أحرّم وهذه شمس بغداد ترمي الجرات ؟ فعجبت من جمال تزيينه ، وحضور ذهنه ، على الرغم مما كان يقاسي من لثا الخمر وتقصد العرق . وتخففت من بعض ثيابي ، ثم جلست أناقله الحديث . وتعجبت كيف ازدهرت حضارة العباسيين في هذا القبط الطويل ، واستبحر عوامهم في هذا الخمود الملازم .. وكان الرجل قد وضع على مسافة متر منه مروحة كهربائية كبيرة وتركها ترسل على جسده العاري الضخم هباتها القوية من الهواء الحار ، فكانت لا تنفّس عن صدره ولا تخفف من كربه ، فيقوم إلى الحمام فينقع جسمه في الماء ، ثم يعود ليعود إليه الخناق واللهاث والحر والعرق .. واشتدت الحال ، فعبّزت عن الكلام ، وعجزت عن الاصغاء .

وظللنا نتردد بين غرفة الحمام وحجرة الطعام ، حتى سكنت فورة

الحر ، فاقترحت عليه أن نقضي هذه الأمسية على دجلة ، وكان ثالثنا صديقاً من ادباء بغداد . فهباً لنا العشاء والزورق ، وجذف بنا الملاح حتى توسط النهر ، فوقع في أسعانا من جهة الكرخ غشاء وعزف .. فقال أحدهما للنوبي : تتبع طريق هذا الزورق اللاهي . فقال الملاح بلمهجة الغاضب الأنوف : ولماذا نتبع نحن ولا يتبعون هم ؟ ولم يدهش العراقي .

وحاذي المركب المركب ، فإذا جماعة من شباب اليهود لا يقلون عن العشرة ، قد انتظموا صفين على جانبي الزورق ، وفي الوسط مائدة مستطمة عليها الطعام والشراب والزهر ، وشاب أبيض يعزف على الكمان . فلما رأونا خشعت الأصوات ، وشخصت الأعين ، ونادى ملاحنا بلمهجة عراقية أمرة : تعالي يا بنت ، تعال يا ولد ، وانتظرت أن أرى الغضب والاحتجاج أو التردد ، فلم أر إلا القوم يخلون للجوقة الطربق واجفين ويساعدونها على الانتقال واقفين . ولو كنسا جريئنا مع النوبي على مذهبه ، لنقل كل ما كان في مركبهم الى مركبه ، ثم سار زورقنا ، وهم يتبعون ، يغني ويعزف وهم يسمعون ... الخ ...

كدت أخرج من موضوع الحديث ، ولكن الأسى يبعث الأسى والذكرى تثير الذكرى ، والحديث شجون ، والأحداث عبر ، وكان في النية أن أتم الحديث بذكر الوسائل الصناعية التي كانت يتخذها أهل الترف من خلفاء بغداد ، وسراة العراق ، فيردون الجعجعم نعيماً ، واللفحة اللاذعة نسمة رطبة ، ولكنها صفحة من تأريخ التمدن أرجو أن أجلو بعض سطورها .

كيف كان العراقيون يتقنون الحر ؟

وتحت هذا العنوان كتب صورة أخرى كانت من مواضيع كتابه « العراق كما رأيته » قال : « حدثتك بطرف من ذكرياتي عن صيف

بغداد ، ووعدت أن أتم الحديث بذكر الوسائل التي كان الناس في العراق يتقون بها هذا الحر قبل أن 'يكشف الكهرباء' ، و'يكيف الهواء' ، ويصنع الثلج ...

والناس منذ عايشوا الطبيعة ، قد حاولوا أن يدرؤوا عن أنفسهم غوائل الجو بشتى الحيل . فأتقوا البرد القارس والمطر الواكف ، والريح العاتية ، تقف عند باب السكن فلا تفتحهم على من فيه .

ولكن الحر تعسر عليهم اتقاؤه ، لأنه يهاجمهم في الظل ، وفي الليل ، وفي داخل المسكن .. وغاية ما استطاعوه أن خففوا عنهم شدته بوسائل دلت عليها الطبيعة ، وهدت اليها التجربة كاتخاذ الملابس من الكتان ، واختيار الأبيض من الجلابيب والعائم ، ورش الأرض بالماء وتحريك الهواء بالترويح ، وتبريد الجسد بالاستحمام . وقد قيل لأعرابي من بدو العراق : كيف تصنعون في البادية إذا اشتد القبط ، وانتعل كل شيء ظله ؟ فقال الأعرابي ، وجهه يتهلل بالرضى والغبطة : « وهل العيش إلا ذاك ؟ يثني أحدنا ميلاً فيتصيب عرقاً ، ثم يتصب عصاه ويلقي كساءه في ظله يكتمل الريح فكأنه في إيوان كسرى » ..

على أن هذه الوسائل البدائية ، لم تلبث أن ارتقت بارتقاء الحضارة ، وازدادت بازدياد الترف . يحدثنا الطبري وياقوت : أن الأكسرة كان من عادتهم إذا اشتدت وقدة الحر ، أن يؤتى لهم باطباق من غصون الصفصاف الذي نسميه شعر البنات ، فتجعل ركناً حول الحجرة ، ثم يؤتى بقطع الشاج الكبار من قمم الجبال فتوضع ما بين أضعافها . وكانت هذه عادة الأمويين بالشام أيضاً . ولكن الناس في عهد الخليفة المنصور اتخذوا الخيش القليظ للتبريد ، فكانوا يغطون به جدران الحجرات طبقة فوق طبقة ، ولا يزالون يبلونه بالماء فيبرد ما يلامسه من الهواء بفعل التبخر .

وكان المترقون يغشون هذا الخيش بظاهرة من النسيج الدقيق المصنوع
بماء الورد والكافور والصندل . كان يجلب اليهم من مصر ، ثم اتخذوا بعد
ذلك بيوت الخيش وهي قباب يتصبونها على شكل خيام المعسكرات
اليوم ، يجري من فوقها الماء من قنوات صغيرة قبلها على الدوام فيبرد
هواؤها أشد البرد ، حتى ضربوا ببرودتها المثل فقالوا : طبعه أو شعره
أبرد من قبة الخيش . حكى ذلك المقدسي في كتابه « أحسن التقاسيم في
معرفة الأقاليم » ، وكانوا يتخذون مع الخيش المراوح الكبيرة المعلقة .
قال الغزولي في كتابه « مطالع البدور » : « وكان يستعمل في البيوت صيفا
مروحة تشبه شراع السفينة ، تعلق في سقف البيت ، ويشد بها حبل
يدبرها ، وهي تبل بالماء وترش بماء الورد ، فإذا أراد الرجل ان ينام
وقت القائلة جذبها من حبلها ، فتذهب بطول البيت وتحجى ، فيهب فيها
نسيم بارد طيب » ..

ثم تأثرت هندسة العمارة بطبيعة هذه الحرارة في القرن الثالث للهجرة ،
فبنيت القصور والدور في سامراء عاصمة العباسيين في عهد المعتصم
وبنيه ، على طراز يقول الأستاذ آدم مثر في كتاب تاريخ الحضارة الاسلامية
في القرن الرابع إنه منقول من آسيا الوسطى . وذلك أنهم يبنون الحجرات
والأبهاء والمجالس في الطابق الأرضي ، سراديب أنيقة الوضع جميلة الزخرف
حسنة التهوية بديعة الإضاءة . ثم يدبرونها في شكل مربع على فناء
سمائي رحب ، تتوسطه بركة أو نافورة أو بستان . ولقد زرت وأنا في
العراق أطلال سامراء أو « سر من رأى » - وشاهدت آثار قصر
الجعفري الذي بناه الخليفة المتوكل على هذا الطراز ، وشق في فناءه
بركته المشهورة التي يقول فيها الجعفي :

تنصب فيها وفود الماء معجلة	كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة	من السبائك تجري في مجاريها

إذا غلثها الصبا أبدت لها حبيكا
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها
إذا النجوم تراءت في جوانبها
مثل الجواشن مصقولا حواشيها
وريق الغيث أحيانا يياكيها
ليلا ، حسبت سماء ركبنت فيها

وهذا الوصف الدقيق الرقيق ، يدل على عظم البركة ، وفخامة القصر .

وفي القرن الخامس للهجرة ، يقول الرحالة الفارسي ناصر خسرو :
إن من خصائص مدينة أرسجان أن فيها الأبنية تحت الأرض مثل
ما فوقها .

ومصادق هذا الخبر ما نراه اليوم في مدينة النجف بالعراق . فإن
موقعها على طرف الصحراء وموضعها من شرف الأرض جعلها أقصى
البلاد حرأ وأيبسها طبيعة . فبنى أهلها السراييب طوابق كطوابق الدار
ثم عمقوها حتى نزلوا بها خمسة وثلاثين متراً في جوف الأرض ، ثم اتخذوا
من مائها الجوفي مجلساً رحيباً تلوذ به الأسرة من حرّ الهواء ، فتجد به في
قيظ الصيف برد الشتاء . وقد نزلت في زيارتي للنجف سرداباً من هذه
السراييب العجيبة في مدرسة السيد كاظم اليزدي ، فوجدت فيه من بديع
الصنع ما لا تصدق الاذن إلا إذا رآته العين .

أما مرفهات الصيف عند المترفين من الخلفاء والكبراء والقادة ، فحسبي أن
أخلص لكم صفحة من صفحات هذا الترف المسرف سجلها ابن أبي أصيبعة في
كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » عند كلامه على العالم النصراني
بختيشوع بن جبرائيل طبيب المتوكل . وقد كان يذهب في عيشه مذهب الملوك ،
وهو أول من احتمل لتكليف الهواء في الصيف والشتاء . فقد حدثت متحدث
أنه دخل على هذا الطبيب في يوم شديد الحر وهو في مجلس مغشى بطاقات
من الخيش ، بعضها فوق بعض . وفي وسط هذا المجلس قبة مجللة بالكتان
الناعم ، مظهرة بالديبقي المصبغ . وكان يلبس رداء من الخز فوقه جبة

من الصوف ، فعجب من زيتة ، فلما دخل في القبة ناله من البرد أمر عظيم ، فضحك الطبيب وأمر له برداء وجبة ، ثم قال لفلانة : إكشفي جوانب القبة ، فكشفتها فإذا أبواب مفتوحة من جوانب الإيوان في مواضع مكبوسة بالثلج وغللمان يروحون بالمرأح على ذلك الثلج ، فيخرج منه ذلك البرد الذي لحقه . ثم دعا بطعامه ، فأتي بمائدة عليها من ألوان الطعام كل غريب ، وأغرب ما كان عليها فراريج مشوية قانية الحمرة ، وجاء الطباخ فنفضها كلها فانتفضت . فلما سأله عنها قال : هذه فراريج تغلف اللوز المقشر ، وتسقى ماء الرمان .

ودخل عليه المتحدث في يوم قارس البرد ، وهو جالس في إيوان علي بستان أتيق الوشي مسكي العبير ، وعلى الإيوان ظهارات من فراء السمور وأكسية الحرير ، وجلود اليمن ولبود المغرب ، وقد ارتدى غلالة رقيقة وبين يديه موقد من الفضة مذهب محرق ، وغلان يحرق فيه البخور الهندى . فلما دخل معه الإيوان فإذا مواضع لها شبابيك من خشب بعد شبابيك من حديد ، وكوانين فيها فحم الغضا ، وغلان ينفخون ذلك الفحم بالأكوار كما يصنع الحدادون . ثم دعا بطعامه ، فأحضروا له ما جرت به العادة من الشهي الطيب ، وعلى المائدة فراريج ناصعة البياض ، فظننتها غير ناضجة . وجاء الطباخ فنفضها فانتفضت . فلما سأله عنها قال : هذه فراريج تغلف الجوز وتسقى اللبن ، وهي ثلاث البرد كما ثلاث تلك الحر .

وبقية الصفحة رواية أخرى عن مأدبة أدبها بختمشوع هذا للخليفة المتوكل في يوم قاتظ ، جمع له فيها ما لم يخطر على بال من فنون الترف والسرف والعلم ، فبرد الحرارة وطرد الذباب من الجو وأدنى متاع الجنة من الضيف .

وهذا النمط من العيش الرافة الراغد ، إنما كان مقصوراً على أولى
 النعمة من رجال الدولة ودهاقين المال . أما طبقات المجتمع الأخرى ،
 فقد راضتها الطبيعة على مكافئه الحر ، حتى ألفوا رمضاء الصحراء ،
 كما ألف الاسكيمو ثلوج القطب . والطبقة التي ميزها الملك الموروث
 والحكم القاسد والثراء الفاحش ، هي الآفة التي تقوض بناء الشعب ،
 والعامة التي تقتل سلام الأمة . وإن ما قرأناه من بذخ بختيشوع وأمثاله
 من أهل الترف ليزكرنا بما سمعناه عن بذخ يوسف كال وأشباهه من أهل
 البطالة ، والفرق بين ذلك الطبيب العالم ، وهذا الأمير الظالم ، هو الفرق
 بين الإنسان والوحش ، أو بين المملك والشیطان ، فقد كان أمير نجع حمادي
 يعيش هو وسائر الاقطاعيين في هجير الصعيد كما يعيش في نعيم سويسرا .
 وكان يستقر مئات الالوف من الفلاحين ليعقدوا من دمائهم الذهب ومن
 دموعهم السرور ، ومن شقائهم السعادة ، ثم يولم الولايم الفاخرة للأقارب
 من أسرته ، وللأجانب من ندمائه ، ويأمر عماله وفلاحيه أن يصطفوا
 صفين عن يمين وشمال ، فإذا مر بينهم هو أو ضيوفه ركعوا جميعاً .
 وكان يحشد لهذه الولايم كل متعة ويجمع فيها كل منكر ، ثم يرضن على
 الفقراء بالفتات والفضلات فيلقمها في نهر النيل السمك . واستدرج الله
 هؤلاء الفاسقين وأملى لهم ثم استجاب لدعوة المظلومين المحرومين ،
 فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله
 رب العالمين ..

وكان ما كان من ملك ومن ملك

ثم انتفض وكان القوم ما كانوا

أقول : ليت الذين يتولون مصالح الناس ينعتظون بما جرى للذين
حكّموا قبلهم وأسأؤوا وانحرفوا وانجروا بطعام الشعب ، وأثروا على
حساب نفوذهم ، وسخروا سلطانهم لاحتجان المقام والمكاسب لهم والأقربين
والمحسوبين ، فأصبحوا بين عشية وضحاها يعيشون عيش البطر ، ويصرفون
مصالح البلد ، ويديرون السفينة وفق رغباتهم وأطماعهم ، وظنوا أن عين
الله تنام ، أو أن عين الشعب غافلة - (وما الله بغافل عما يعمل الظالمون إنما
يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) .

الزيات والزهاوي

ومن الفصول الممتعة التي ضمها كتابه المفقود ، لقاءه الأول للزهاوي .
قال :

« كنت جالساً في يهو كارلتون ، صباح اليوم الثاني لقدومي ببغداد ،
أررض قلبي على روعة الفراق ، وأذني على لهجة العراق ، وعيني على
غرابية الصور ، وإذا بأحد الندل يلقي إلي بطاقة كتب عليها : « جميل
صدي الزهاوي » ولم تكذب تلوح في تخيلتي صورة الشاعر التي صورها
السماح والقراءة حتى رأيت على باب البهو شيخاً في حدود الثمانين ، قد انخرع
متنه ، وثقلت رجله ، ورعشت يده ، فلا يحمل بعضه بعضاً إلا جهداً .

أقبل عليّ يتخلع على ذراع غلامه ، وقد انبسطت أسارير جبينه
العريض ، وانفرجت شفتاه الذابلتان عن ابتسامة نضرة عذبة ، ثم سلم
عليّ تسليم البشاشة ، بيد مرتجفة ، ورحب بي ترحيب الكرم ، بصوت
متهدج ، ثم انطلق يشكو جمود الأمة ، وإغفال الدولة ، وكيد الخصوم ،
وإلحاح المرض . وتطرق إلى خصوصته عامشاً مع الاستاذ العقاد فذكر
والأسف المر يكسبه لهجة المظلوم ، وهيئة الشهيد ، كيف استغلها في
العراق من سدّد خطاه في الشعر ، وأرجف بها من تولاه بالرعاية ، وحّد
الله على أنني جمّدت بغداد بدل العقاد ، فقد كان وجوده تأليفاً متصلاً

على فضله ، وازعاجاً مستمراً لسكينة .

لم يدع لي الزائر الكريم فرصة بين كلامه الدافق ، أدخل عليه منها بالتخفيف ، فإن الزهاوي - كما علمت بعد - ديدنه أن يتكلم . كالبلبل ، خاصته أن يغرد ، أو كالزهر طبيعته أن يفوح . فهو في مجلس الصداقة شاكٍ أو شاكِر ، وفي مجلس الأدب محاضر أو شاعر ، وفي مجلس الأنس ، مفاكه أو محدث . كان الشيخ يتكلم أو ينشد ، ونبراته المؤثرة ، وقصائده المعبرة ، ولحيته الخفيفة المرسله ، ووجهه المسنون الأعجف وشاربه النائم على فمه الأهرت ، وعينه البراقة ترأراً من خلف المنظار ، وشعره الأشعث يتهدل على نتوء الصدغ : كل أولئك كان يحيل إلي أن طيفاً من أطيان الجدود ، أو نبياً من أنبياء اليهود ، قد انشق عنه حجاب الزمن فجاء في هذا المكان الصامت ، والنور القاتم ، والجو الغريب ، ولكن الجدبة التي تفيض من كلماته ، والعزبة التي تضطرم في نظراته ، كانت تطرد هذا الخيال ، وتجعلني وجهاً لوجه أمام « كتلة » من الأعصاب القوية المشدودة تتكلم وتئنم وتثور وتهب ، وتسخط وترضى ، وموضوع مقالها وانفعالها لا يخرج أبداً عن « الأنا » إذا صح التعبير .

كنت ألقاه في خلال الأسبوع مع الناس في منتداه بشارع الرشيد ، أو على ضفة دجلة جالساً على الدكة الخشبية ينشد الأبيات الرائعة ، أو يرسل النكتة البارعة ، أو يروي الخبر الطريف في بشاشة جذابة ، وقهقهة ساذجة ، ويده المرتعشة لا تنفك تبعث بلحيته الصغيرة ، أو تصعد وتهبط بسيكارتة العراقية ، أو تنشد « بالآلئة » إلى غلام القهوة كلما طلب الشاي إلى صديق^(١) .

(١) كان الزهاوي في الضحى يجلس في مقهى ما زال يسمى باسمه ، وفي الأمسيات يجلس على سيف دجلة في مقهى في الباب الشرقي يقع قرب وزارة الشؤون الاجتماعية مقابل صيننا ←

دأبت « عربية » الشيخ بعد ذلك على أن تقف أمام منزلي صباح يوم الجمعة من كل أسبوع . فكنت أستقبله استقبال العابد المتحنث للكهنة الملمم . ثم نقضي ضجوة النهار بما يحدثني فأعجب ، أو يتشدني فأطرب ، وقد تكون أذني إلى فمه ، وليس معنا ثالث ، ولكنه يجاهر بالإلقاء ، ويصوّر المعنى بالصوت والإيماء ، حتى يدهش المنزل وينصت الشارع . . وهو بين الفترة والفترة ، يعود إلى الشكاسة ، وشكواه لا تنقطع . وأظن أنا أمام هذا العجيشان الروحي ساهماً حالماً ، أفكر في الذهن الذي لا يكل ، واللسان الذي لا يفتر ، والزهو الذي لا يتطامن ، والطموح الذي لا يتقاصر ، والقلق الذي لا يسكن ، والتمرد الذي لا يمن ، والشباب الذي يلبس رداء الشيخوخة ، والحياة تتخذ هيئة الموت .

وكنت أزوره في مثواه « بالصابونجية »^(١) ، فأراه في مبادله قاعداً يشكو الوصب ، لأنه قضى الليل ساهراً يقرأ ، أو ذاهلاً ينظم . فالقصص والمجلات منتثرة على سريريه وعلى مقعده ، والمسودات مكدوسة تحت مخدته أو في ثيابه ، فلا يتمالك حين يراني أن يصيح : أنظر كيف أذيب عمري في شعري ، والأمة تقذفني بالبهتان ، والحكومة تخرجني من الأعيان ،

جـ. بروكسي ، وكان من عادته إذا جاء زائر ومعه جبب بشعره دفع عنه « الآنة » قيمة الشاي . وتساوي خمسة فلس ، وكان البعض من الحثاء من لم ينالوا فالزور بصطلاح البغداديين يحتالون على كرمه بفتح قصيدة من قصائده أو بعض منها أو بشروا له بخبز يشم منه رائحة تعييبه في الأعيان بعد أن فقدوه بالقرعة ، هناك يعلو صوته : أمينا شاي الأفندي . ويشير إليه بيده . وأبعض الظرفاء حوادث يخادعون بها حتى ينالوا دعوته على الغداء معه في داره . ويغيطه بعضهم فيوري له قصيدة من شعر الرصافي ويقضونها على كل ما قاله الشعراء ، أو ينقلون له خبراً يعزونه إلى مصطفى علي صديق الرصافي وحافظ شعره ، فيمتاج ويسبهم أو يقوم عنهم إلى ركن آخر أو يركب عربته ويرجع إلى داره .

(١) « الصابونجية » محلة كان فيها بيوت آل الزهاري تقع بالقرب من الميدان وما زالت مأهولة بالسكان .

رأى ، يستكثر على أن أكون شاعر البلاط .

اني سأذهب وستبقى أشعاري معبرة عن شعوري وناطقة بالأمي ،
فهي دموع ذرفت على الطرس ، وهي خليفة أن تبعث من عيون قارئها
دمعة هي كل جزائي من نظمها .

وكتب له ترجمة في أحد أجزاء الرسالة ، قال :

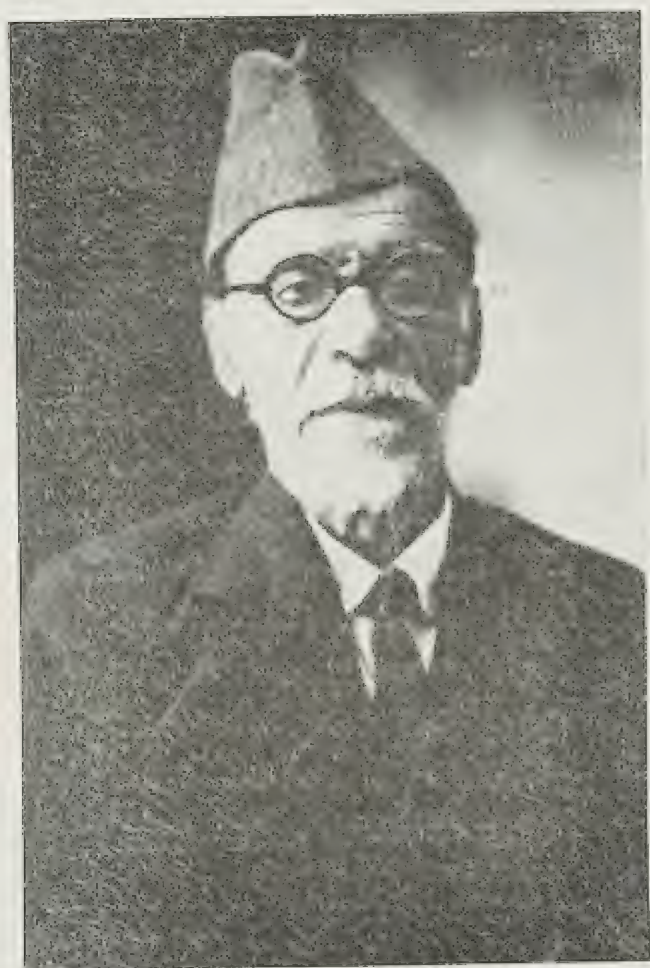
« ولد الزهاوي في يوم الأربعاء من شهر يونيو «حزيران» سنة ١٨٦٣
ببغداد لأبوين كرديين كريمين ، تميزت أسرتهما بالدين والفقه والأدب .
فقد كان أبوه محمد فيضي الزهاوي مفتياً لدار السلام ، وأخوه ^(١) فقيهاً
من فقهاءها . فنشأ جميل بين أبيه وأخيه ، يرتاض عقله ليتقن ، ويرتاض
خياله ليظفر ، ولكن أخاه كما حدثني الزهاوي كان حشر ^(٢) اللسان لا
يتذوق الأدب ، فكان يزوده عن رواية الشعر ويضده عن دراسة اللغة ،
ويأبى عناده هو وتسامح أبيه إلا أن يدمج النظر في الأدب ، ويروض
الترجمة على القريض . كان هم أخيه ، وأمل أبيه أن يستقيم على عمود
أسرته ، فيكون صاحب قضاء وفقه ، ولكنه استقام على تحتم طريقته ،
فكان صاحب دعوة وفلسفة . والاستعداد الموهوب في الطبع هو مشيئة
خالق في الخلق ، جعل من الزهاوي أباً العلماء ، وقد كان أهله يريدونه
أباً حنيفة ، وجعل الرضافي أباً نواس ، وقد كان الألوسي يريد في معروف
الرضافة معروف الكرخ ^(٣) .

(١) هو محمد سعيد الذي كان من أعلم فقهاء بغداد ، وهو والد الشيخ أبيجد الزهاوي رئيس
المجلس الشرعي ورئيس رابطة العلماء . والصواب مدينة السلام أي بغداد .

(٢) حشر اللسان : فائد الذوق .

(٣) يريد به الشيخ معروف الكرخي الصوفي المشهور .

والألوسي هو الامام محمود شكوي الألوسي البغدادي الذي تخرج به الرضافي ودرس عليه
ولازمه مدة طويلة ناهزت اثني عشرة سنة ، وهو الذي لقبه بالرضافي .



جمیل صدیقی الزہاوی

كان العراق أيام نشأ الزهاوي تركي الساطات ، 'سنتي الحكومة' ،
فالتعليم المدني فيه كان ثابتاً في لغته وطريقته وغايته لسياسة الاجنبي
وهواه . فلم يخرج إلا رجال جيش يخضعون للنظام ، ورجال إدارة
يدعون للحكم . أما التعليم الديني ، فقد ظل في صحون الجوامع على ما
عهده الناس ، عربي اللسان ، حر النزعة ، طليق الفكرة ، مستقل القادة .
وطبيعة هذا النوع من التعليم الجذلي المطلق أن يخلق المجهل للشعور
البليد فيضل ، ويكشف الآفاق للفكر النافذ فينبغ ، ويساعد الجبلة
في الانسان على حسب الاستعداد فتعلم أو تهبط ، فهو يساعد المهمة
القاعدة على السقوط ، والنفس القانعة على القنوط ، والذهن المبطن على
التخلف ، كما يساعد العقل الحائر على التزندق ، والطبع الفلق على
التمرد ، والارادة المستقلة على التزعم .

ورجال الثورة والاصلاح في تاريخنا الحديث ، كانوا جميعاً من أهل
هذه الثقافة كالافغاني ، وعراقي ، ونديم ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ،
والكواكبي ، والزهاوي ، والرصافي ، ومن الهم . والناهبون من أهل هذه
الثقافة ، لا ينفكون دائبين على القراءة ، والتقصع والمشاركة ليدفعوا عن
أنفسهم معرة الذم ، وهم عسيون - إذا جددوا - أن يسرفوا في التجديد ،
كسذي العاهة يدفعه النفور من ذل الضعف إلى الافراط في العسف
والتجبر .. فالزهاوي الجريء بطيحه ، الطموح باستعداده ، ثقفي بهـ هذه
الثقافة ، ثم تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة ترسلها على بغداد
الضجاري الملهمة ، ثم نزعة عرق العم والخيال من الكردية ، فجاهد
وجالد وغامر . والكرة كالعرب إن لم يكونوا من العرب . ثم ابتلي
وهو في الخامسة والعشرين من عمره بداء في النخاع الشوكي لازمه
بقية حياته ، ورمي بعد ذلك بالشلل في رجله ، فبرم واكتأب وتشاءم ،
ثم نفي من أهل عصره بفساد السلطان ، واستطالة الجهل ، والتخلل

الخلق ، فدفعته هذه العوامل كلها إلى موقف المصلحين من الانذار والتضيحية .

رأى وهو في الأستانة عبد الحميد يلقي الأحرار مفلولين في السجون ، أو في قاع البحر ، فأرسل مع أبي الهدى قصيدة منها :

أيامر ظل الله في أرضه بما نهي الله عنه والرسول المبجل
فيفقر ذا مال ، وينفي مبرأ ويسجن مظلوماً ، ويسبي ، ويقتل
تمهل قليلاً ، لا تغظ أمة إذا تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وأبيدك ان طالت فلا تغتر بها فان يسد الأيام منهن أطول
فسجته حيناً ثم نفاذ ..

وسمع وهو عضو في مجلس « المبعوثان » من بغداد ، مقرر الميزانية يذكر في ميزانية وزارة الحربية مبلغاً جسيماً من المال ، جعلوه لقراءة « البخاري » في الأسطول ، فقال : أنا أفهم أن يكون هذا المبلغ في ميزانية الأوقاف ، أما في ميزانية الحربية فلا . فالمفهوم أن الأسطول يمشي بالبخار لا بالبخاري . فثار عليه المجلس ، وشغب عليه العامة . والزهادي كان يردد هذه الحكاية ، ويتفاخر بجراته في اعتراضه . يحكيها بلهجة الساخرة يقول : « أفندم » هذا لن يكون ، الأسطول أفندم يسير بالبخار لا بالبخاري ، أفندم أنقلوا المبلغ إلى ميزانية الأوقاف ، يقوم بها الشيوخ وأهل الطرق . ولهجته وسخريته من عادة قراءة البخاري تبركاً جعل العامة تشغب عليه بعد أن رد اعتراضه جماعة من النواب ذوي النزعة المدنية .

ورأى ما تعانيه المرأة من عنت الاستعباد والاستبداد والجهل ، فهب لابقاظها ، فكتب في جريدة المؤيد مقاله المشهور « المرأة والدفاع عنها » فزلزل الناس في بغداد وغير بغداد ، فسمعوا به إلى ولاية الأمور

ليعزلوه ، وحرشوا عليه دماء الشعب ليقتلوه ، فاضطر إلى لزوم دارة .
 الزهاوي عقلية « افاقة » ، وحيوية ، وطبيعة ساخرة . وهذا
 النوثب الحماسي فيه هو الذي جعله يؤثر النظم في تقييد خواطره ،
 وهذه الحماسة قد تنفك أحياناً عن الفكرة لكلاهما ، أو ابتذالها ،
 فيذهب الشاعر ويبقى الفيلسوف ، ويكون الزهاوي معك كالآلة تدور
 مليئة مترنة مما دامت على شيء ، فإذا نفدت مادتها فجأة ، انطلقت
 تدور على الفارغ سريعة مضطربة . ذلك أن الفكرة الفلسفية هي المادة
 الاصلية في شعر الزهاوي . وليس الشعر كله فكرة ، وإنما هو - فضلاً
 عنها - صورة يرسمها الخيال ، وشعور تبعثه العاطفة . على أن فكرة
 الفيلسوف واضحة ، وجمالها في هذا الوضوح ، وفكرة الشاعر خفية
 وسحرها في هذا الحفاء . إما أن تدرس الطبيعة لتعرفها وتشرحها
 فتكون صاحب فلسفة ، وإما أن تدرسها لتقلدها وتصورها فتكون
 صاحب شعر ، أما الخلط بين الفلسفة والشعر ، لأن الشاعر يدرس
 ظواهر الكون ، فكالخلط بين التصوير والتشريح ، لأن المصور يدرس
 بواطن الجسم .

كان الزهاوي كشوق حريضاً على متابعة العصر ، ومسايرة التطور .
 ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد ، وحس مرهف
 بأنف التخلف .

ويزيد الزهاوي أن الفخر يزهاه ، وأن التيه يذهب به فيحب الثناء
 ويبغض النقد . فهو لعزفه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد ،
 ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأي إلى التطرف ، ولطمعه في نباهة
 الذكر يحاري ميول الخاصة ، ويعارض هوى العامة . ومن ثم كانت
 أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم وزرابة على الجسود
 بحاربة أهل الدين ، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة .

ونظم في أغقاب عمره « ثورة في الجحيم » ففزع المؤمنون من شرها
إلى الملك فيصل ، فلما كلمه في ذلك قال : « ما أصنع يا مولاي »
عجزت عن إضرام الثورة في الأرض فأضرمتها في السماء !

ورسم الزيات صورة ثلاثة للزهاوي ،

وازن فيها بين عقله وبين أصحاب العلم والفلسفة ، وردت أصول
دراسته وما ترجم إلى الكتب والمقالات والمجلات ولا سيما « المقتطف »
لأنه ما كان يحسن سوى العربية والفارسية والتركية والكردية ، وكلها
لغات المترجم إليها من العلوم قليل ، لا يبل صدى الظمآن ، ولا يصل
فكر الإنسان بالتطور الذي نضج في أوربا وأمريكا .

قال :

« ومع ذلك استيقظن الزهاوي دخائل هذه العلوم بعقله الناقد حتى
ألف كتاب « الكائنات » في الفلسفة ، وكتاب « الجاذبية وتعليمها »
وقال :

« سواء أفض دليلاً « في الجاذبية » أم دحض ، فإنه يدل على
النظر الثاقب ، والفكر المستقل . ورجاحة عقله هي التي حملته وهو
في ربيع العمر على أن يشرف على ظواهر الكون وحقائق الوجود ،
من سماء فكره لا من سماء خياله . والمعهود في عامة الشعراء أن
يكونوا على النقيض من ذلك . فلما هيأت الأقدار الجميلة لرسالة الشعر ،
كان فكره أقوى من خياله وأسمى من عاطفته . والفكر والخيال
والعاطفة هن ملكات النفس الأدبية الثلاث ، يصدر عنهن فيض القرينة ،
ويرد اليهن إلهام العبقرية . ولكن الشعر ، لا يهيمن عليه إلا الخيال
والعاطفة . أما حاجته إلى الفكر فمحدودة بمقدار ما يضيء الطريق
للخيال والعاطفة حتى يأمننا الضلالة . فالفكر للعبقرية بمثابة العين »

والخيال والعاطفة لها بمثابة الجناحين ، فإذا تغلبا عليها كانت الشرود
والزيف ، وإن تغلب عليها كان الجفاف والعقم . ومن هنا جردوا أكثر
ما قاله أبو الغلاء ، وأقل ما نظم أبو الطيب ، من الشاعرية ..

والزهاري شاعر من شعراء الفكرة ، له البصيرة الناقدة ، والفطنة
النافذة وليس له الأذن التي «توسق» ولا القريحة التي تصنع ، واللفظ
قد لا يختار ، والوزن قد لا يتسق ، والأسلوب قد لا ينسجم ،
ولكن الفكرة الحية تخرج بين الأبواب المتخاذلة عجيح الأمواج المزبدة
بين الشواطئ المنهارة .

«والزهاري بعد هذا وقبل هذا» كان رسولا من رسل الفكرة
الإنسانية ، وبطلا من أبطال النهضة العربية . كان يهزج بأغاريد الفخر
على ضفاف دجلة فتتردد صداؤها الموقظة على ربوات بردى ، وخمائل
النيل ، وسواحل المغرب .

وأدب الزهاري وأمثاله هو الذي وصل القلوب العربية في مجاهل
القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة ، حتى استطاعت اليوم أن
تتعارف وتتألف وتتحالف ، ثم تسعى لتفقد أمة كما كانت ، وتقوى
لتصبح دولة كما يجب أن تكون ..

وضوح العروبة لدى الزيات

تدب الزيات للتدريس في العراق سنة ١٩٢٩ ، وبقي في بغداد ثلاث سنين مليئة بالفكر والعمل . خالط فيها رجال القومية والداعين للعروبة في العراق ، وكانت الفكرة القومية تتردد على لسان المثقفين ، وكانت ذكر العروبة تتعطر به شفاه المعلمين . وبحكم اجتماعات الزيات بقيادة الفكر وأرباب السياسة وزعماء النثر والشعر ، واختلاطه بالأساتذة وهم حملة الأقلام والأفكار النيرة ، تلمت أفكار القومية والدعوة للوحدة ، وسبر حق العروبة وما تعني . عرف أبعادها وأفكارها من كبار دعايتها مثل ساطع الحصري الذي يعد بحق فيلسوف القومية وزعيم دعايتها ، ومن الثعالبي والهاشمي والشبيبي والراوي وغيرهم ممن زامله في دار المعلمين العالية ، فأمن بالعروبة وأصبح من دعايتها ، وساهم في تأسيس الجمعية الثقافية التي تأسست يومذاك في بغداد . ومن أهدافها أن تقوم مشيولات لها في مصر وسوريا ولبنان وفي أقطار العروبة كلها ، وترمي هذه الجمعيات الى نشر الوعي القومي عن طريق إحياء التراث العربي والثقافة العربية ، وقد تبلورت فكرة قيام هذه الجمعية إثر المحادثات وتبادل الأفكار بين ساطع الحصري والأساتذة العراقيين من جهة وبين أساتذة الجامعة المصرية الذين زاروا العراق في شباط سنة ١٩٣١ من جهة أخرى . فتم الاتفاق بين الزائرين والمضيفين على وجوب التعاون في سبيل نهوض

الثقافة العربية وخصان ازدهارها . يقول ساطع الحصري في مذكراته :
ورأينا أن أحسن طريقة لذلك ، في ظروفنا الحالية هي :

« أن نؤسس في كل من بغداد والقاهرة جمعية تسمى « جمعية الثقافة العربية » ، لتتولى هاتان الجمعيتان مهام الاتصال بين مثقفي البلدين وتنسيق وتوحيد الجهود التي يجب أن تبذل في هذا السبيل ^(١) » .

كانت هذه السفارة الثقافية الاستكشافية برئاسة الأستاذ العلامة أحمد أمين وعضوية عبد الرزاق السنهوري القانوني الضليع ، والأستاذ عبد الوهاب عزام ، وشفيق غريال ، ومصطفى عامر ، يرافقهم عدد من طلاب الجامعة ممن أصبحوا هم وأساتذتهم يتسمنون مراكز حساسة في الحكومة المصرية حلوا ضيوفاً على وزارة المعارف ، أو على دار المعلمين العالية على الأصح . ووضع الحصري منهاج الزيارات والاحتفالات ، واختار الأساتذة المتحمسين لفكرة العروبة . ليكونوا برفقة الوفد طلاباً وأساتذة .

أقيمت للوفد حفلات ، خطب فيها درويش المقدادي ومثي عقراوي . وألقى فيها جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرضافي قصائد مناسبة . يقول الأستاذ ساطع الحصري :

« ان الخطب التي أُلقيت في هاتين الحفلتين (حفلة دار المعلمين العالية ونادي المعلمين - في فندق كارلتون المطل على نهر دجلة ، في يومي ٨ و ٩ شباط ١٩٣١ . ان هذه الخطب التي ألقاها المحققون والمحتفى بهم) شغلت مكاناً هاماً من صفحات الجرائد ، وأوجدت حركة فكرية وقومية نلفت الأنظار ، ولا سيما قصيدة معروف الرضافي التي كان مطلعها :

(١) مذكرات الحصري ، الجزء الثاني ص ٧٢ .

أرى بعد نوم طال في الشرق يقظة
نهوضية فيها ظموح الى الجحد
ففي مصر شيدت للعلوم معاهد
على أسس التحليل والبحث والنقد

وأكد أحمد أمين في خطبته على الروابط التاريخية التي تربط مختلف
البلاد العربية وان كان قد أكثر من استعمال تعبير « الأمم العربية » فارة
« والأمم الشرقية » فارة أخرى ، وهذه التعبيرات كانت موضع حوار
ونقاش بين ساطع الحصري وأحمد أمين في جلسات خاصة .

ويقول الأستاذ ساطع الحصري : ولكن أهم الآثار الفكرية تولدت
من اختلاط طلاب الجامعة المصرية بطلاب دار المعلمين العالية ببغداد .

وقال : « كان المصريون يستغربون أشد الاستغراب من تكلم العراقيين
في القومية العربية ، ويسألونهم : أنتم عراقيون فكيف تشعرون بأنكم
عرب ؟ وأما العراقيون فكانوا يستغربون أسئلة المصريين هذه ويسألونهم :
أنتم أستم عرباً ؟ صحيح انكم مصريون ولكن أليس المصريون كلهم
عرباً ، فكيف لا تشعرون بعروبتكم ؟ » يقول أبو خلدون : كنت أشعر
بسرور عميق عندما أطلع على هذه المحادثات خلال تجوالي بين موائدهم
دون أن أستغربها ، اعتقاداً مني بأن ذلك لا بد أن يفتح أمام الشبان
المصريين آفاقاً جديدة ، كما أنها كانت لا بد من أن تقوى عند الطلاب
العراقيين روح العروبة .

قلت : لم أستغربها لأنني كنت أعرف أن بمصر ، كانت تحضر كلمة
« العرب » بصورة رسمية في البدور ، فإن الإحصاءات الرسمية بعد أن
تذكر ما يعود إلى كل محافظة واحدة فواحدة تذكر ما يعود إلى العرب .
كأن أبناء المحافظات ليسوا عرباً » أقول إن هذا الاستعمال كان معروفاً

في العراق فإذا قال أحدها إني أريد القدوم إلى العرب ، عَنَسَى الريف أو
البدو ، ولكن الوعي القومي أبطله تدريجياً ..

الزيات عضو في الجمعية الثقافية العربية :

وكان أعضاؤها المؤسسون بترتيب حروف الهجاء :

(١) إبراهيم الشابندر (٢) أليس قندلفت (٣) أحمد حسن الزيات
(٤) داود الجلبي (٥) درويش المقدادي (٦) رفائيل بطي (٧) ساطع
الحصري (٨) سامي شوكة (٩) طالب مشتاق (١٠) طه الهاشمي (١١) متى
عقراوي (١٢) موفق الألوسي (١٣) ناجي الأصيل (١٤) يوسف زينل .

وبعد الحصول على الأذن القانوني انتخب الدكتور داود الجلبي مدير
الصحة العام رئيساً للجمعية ، والدكتور متى عقراوي « سكرتيراً » لها ،
وابراهيم الشابندر محاسباً وأميناً للصندوق ، ووزعت الجمعية المنشور التالي
على عدد كبير من المثقفين ، أثبت نصه لما فيه من تفكير عميق وحساسية
للفكرة القومية .

بعد العنوان :

« لم يبق أحد إلا وقد شعر بأن الشرق العربي ينتجه اليوم اتجاهاً
جديداً نحو الحياة ، بعد أن شملته يقظة الأمم والشعوب عقيب الحرب
العظمى . ولكن الوضع السياسي للناطقين بالضاد وما خلفته أعوام الركود
جعل الأقطار العربية مبعثرة من حيث النفوذ السائد عليها والمنظم التي
تخضع لها ، ففقدت تختلف حالاتها الاجتماعية والأدبية بعضها عن بعض
اختلافاً بيتاً . وهذا ما جعل هذه الأقطار بعيدة عن إجتناء ثمرات
النهضة الحديثة التي استروحت نساغها في العهد الأخير . لذلك كانت

التفكير في التقريب بين أقطار الشرق العربي من طلائع الغابات التي يجب على المنورين في كل قطر أن يضعوها نصب أعينهم . ونخالكم تتفقون معنا على أن المشروع الأول الذي يجب أن تتضافر عليه الجهود في هذا الباب توحيد الثقافة ، وهذا لا يتم إلا بإيجاد الصلات الفكرية والروابط الأدبية بين البلاد العربية للحصول على وحدة ثقافة شاملة .

تلك حاجة شعر بها الغياري على مستقبل الشرق العربي ، وشغلت أذهانهم ، فصاروا يبذلون المساعي لسدها بالسبل القوية ، وقد حفزت هذه النزعة الشريفة جماعة من المشتغلين بالعلم والأدب في بغداد ، فعنوا بمناقشة الموضوع مع طائفة من الاساتذة المصريين الذين أمثوا مدينة الخلفاء في بعثة الجامعة المصرية في الشتاء الماضي ، فاستقر الرأي على تأليف جمعيات في ديار العروبة تتخذ واسطة الاتصال بين المفكرين فيها ، وأن تسلك هذه الجمعيات الطرق المؤدية الى توحيد الثقافة العربية الخ .

ومن هذا البحث أريد أن أخلص إلى أن فكرة القومية ومفاهيمها قد نضجت في صدر أستاذنا الزيات في أثناء اشتغاله في العراق ، فلما عاد الى مصر وأنشأ الرسالة كانت بحق مجلة الرسالة القومية الحاملة لواء الدعوة الى العروبة وغرسها في نفوس قرائها من أبناء الشعوب العربية .

لقد اشتد الجدل يومئذ بين نفر ممن عمل بتوجيه من المستعمرين والمستشرقين ينزعون نزعة إقليمية ، هذا يقول بالفرعونية وذاك يقول بالفينيقية ، وذلك يقول بالبربرية . واتهم أساتذة كبار من أمثال طه حسين والعقاد ، بأنهم تنكروا للعروبة ، وكثر اللفظ والجدل حول هذا الموضوع ، وتوضحت الأفكار وصححت المفاهيم ، ووضح ما كان مبهماً ، وتخلص الكتاب من كثير مما كانوا يقومون فيه من الأخطاء والخلط في مثل التعبيرات « الأمم العربية » والصواب الشعوب العربية .

« الشرق العربي » وكان المغرب العربي لم يكن أهله عرباً .

ومثل « إحياء عظماء الشرق » ويريدون به عظماء الأمة العربية لأن الشرق يشمل الهند والفرس والصين واليابان الخ ... وإلى القارىء الكريم خلاصة من المقالات فيها الدلالة على التحول الكبير الذي أحدثته التوعية القومية وشيوع فكرة العروبة في كتاب مصر بفضل الزيات وكتاب رسالته . من تلك المقالات التي كتبها الزيات في القومية مقالته المشهور (فرعونيون وعرب) : فقد كان له تجاوب في الأقطار العربية ، وصدى على أسلأت أقلام الكتاب ، قال :

« عفا الله عن كتابنا الصحفيين ، ما أقدرهم على أن يثيروا عاصفة من غير ريح ، ويبعثوا حرباً من غير جند !

حالا لبعضهم ذات يوم أن يكون بينظيماً يجادل في الدجاجة والبيضة أيتها أصل الأخرى ؟ فقال على هذا القياس : أفرعونيون نحن أم عرب ؟ أنقيم ثقتنا على الفرعونية أم نقيمها على العربية ؟

نعم ! قالوا ذلك القول ، وجادلوا فيه جدال من أعطي أزمة النفوس وأعنة الأهواء . يقول لها : كوني فرعونية فتكون ، أو كوني عربية فتكون ، ثم اشتهر بالرأي الفرعوني اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام ، فبسطوه في المقالات وأيدوه بالمناظرات ، وردده في المحادثات ، حتى خال بنو الأعمام في العراق والشام أن الأمر جد ، وأن الفكرة عقيدة ، وأن ثلاثة من الكتاب أمة ، وأن مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مسلات ، والمساجد معابد ، والكنائس هياكل والعلماء كهنة .

مهلاً بني قورننا لا تعتدوا بشهوة الجدل على الحق ، ورويداً بني عمنا لا تسبوا بقسوة الظن إلى القرابة ، فبأي شيء من هذا يقارى إخواننا

الجدليون ، وهم لو كشفوا في أنفسهم عن مصادر الفكر ومنابع الشعور ومواقع الالهام ، لرأوا الروح العربية تشرق في قلوبهم ديناً ، وتسري في دماهم أدباً ، وتجري على ألسنتهم لغة ، وتفيض على عواطفهم كرامة .

لا نريد أن نحاجتهم بما قرره العلماء المحدثون من أن المصرية الجاهلية تنزع بعرق الى العربية الجاهلية ، فان هذا الحجاج يقطع فيه النفس ، ولا ينقطع فيه الجدل . وكفى بالواقع المشهود دليلاً وحجة . هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلاث من التاريخ العربي نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الضاحية سوابغ الظلال . وذلك ماضي مصر الحي الذي يصيح في الدم ، ويثور في الأعصاب ، ويدفع بالحاضر الى مستقبل ثابت الأسس شامخ الذرى عزيز الدعائم .

أزهقوا إن استطعتم هذه الروح ، واحموا ولو بالفرض هذا الماضي ، ثم انظروا ما يبقى في يد الزمان من مصر . هل يبقى غير أشلاء من بقايا السوط ، وأنضاء من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة تزل « كتاب الأمواج » ، وجباه ضارعة تسجد للصخور وتعنو للعجاوات ، وقبور ذهبية الاحشاء ابتلعت الدور حتى زحمت بانتفاخها الارض ، وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة ؟ وهل ذلك إلا الماضي الأبعد الذي تريدون أن يكون قاعدة لمصر الحديثة ، تصور بألوانه ، وتشيد بألحانه ، وتحيي أخيراً بروحه ؟ ولكن أين تحسون بالله هذه الروح ؟ إن أرواح الشعوب لا تنتقل إلى الأعقاب إلا في نتائج العقول والقرائح ، فهل كشفتم بحانب الهياكل الموحشة والقبور الصم مكتبة واحدة تحدثكم عن فلسفة كفلسفة اليونان وتشريع كتشريع الرومان وشعر كشعر العرب ؟ أم الحق أن مصر القديمة دفن فنيت روحه مع الآلهة ، وصحائف موت ذهب سرها مع الكهنة ؟ والحامد لا يبعث حياة ، والجماد لا يلد حركة .

لا تستطيع مصر إلا أن تكون فصلاً من كتاب المجد العربي ، لأنها لا تجد مدداً لحيواتها ، ولا سنداً لقواتها ، ولا أساساً لثقافتها إلا في رسالة العرب . أما أن يكون لأدبها طابعه ولغتها لونه فذلك قانون الطبيعة ، ولا شأن (لبنّا) ولا (ليعرب) فيه لأن الآداب والفنون ملاكها الخيال ، والخيال غذائه الحس ، والحس موضوعه البيئة ، والبيئة عمل من أعمال الطبيعة يختلف باختلافها في كل قطر ، فإذا لم يوفق الفنان بين عمله وعمل الطبيعة ، ويؤلف بين روحه وروح البيئة ، فاقته الصبغة المحلية وهي شرط جوهري لصدق الأسلوب وسلامة الصورة .

وقديماً كان لون الأدب في الحجاز غيره في نجد ، وفي العراق غيره في الشام . وفي مصر غيره في الأندلس ، دون أن يسبق هذا التباين دعوة ولا أن يلحق به أثر .. انشروا ما ضمت القبور من رفات الفراعين ، واستقروا من الصخور الصلاب أخبار المالكين ، وغالبوا البلى على ما بقي في يده من أكفان الرميم ، ثم تحدثوا واطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار وعظمة النيل وجمال الوادي وحال الشعب ، ولكن اذكروا دائماً أن الروح التي تنفخونها في مومياء فرعون هي روح تحمرو ، وأن اللسان الذي تتنثرون به مجد مصر هو لسان مصر ، وأن القيثارة الذي توقعون عليه ألحان النيل هو قيثارة امرئ القيس ، وأن آثار العرب المغنوية التي لا تزال تعمم الصدور وتملأ السطور وتغذي العالم هي أدعى إلى الفخر ، وأبقى على الدهر ، وأجدى على الناس من صفائح الذهب وجنادل الحجارة .

إنما تتفاضل الأمم بما قدمت للخلق من خير ، وتختلف الأعمال بما أجدت على الإنسان من نفع . أليس الحزان خيراً من الكرنك ، والأزهر أفضل من الأهرام ، ودار الكتب أنفس من دار الآثار ؟

وبعد ، فإن ثقافتنا الحديثة إنما تقوم في روحها على الإسلام والمسيحية ،

وفي آدابها على الآداب العربية والغربية ، وفي علمها على القرائح الأوروبية
الخالصة . أما ثقافتها (البردي) فليدس يربطها بمصر العربية رباط ، لا
بالمسلمين ولا الاقباط (١) .

الزيات من دعاة الوعي القومي :

من مقال نشره بعنوان « مصر وأخواتها » في ٤ مارس ١٩٣٥ ،
جاء فيه .

« كأنما السؤال من الناس كسؤال الناس ، لا يتفق مع الرخاء ولا
يكون مع الفنى ، فإن مصر والعراق يكادان من سعة العيش لا يذكران
من وراء الحدود ، والوحدة العربية في البلدين على الرأي الاغلب حديث
خرافة أو حديث مجاملة ، فلولا الأدب الذي يجمع الفؤاد بالفؤاد ،
ويربط البلاد بالبلاد ، ويصل الأحفاد بالأجداد ، لظلت منابت العروبة
ومواطن الاسلام أغفالا لا تعرف ، وأرحاما لا تبلى .

يزور المصري من أقطار العرب ، فيكون أول ما يرد على سمعه
عقب الحبين على الهجر ، ولوم الأقربين على القطيعه ، وعذل الجيرة على
التخاذل ، فيلقى معاذير الموم المخرج في منطق عي ودفاع غير ناهض ،
ثم يزداد حرجه وتتخاذل حججه كلما رأى قلوبهم تزخر بمواطنه ،
وصدورهم تجيش بامانيه ، وألسنتهم تضطرب بأخباره ، ونهضتهم تسترشد
بنهضته ، ووجهتهم تسير مع وجهته . فصحفه تقرأ ، وكتبه تدرس ،
وسياسته تحتذى ، وزعامته تتبع . ثم خصومته هي لهم خصومة ، وقومه
لقومهم أهل ، وبلده لبلادهم قبلة ، حينئذ يقول لنفسه ، والحجل

(١) وحي الرسالة ١ - ١٠ - ١٩٣٣ .

والمعجب يتعاقبان على وجهه ، إن وطني مترامي الحدود ، فلماذا أحدثه
على الضيق ؟ وقومي ضخام العديد ، فلماذا أحصرهم على القلة ؟ وجيراني
كرام يصفون المودة ويصدقون العطف ويولون المعونة ، فلماذا أجعل
بيني وبينهم سداً من الإهمال والغفلة ؟ إن الأمم القوية الناضجة لترخص
الأموال والأنفس في التمكن لأدبياتها ونفوذها وعروضها في الشرق ،
فكيف نعرض نحن عن ذلك ، وهو بأدبنا عفواً عن طريق القرابة
والنسب والوحدة في اللغة والأدب والمشاكلة في الحظ والحالة ؟ » وختمها
بقوله : « إن من وراء حدودنا - يا قوم - آداباً لا تقل عن آدابنا
يحسن أن تعرف ، وشعوباً تتصل بأنسابنا يجب أن تؤلف ، وأسواقاً
تفتقر إلى انتاجنا ينبغي أن تكشف ، أما النظر في حدود البحر ،
فأدما يفرق البصر ويجمع الخطر وينجم بقوميتنا وأمانيتنا على الفرق... » .

حديقة النادي العسكري

كان الزيات يسكن في السنة الأولى من حياته في العراق ، السنة الدراسية ١٩٢٩ - ١٩٣٠ في بيت قرب دار جريدة الزمان الكائن بمحلة الميدان ، اختارها لقرعها من المدرسة التي اتخذت معهداً للمعلمين العالية ، فكان إذا وجد متسعاً من وقته عرج على حديقة النادي العسكري ، يغشاها عند الصباح الباكر ، يجتلي محاسنها ويتنسم عبير أزهارها ، ويتبرد بأفناء أشجارها فكان لاجتلائها الساحر أثر فعال في إبداع ذلك الوصف البارع الذي ديجّه قلمه البليغ في وصف تلك (الحديقة) ، قال :

كان ألذ ما أتذوقه من جمال بغداد وقفة في حديقة (النادي العسكري) كل صباح ، فكنت تراني أحرض عليها حرص العايد المتحنت على أداء صلاته ، أو العاشق المتوجتد على لقاء فتاته . كنت أعشى كل يوم هذا المجتلي الساحر في رونق الضحى أو في متوع النهار ، فأجد الشمس قد لآلت ذوائب النخل وغوارب النهر ، وأخذت ترشف بأشعتها الظلال النديّة من خلال الشجر ، وبنات الهديل ^(١) يبعثن كمعادتهن في عساليج ^(٢) التين

(١) بنات الهديل : كتابة عن الحمام .

(٢) العساليج : جمع عسلوج ، وهو ما لان واخضر من أغصان الشجر .

وأغصان التوت بأرجلهم ومناقيرهن ، وهن يرجعن على التعاقب الحان
 الخريف . وأرى الحديقة مطبولة النباتات منضورة الزهر ، تنفس
 بالفاغية (١) تنفس الطفل الحالم ، فأشعر بالسكون مرهوب الجلال ،
 أنيس الوحشة ، يعمق ثم يعمق حتى تكاد تسمع بأرض (٢) النبات وهو
 ينبت ، وأجد النادي خلواً من أهله ، فلا تجد إلا بستانياً يعمل في صمت ،
 وغلاماً يكنس في هدوء ، وطفلين جميلين يخيئان أحياناً فيجلسان في
 الشرفة أو يمشيان في الحديقة ، فلولا نشور خادمها الكهل ، ومنظر هندامه
 الزري الشكل ، لحسبتها زهرتين من زهورها أو عصفورين من طيورها .
 فأسير في الروضة مشد الخُطى مرسل النفس مرهف الحس ، قارة بين
 ماشيا ، وقارة فوق حواشيا ، فأقف عند كل شجرة ، وأحيي كل زهرة ،
 وأسأل النسبنة الوليدة بالأمس ما حظها اليوم من سر الحياة ونعمة الوجود ؟
 ثم أضعف درجة الى الشرفة ، وأنعم ساعة بتلك الوقفة ، أتنسم هواء
 النهر ملء رقي ، وأخذ جملة المنظر بمجامع عيني ، وأي منظر يسحر
 الطرف وبذلك اللب كهذا المنظر الفائق ؟ الحديقة من ورائي تضوع بالنسيم
 الأريج ، وتروق بالرواء البهيج ، وتروع بالسكون الملمم ، ودجلة الخالد
 من أمامي تتجاوب أصداء الأمم خافتة في لججها ، وتتهادى خفاف
 القوارب راقصة بين أمواجه ، وأنا بين الشجر والماء ، كالطائر بين الأرض
 والسماء ، يسبح خاطري في أجواء الماضي القريب والبعيد ضاعداً إلى
 فكرة ، أو هابطاً على ذكره ، أو جاثماً حول منظر كهذا المنظر ، تدفق
 به قلب في قلب ، وامتزجت فيه نفس بنفس ، وتجمعت الأحلام والاماني
 كلها فوق رقعة صغيرة من أرضه ، وتحث سرخة فينانة من روضه . لا
 تظنّ هذه الحديقة فيحاء ، قد تأنقت فيها يد الطبيعة وتالت بها فن

(١) الفاغية : كل زهر له رائحة .

(٢) بأرض النبات : أوله .

الإنسان ، إنما هي مرتبة من الأرض على قدر ما يتسع له فناء كبير في منزل
فخم ، يشقها ممشيان معروشان قد تعارضا على شكل صليب ، فقسماها
إلى أربعة أقسام سواء ، وفي هذه الأقسام وما ألحق بها قام دوح السرور ،
وبسق سرح الكافور ، وانتظمت على جوانب مماشيمها أشجار النارج ،
وانتشرت على معظم أرضها ألوان قليلة من النور الجميل والورد العطر ،
فساؤها - كما ترى - للشجر ، وأرضها للزهر ، وجوها للعطر ، وهي كلها
لنوع من الجاذبية يجعلها على بساطتها فتنة الفنان وجنة المفكر .

ليت شعري ، ما مصدر هذا السحر الذي يشع في عيني ، ويشيع في
نفسي كلما دخلت هذا المكان ؟ أهو ذاك البناء المتآكل الذي يقوم في
جنوبيه كأنه المعقل البالي أو الدبر المهجور ؟ أم هو ذلك المزيج العجيب
من جلال القدم في المكان ، وجمال الطبيعة في البستان ، وعظمة الحياة
الماثلة في النهر ؟

ليس للروح العسكري في هذا المكان الشعري مظهر ولا أثر ، فما
تعبده من الحشونة في الشكنات ، والعنف في الحركات ، والقسوة في
المنظرات والكلمات ، يحول هنا إلى ذوق فنان ، ورقة شاعر ، وهدوء
فيلسوف .

كادت هذه الخواطر الجريئة الملحة تذهلني عن حديقتي ، واليوم عيد
من أعياد الطبيعة ، برزت فيه عارية من الحلل ، غائبة عن الحلى . والخريف
في العراق هو الربيع احتترقت غلاله الوردية في لظى تموز ، فهو على تجرد
أرضه من الأنوار والأزهار ، وتحجب سمائه أحيانا بالغيوم وأحيانا بالغبار ،
جميل البسات ، عليل النسبات ، رفاف الأديم . فما نحن أولاء بين أعقاب
الخريف وطلائع الشتاء ، والشمس لا تزال في ثغر السماء ابتسامة حلوة ،
تضاحك النهر الحبيب ، فتزيده طلاقة ، وتداعب الزهر الكئيب ، فتكسبه

أناقة ، وتطالع الجو المفرور ، فتقبسه حرارة ، وتصارع برد الموت في أوراق النارج وأطراف التوت ، فتطيل بقاءها فترة أخرى من الزمن . وهذه الأيام السوامع مما زلن يأتين إلى أعالي الشجر ، ويرحن في الضوء ، وينعمن بالدفء ، ويهتفن بالأهازيج كأنهن في أمنة من حلال ينائر ، وهو منهن على ليال قلائل . وهذا دجلة السعيد يتنفس موجه بالنعم ، ويطفح غريته بالذهب ويقذف تياره بالغشاء والزبد ، بعد ما بخره القيط ففش حتى انكشف ضميره ، وانقطع خبره ، وكاد يزحف الشبوط والزورق فيه على القاع ، فالبواخر تصعد صافرات في سرعة ، والأطواف^(١) تتجدد صامتات في بطن ، والفقف تعبر موقرات في هواده وقوارب الصيادين وزوارق الملاحين تتعارض وتتهادي في عباب النهر كأنها الخواطر الحائرة في الفكر العميق ، والطيور الصائدة تحوم على وجه الماء بأجنحتها الشهب حومان الآمال على ستر الغيب الصفيق ، والبيجة^(٢) الملكية تطمن في صدور الموج بمنقارها الطويل العريض ، وهي تسمح آمنة في حبي البيت العتيق ، وأنفاس دجلة اللاهث من عبء القرون تتصاعد إلى حاملة أنين الأمواج وخفق الجاذيف وغماغم الكرخ ، فتختلط بتجاوب الأيام على الشجر ، وتناوح الرياح بين الغصون ، وحسرة الأوراق الداوية على الأرض ، فتتألف من هذه الأصوات الخافتة موسيقى روحية شجية ، تبعث رواقد الأحلام ، وتشير كوامن الآلام ، وتقطع بين النفس ووجودها الحاضر .

(١) الأطواف : جمع طوف وهو الرمث وجمعة أومات ، وهو ما يعرف بالكلك . والثقة : نوع من السفن العراقية الأثرية مدورة ومقمرة يرجع تاريخها إلى عهد الكلدان مطلقاً بالقار .

(٢) البيجة كانت تعيش في قصر الملك فيصل الذي يقابل النادى العسكري ويقع على النهر ، ثم اتخذ مجلساً للنواب والأعيان ، ومن قبل كانت مدرسة للصنائع في العهد العثماني ، وأصبح اليوم مقراً للأشغال العسكرية .

إيسه يا دجلة يا سجيل الأهم وراوية العصور ، لشدة ما فئيت في خربك
ضحكات ، وامتزجت بنميرك دموع ، وخفيت في ضميرك أسرار ! لقد
رأيتك بالأمس ضارعاً قد لصق خدك بالأرض حتى همّ بخوضك الخائن ،
وهمدت حيائك حتى أوشتك أن يسكن عرقها النابض ، ثم رأيتك اليوم
وقد غاثك الغيث ، فجاشت ينابيعك الثرة بالنماء والثراء والقوة ، ثم
أقبلت كدأبك منذ آلاف السنين مدوّي الدارات ، صخاب اللج ، تعرض
هذا النعيم ملجأ على بنيك ، فيعرضون عنه إعراض البطر ، ويؤثرون
على فيضك الميمون ودق المطر ، ثم يهينون كبرياءك يا أبا الحضارات ،
فيمجعلون مبلغ همك حمل الأرمات ونقل القفف ، فهل يعجبون إذا فار
غضبك فجرفت السدود وجاوزت الحدود وأصبتهم بالفرق ؟

ومن كتابه المفقود

فيصل الأول :

كان الملك فيصل الأول حركة دائبة ، ووطنية متوثبة ، ونشاطاً متواصلاً ، وسعيًا مدعوماً بالتفكير والتعقل ، وكان قلبه يحيش بالحياة ، ويعمر بالآمال ، وكانت نفسه تتطلع إلى معالي الأمور برغص عوائق الاستعمار ، وبوائق الانكيز .

جاء إلى العراق برغبة من أهله ، وبطلب من زعمائه ، وسعي من أصدقائه الانكليز الذين أرادوا أن يكفروا عن خيانتهم له ، وتنصلهم مما وقع من حلفائهم الفرنسيين ، وإخراجهم إياه من سوريا ، بعد أن أسس ملكاً كان معقد الرجاء وموضع الآمال العربية .

فاستقبل يوم مقدمه بالابتهاج والأفراح ، واحتفل بشخصه الوطنيون ، ومنا أحسب يوماً عرفت نفوس البغداديين كيوم وصول فيصل ، لأن العراقيين رأوا فيه معقد الآمال ، في تحقيق الاستقلال .

رأيت بعيني فرحة العراقيين وأنا منهم - وكنا طلاب دار المعلمين - نحف بسيارته ، والجاهير كتل متراصة كاللوج خلف سيارته وأمامها وعن يمينها وشمالها فلا تكاد تحبو متراً أو تقطع ذراعاً إلا بصعوبة .

والبشر يعلو الوجوه ، « والمجوسات » تدوي في الفضاء ، وزغاريد النساء تستقبله من شرفات المباني وأعالى السطوح .

ورأيت العراقيين يبكون فيصلاً ، ومواكب البغداديين تملاً الشوارع والطرق والساحات . يلطمون صدورهم على فيصل ، لأنهم فقدوه يوم تلاطمت الحن وتألّب على العراقي الخصوم^(١) ، ولأن بفقدته ضاعت آمال ، وتبددت جهود ، وخابت مساع ، وخيف على السفينة أن تتقاذفها الأمواج من كل مكان ، بعد أن فقدت ربانها القدير .

فكتب الزيات مقاله الأسبوعي في ١٠ أيلول سنة ١٩٣٣ بعد ثلاثة أيام من وفاة الملك فيصل ، فقد كانت وفاته في « برن » من الجمهورية السويسرية ليلة السابع من أيلول . قال الزيات من ذلك المقال :

« فلما نعاى البرق الى الآفاق ، فزع الناس إلى الشك ، يدفعون به هول الخطب ، ويرجم بعضهم بالظنون ، يملأون به بفتة الحادث ، وتعذر على العقل أن يفهم الموت مقروناً الى فيصل « صقر قریش » ، وقد كان الى أمس يقطع بعزمه الجسار أجواء الشرق والغرب حاملاً في عناءه العراق ، وفي يسراه سورية ، وفي قلبه « دولة العرب » ، ثم انجلى الشك وانجابت الظنون ، فإذا العراق ، وإذا سورية ، وإذا العرب أمام الفاجعة التي روتعت النفوس ، وضربت الأنفاس ، وقوضت حصون الرمل ...

لم يحزع العرب حين نعى الناعى اليهم فيصلاً على نفس كسائر النفوس تفوص في لجج العدم ، وإنما جزعوا هذا الجزع المالع على آمال أمة ،

(١) كان العراق قد خرج لنوه من قمع ثورة الآشوريين ، وكانت المحافل السياسية الغربية وضحايتها قد تألّبت على العراق ، وراحت تندد بنا ويحيشنا ، وترميننا بالمعجبية والتوحش ، وتتهمنا بالتعصب . وكان فيصل يشجب هذه المقتريات ، ويقند أقوال الصحافة . في هذا الطرف العصيب ، وقف القلب النابض ..

وجهود نهضة ، ومستقبل فكرة ، لأن ملك العراق كان مشاط هذه الآمال ، ومبعث هذه الجهود ، وعدة هذا المستقبل ...

ومن العجيب أن يكون مصدر هذا الجزع كثرة الزعماء الأكفاء ، لا قلتهم ، فإن هذه الكثرة كانت دائماً وبالأعلى وحدة العرب ، إذا لم يقم على رأسها زعيم يعتمد في قيادتها على سلطان الدين وشرف النسب ، وقد اجتمع للملك فيصل مع هاتين القوتين ، عقل كيس ، وخاق نبيل ، ونفس طموح ، وجاذبية قوية ، فلا جرم كان رجل الساعة لهذه الأمة الناهضة ، يجمع كلتها حول رأيه ، ويوحد وجهتها وراء خطاه .

وقال :

« عرفت جلالة ملك العراق ، أثناء مقامي ببغداد ، معرفة وثوق وخبرة ، وكانت حال البلاد في ذلك الحين محنة ابتليت بها كفاية الملك النابغ ، فالانتداب البريطاني كان قبل الملكية يعمل في العلن ، ويحمل التبعية ، فأصبح بعدها يعمل في السر ولا تبعه عليه . والحكومة العراقية كانت يومئذ بادية الهوى ممزقة الجوانب ، لا تستطيع بخروقتها أن تستر العرش ، فالملك بحكم الوضع كان يستر الانكليز ، ولكن الوزارة بحكم الضعف كانت تكشفه ، فكانت أوزار أولئك وأخطاء هؤلاء تحمل في رأي المعارضة والشعب على الملك ، وكانت الحاشية بعينها تنفض ظالمه على جدّ البلاط ووقاره شيئاً من العبث ، والشعب العراقي على اختلاف منازعه وعقائده وأجناسه ناقد متمرد طموح ، لا يصبر على نقص ، ولا يغفل عن خطأ .. فقدّر في نفسك كيف كان مصير الملك لو كان غير فيصل ^(١) .

(١) كان العراقيون يتهمون فيصل أنه يوالي الانكليز ، ويضاع في ركاياهم ، وينفذ سياستهم . وعبيد الانكليز يتهمون فيصل بأنه يوالي المعارضة ، ويدفعها للطغاة ، ويحرك الشعب عليهم ..

اضطلع الملك فيصل وحده بأعباء الملك والحكم والزعامة ، في هذه الحال المضطربة ، فكفكف بحكمته من شرّة الانتداب ، وخفف بخنكته من عسف الوزارة ، ولطف بجلسته من غضب الشعب ، وصرفت من شؤون الدولة على قدر ما يسلم الرأي الحصيف من خيث الاستشارة ، وضعف الوزارة ، ثم سهّل حجابيه لأمرء العشائر ورؤساء الطوائف وزعماء الأحزاب ، فاستل ما في صدورهم بالقول اللين والعتاب الهين والشخصية الجذابة ، حتى كان الرجل منهم يدخل قصره وهو عليه ، فلا يخرج منه إلا وهو له . ثم نظر إلى خارج العراق فرأى على حدوده دولاً يتنزى في صدورهما حقد الماضي ، وطمع الحاضر . فزار تركيا وفرنسا وإيران ، فأحال عداها صداقة ، وجفأها مودة . ثم اجتمع بملك الحجاز ، وأرشد إلى أمام اليمن ، فأحكم أواخيه المودة بينها وبينه . ثم هداه تفكيره العملي المرت أن يعالج الانتداب البريطاني بالمصانعة والمواعدة حتى انتهى به إلى نوع من الاستقلال يحفظ الكرامة ويعين على النهوض .

دخل الملك فيصل العراق دخول الإمام الحسين ، لا مال أمامه ولا جند خلفه ، ولكن الحسين جرى على سياسة عليّ فهلك ، وجرى فيصل على سياسة معاوية فهلك . ثم اعتمد في تأئيل ملكه وإنهاض شعبه على الإخلاص العامل ، والجد النزيه ، وتحامل في ذلك على دمه وعصبه وروحه ، حتى ذهب فيصل شهيد الواجب ، كما ذهب الحسين شهيد الحق .

كان الملك فيصل ملكاً من طراز خاص ، ولعله كان أقرب إلى خلفاء الصدر الأول منه إلى ملوك اليوم : كان ناضع الظرف ، جرم التواضع ، رحب الأناة ، طاهر المواعدة ، زاهداً في أهبة الملك ، عازفاً عن مظاهر السلطان ، فلا يخدج بتحية ، ولا يمشي في حرس ، ولا يتشدّد في حجاب .

وفي صباح أحد الأيام غدا على المدرسة المأمونية الابتدائية ، ففضي
ردحا من الزمن فيها ، ثم سجل اسمه في ثبت مدرسيها (١) .

« كان الملك فيصل في العراق ملك دولة ، ورئيس حكومة وزعيم
أمة . وهو في الاقطار العربية مؤسس نهضة ويمثل فكرة ، ورسول
وحدة ، وداعية سلام ، ومعقد أمل . فإذا هفت النفوس جزعاً لفقده ،
واستولى على العرب الوجوم والخيرة من بعده ، فإن في منطق الحوادث
وطبيعة الأمور ما يسوغ هذا الجزع ، ويعمل هذه الخيرة .

« وكان من أجمل مظاهر ديمقراطيته الأصلية ، أن تراه في
شارع الرشيد أو في طريق الصالحية ، يقود سيارته بيده ، ويشق
طريقه بنفسه ، دون ربيطة من خلفه ، ولا طليعة بين يديه ، فيسبقه أي
سابق ، ويلاحقه أي سائق ، وقد تبكر ذات صباح الى مدرستك ، أو
ديوانك ، فتراه في ذرور الشمس قد طلع عليك بوجهه المستنور ، وقده
السميري المشوق ، ورشاقته الرياضية البارة ، فيسلم عليك ، ويتحدث
اليك ، ثم يتعهد المكان ، ويعرف العمل ، ويودعك بإبتسامته الرقيقة ،
وملاحظته الدقيقة .

دعا مرة مؤتمر المعلمين العراقيين ، إلى الشاي في حديقة قصره ، فكان
يجلس الى كل منضدة من المناضد الكثيرة جلسة يفاكه أهلها بحلو
الحديث ، ويناقشهم في وجوه الاصلاح ، ثم خطبهم في شؤون التعليم
خطبة جامعة ، تقي في سياقها أن يكون معلماً مع المعلمين يؤدي إلى الأمة

(١) كانت تشغل مبنى مدرسة الاتحاد والترقي وقد ازيل بناؤها وأصبح ساحه لموقف
السيارات جنب مبنى ادارة اسالة الماء العامة .

هذا الواجب المقدس^(١) .

حكى الأستاذ الكبير ساطع الحصري أن وفد الأساتذة المصريين أخذهم العجب وأذهلتهم الدهشة لديقراطية الملك فيصل يوم دعاهم إلى مأدبة الإفطار ، وكان الوفد الجامعي يرأسه أحمد أمين وبصحبه السنهوري والعبادي ، وظلوا أياماً يتحدثون عن ظرفه وتواضعه ورحابته صدره وسعة اطلاعه ، ويقارنون بين ما عندهم في بلاط مصر من الحجاب الكثيف ، والتعالي على الخاصة بلبه العامة ، وكان قد شهد هذا الإفطار الأستاذ ساطع والزيات وبعض أدباء بغداد .

الزيات بصحبة الملك علي

كان الأستاذ الزيات كثير الاصدقاء ، له من وقته الموسع ، وتخففه من واجبات البيت والعائلة ما يفسح له المجال لهذه الزيارات التي يقوم بها في أماسي الأيام وضحوات الجمعة ، فتراه في الصابونية في زيارة الزهاوي ، وبصحبة الشاعر وبعبريته يفسدو إلى ندوة الجمعة في بيت الدفتري ، ويفشى جريدة البلاد يقضي بعض الوقت مع مديرها رفائيل بطي الصحفي الأديب ، ويזור ناذي المعلمين ويصحب الأستاذ مصطفى علي في زيارة الرصافي ، ويحضر في أصائل الأيام مجلس الملك علي بن الحسين الذي له دوق أدبي مرهف . فإذا عاد إلى غرفته في بيت تشفيو ، سجل صوراً من تلك اللقائات ، ورسم خطوطاً جلية من ملاحظتهم بقلمه الفنان ، فيعرض قسماهم بارزة ، ويصور صفاتهم واضحة ، من ذلك ما كتبه في الملك علي .

قال : -

« كان رضوان الله عليه - مثال الفطرة العربية النقية » يقبل علي

(١) كان ذلك بعد مؤتمر عام ، وكنت قد حضرت هذه المائدة السخية ، واستمعت إلى خطابه الارتجالي الذي أحب نفوس المعلمين وطنية ، وأشاع في نفوسهم الرضى عن حرفتهم .

زائره بأنسه ، ويمكن جلوسه من نفسه ، ويزيل الفوارق بين محدثه وبين شخصه ، حتى يصدر عنه الوارد عليه ، وفي ذهنه صورة من جلاله لا تحول ، وفي قلبه عاطفة من حبسه لا تزول ، وفي نفسه أثر من ذاته لا ينفو .

لا يلقي في روعك حين تلقاه طموح الزعيم ، ولا خفاء القائد ، ولا دهاء السياسي ، ولا سورة الملك ، وإنما تجد في خلأته قوحة المجد ، وتقرأ في ملاحظه عنوان الطيبة ، وتعرف في حديثه لهجة السيادة ، وتذكر في نبرات صوته ولحظات عينه ولفحات ذهنه ، ذلك الروح القوي الذي أنبث في موات الوجود من بني هاشم .

وقارن بينه وبين أخيه فيصل فأعطى كل واحد منها صورة صادقة . قال :

« حكم فيصل في شروق ملك عائد ، فكان عزيمة لا تسعها قدرة ، وفكرة لا يحصرها أفق ، وطموحاً لا تحده غاية . ولأن علياً حكم في غروب ملك بائد ، فكان أمراً لا يمضيه سلاح ، وأملاً لا ينهضه جناح وصلاً لا تواتيه فرصة . ثم كان مصير الرجلين مصير خلقين مختلفين ، خلق اتسع لحدود السياسة ، وشبه الحكم ، وأهواء النفوس . . . وخلق انحصر بين حدود الشرف الموروث ، وسنن الدين المتبع ، وتقاليد العرب المحتومة . وكان قصره القائم بالكرادة على الشاطئ الأمين من دجلة بلاطاً للجلالة الحائرة بين الحجاز والعراق وسورية ، تقضى بين أمهاته الأمور الجسام ، وتزف على أفنائه ، الآمال الباسمة ، ولكن حياة بفساد الدافقة بالنعيم الفارقة في اللذة ، لم تستطع أن تنسي الملك الحزين عرشه الضخوي في الوادي الجديد ، فكان لا يفتأ يحن إلى ملكه المنصوب حينئذ شرباً صامتاً يذيب السكلى ، ويستوقد الجوانح ، إلا أن أثره كان لا يبين تحت سعة الملك إلا لمن دخل في أمره ووقف على سره .

« كنت كثيراً ما أقضي أصائل الأيام في حضرته ، وكان مفتي^(١) بغداد يومئذ لا ينقطع عن مجلسه . وكان للملك - رحمه الله - عطف عليّ منشوء فيما أظن حبه للأدب ، وميله إلى مصر ، وأتته بالغريب . فهو يحب أن يناقني الحديث ، ولكن المفتي سألني الله رجل يرى من حقه أن يقول في كل شيء ، وأن يحجب عن كل شيء ، وهو لا ينطق إلا بببيت من الشعر أو أثر من الحديث أو آية من القرآن . أما ارتباط ما يقول بما يسمع ، فذلك ما كنا نعجز دائماً عن فهمه . كان الملك يبدأ الكلام ، فلا يكاد يمضي فيه حتى يقطعه المفتي بحكاية عرضية ، أو مسألة فقهية . فأرفع طرفي إلى الملك لملي أرى عزة الملك تشع في عينيه ، أو تنور في وجهه ، فلا أجده إلا باسمًا للمتكلم ، صاعياً كالعلم ، هادئاً كالشعاع الشاحب في شفق الخريف . على أنه كان يصحح ما يقمض الشيخ من الشعر ، وينتف من الأمثال ، ويتخذ ذلك مسادة للحديث ، وموضوعاً للمشاركة فيسفر قوله عن ذوق صاف وبصيرة نافذة . »

رستم حيدر :

وكتب في رستم حيدر ، الذي كان من أساطين الفكر ودهاقين السياسة في العراق ، ومن رجال الجهد والعمل . رافق قيصل الأول يوم تولى أمر العراق ، ودبر مآلته ، ووزر في الوزارات العراقية أغلبها .

(١) المفتي المقصود الشيخ يوسف المطا كبير فقهاء بغداد وخبر من كان يدرس المجلة في كلية الحقوق . أصابه في أيامه الأخيرة مرض عقل لسانه ، كان يجلس إلى الشيخ إبراهيم الرازي كل أمسية يقرأ له على ماء فيبيل به فقه ، فإذا صادق أن حضرت طلب إلي أن أقرأ له في كتاب أو مجلة أو ديوان شعر . وكان ديوان الرازي يذبح بالزائرين رحمهم الله ورحم أبائهم ، كانت مطعنة والناس فيها في بلهية من العيش الهني .

وكان يتصرف عن فكر ثاقب ، ويعمل بحزم دائب ، ولكن السياسة مع النفوذ الأجنبي غول ، ومع الشعب الناشئ خطر على صاحبها ، ومع الحاشية الطامعة صاحبها يقف على قدم البركان . فراح رسم ضحية الجهل والطمع والتعصب . وصفه الزيات بحذر ، وعرض جملة خبره بإقتضاب ، فقال :

« رحم الله رستم حيدر » لقد كان وحيدة فصلا في تاريخ العراق الحديث ، وإذا كان في بعض حواشي الملوك رجال اللهو والزهو ، وآخرون للتجسس والتمويه ، فإن رستم حيدر كان في حاشية الملك فيصل رجل الجد والعمل . ولم أرَ في المهاجرين إلى بغداد مع صقر قريش أعلم ولا أفهم من رستم حيدر وساطع الحصري . وقد أبلى الرجلان في اذكاء النهضة العراقية البلاء الحسن ، هذا في ميدان الثقافة ، وذلك في ميدان السياسة . وكان بينهما مشابه من جهات كثيرة ، فكلاهما مستقل الفكر له في كل مسألة رأي ، وعلى كل رأي اعتراض ، وكلاهما متقن للعمل ينقضي أطرافه ، ويستتبطن دخائله ، وكلاهما صلب الرأي ، يعييك أن يتابعك على ما تريد . وإذا كان بين الرجلين اختلاف ، فهو الاختلاف الطبيعي بين رجل السياسة الذي يتأثر بالأحوال والرجال والحوادث ، وبين رجل العلم الذي لا يستخدم غير المنطق ، ولا يتوخى غير الحقيقة .

كان المرجوم رستم حيدر ، ظاهر الوقار ، دائم الانقباض ، كثير الصمت ، خافض الصوت ، هادئ الحركة ، ولكن هدوءه كمهوى الماء العميق ، تضطرب في جوانبه الأفكار والأسرار ، وهو ساكن السطح بارد الأديم .

وكان منسأ اشتغاله بشؤون العراق مستشار المغفور له الملك فيصل

في سياسته الداخلية والخارجية ، لبصره بعلوم السياسة والمال ، وعلمه بدخائل الأمور ومخارج الحيل . فكانت أعمال العاهل العظيم تجد مصاديقها غالباً في أقوال المستشار اليقظ .

كانت من سياسة رستم الاعتماد بعد « التاميز » على الفرات قبل دجلة ، لأن الفرات شيعي المذهب ، على ضفافه الحصينة تنزل القبائل البدوية القوية ، وفي تقويته بالشيعية حيطة من نجد ومودة لإيران . وكان يشيح بوجهه عن مصر لأن هواما في ثورة الحسين على الترك كان مع الخلافة ، ولأن اشتغال طلبتها بالسياسة كان في رأيه مرضاً مخطرأ لا ينبغي أن تسري عدواه إلى العراق . ولعلمه السياسي العراقي الوحيد الذي يهتم بأحوال مصر ولا يتصل برجال مصر . وكان من رأيه توسيع التعليم الأولي والمهني ، وتضييق التعليم الثانوي ، وحصر التعليم العالي في مدرسة لتخريج الموظفين ورجال الإدارة ، خشاة أن يكثُر المتعلمون المتعطلون فيكونوا مصدراً للشغب والإضراب والقوضى . وفي ذلك العهد الذي أرجع بذاكرتي اليه أغلقت المدارس العالية جمعاء ، إلا مدرسة الطب . وكان من أشد المعارضين لهذه السياسة التعليمية الأستاذ ساطع الحصري ، لأنه كان يحاول أن ينشئ الثقافة العامة على قواعد العلم الخالص ، دون أن يحفل بأحوال الطوائف وأغراض السياسة ، ولذلك نحني حينئذ عن سياسة المعارف .

وكان من خطة المرحوم رستم أن تظل الأراضي الزراعية ملكاً للحكومة ، لتضمن بمنح اللزمة ، ومنعها طاعة القبائل وتأديب المصاة . ومتى تحضرت العشائر ، وتوحد القانون ، وعمت المدنية الاجتماعية ، أمكن أن توزع ملكية الأرض على نظام عادل .

لقد كان رستم حيدر عنيداً في رأيه ، صليباً في خطته .

والعناد والصلابة صفتان لا تحسنان فيمن يتولى أمر العراق .

دخلت عليه ذات يوم من عام ١٩٣٢ وهو وزير مالية ، أسأله أن يرده علي صديقي حسن السهيل أمير بني تميم ما أخذته الحكومة من أراضيهم الملتزمة ، وهو يبلغ خمسة عشر ألف فدان ، فأجلسني إلى جانبه من يسار المكتب الذي 'سفلك' عليه دمه من أيام ، ثم أخذ يقنعني بالحجج والشواهد أن الحكومة محقة وأن الشيخ مبطل ، ثم عزا المصادرة إلى أمور تتعلق كلها بسلامة العشيرة ، وإقامة العدل ، ولم ير نفسه في حاجة إلى ذكر السبب الأول ، وهو أن سيد تميم عضو قوي في حزب المعارضة . فأدهشتني جرأة الوزير ، وأعجبتني لباقته ، وعجبت كيف يصر علي مناوأة الشيخ ، وفي سبيل خمسة عشر ألف فدان تخشى الخصومة ، ولكنه نجا من مناوأة الأمير ، لأن الأمير طالب بمجد ، ولم ينج من مناوأة الموظف ، لأن الموظف طالب قوت .

قلت لنفسي :

بهذا العنوان كتب الزيات عن رئيس من رؤوس العراق (أحسبه طه الهاشمي) يحدث نفسه عن أمر الناس في عصرنا ، ويعجب من أثرهم وأنانيتهم ، وأنهم أصبحوا لا يكاد أحدهم يعطف على آخر إلا للطمع في ماله ، أو الخوف من سلطانه ، أو الرغبة في نفوذه . أما تعاطف الجنس للجنس ، وتواحم الرحم للقرابة ، وابتهاج النفس لعمل الخير ، واهتزازها بأنس الصديق ، فقد أصبحت من الصفات الأثرية . والحقيقة أن الناس هم الناس من عهد آدم إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لا تبدل لخلق الله . المصلحة هي التي تحركهم ، والرغبة والرغبة هما اللتان تسيطران على تصرفات الانسان ، إلا في ما ندر ، ولا حكم على النادر .

والشكوى من بني آدم قديمة : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك
الدماء ؟) الناس مع الزمان ، يقبلون متى أقبل على أحدهم ، ويدبرون
متى أدبر عنه . جاء في مقالته :

« كان ذلك والزمان كـتـيـبٍ يجري وراء سيده ، ما دام الرغبة
في يده ، أما اليوم فالزمان حر مفكر لا يتبع إلا المبدأ ولا يطيع
إلا الضمير .

ولكن الواقع وا أسفاه علمنا أن الزمان لا يزال كـتـيـباً ، وأن
المال لا يزال ربا ، وأن حكمة الأولين لا تزال صادقة .

لي صديق من رؤوس العراق المرفوعة بالفضل والتبيل والكفاية ، كان
وهو في سلطان السيف وعزة القلم مرجع الرأي والهوى والحاجة ، فلما
نكبت في نفسه وأهله السياسة العشواء الجموح ، تجرد كالسيف ، وتفرد
كالأسد ، وأصبح فإذا الوجوه أقباء ، والأنصار أعداء ، والأحياء في
دنياه موتى ، فلا رأس ينحني ، ولا لسان يحكي ، ولا يد تصافح .
وظل وحده ، يعالج مرارة الحزن والحerman والغربة ، حتى صحا الدهر
من غفوته ، ونفض الحظ من كبوته ، فعاد إلى الوزارة ، وعاد الناس
إلى الزيارة ، وقال الوجه العبوس وقال الوجه الذي عيس وأشاح ،
واللسان الذي ذم ونم : والله يا مولانا لا يعدل حزننا لغيبتك إلا
فرحنا بأوبتك ، ثم انعكست الصفات في الصحف ، فصارت الخيانة
أمانة ، والبلادة زكانة ، والعقوبة شهادة »

الملك غازي :

وكتب في مقتل الملك غازي كلمته الافتتاحية الأسبوعية لمجلة
الرسالة وهي تشف عن ألم صادق ، ومواساة محزون ، لما كان ينطوي

عليه قلبه من الحب للعراق ولكل من يحب العراق . وغازي كان محبوب العراق ، وهو بعد هذا وذاك في فوران الصبا وزهرة العمر ، ربي تربية وطنية ، ونشئة تنشئة بغدادية ، وهذب تهذيباً إسلامياً عربياً ، وأشرب قلبه بغض الاستعمار . لذلك كان مهوى قلوب العراقيين ، ومعقد رجاء العرب . كان طموحه هو الذي أوردته موارد الحثف ، وإذاعته الخاصة التي ينفثها بنفسه هي التي أدخلت حبه إلى كل بيت . فحين نعام الناعبي إلى الشعب العراقي كانت الفجعية وكأنها قد حلت في قلب كل أم وأب ، وكأن الفقيده أحد أفرادها ، وقامت المظاهرات في كل ربوع العراق ، يندبون - غازي - ويكون الصديق الذي بيت اغتياله بليل ، وهاجم المتظاهرون دوائر الاستعمار ، واتهموا الانكليز وعملاءه بتدبير مقتله ، ولم يصدقوا أنه مات قضاء وقدرأ باصطدام سيارته بعمود البرق ، وأختفى العبد الذي كان خلقه ، ولم يعثر له على خبر ، واتهموا عبد الآله بالمؤامرة .

قال الزيات :

« عرفت خليفة فيصل وهو ولي عهده ، ولم أنل شرف لقائه وهو ملك ، لأنني تركت العراق وأبوه لا يزال على عرش الرشيد ، يدبر الأمر بذلك ، علي » ودهاء معاوية . وكانت جلساتنا الليلية في حديقة البلاط المزهرة المقمرة ، حيناً في حضرة الملك وحيناً في حضرة خاله ، تكشف لي قليلاً قليلاً عن مصائر هذه النفس الرغبية الطبيعة التي نبتت في هجير مكة ، وأزهرت في ظلال بغداد ، فكنت لا أنفك منها أمام طبيعتين : طبيعة تتأثر بحاشيته فتسامح وتسامر وتمرح ، وطبيعة تتأثر بأبيه فتصعب وتسمو وتطمح ، ولكن المقرر في الازهان كان أن الشبل سينتهي بالضرورة إلى طبيعة الأسد مهما يؤثر فيه طبع الناس ويفل منه قفصر الحديقة .

قلّ في الشباب من كان كفازي في سماحة نفسه ، وسماحة خلقه ،
ونبل شعوره ، وسمو تواضعه ، وظرف شمائله . وتلك هي الصفات
الهاشمية التي تفتقل في بني الحسين بالإرث ، وتقوى إذا ساعدتها القدوة ،
وساقتها البيئة . ولكن ما ورثه هو عن أبيه - صقر قريش - من أجناح
الرفث ، والبصر النفاذ ، واللب الحصيف ، كان يتيقظ رويداً رويداً
مع الزمن والخبرة . فلم يكن بعد قد وثقت آرائه للاضطلاع بالعبء
الفادح الذي ألقي على ظهره فجأة . والعبء الذي كان يحمله فيصل من
أمور العراق ، هو العبء الذي قسمه الدستور على سلطات الدولة الثلاث ،
فجميعه هو على عاتقه . من أجل ذلك لم يضع غازي يده من سياسة
العراق العليا موضع يد أبيه للتعديل والموازنة ، وإنما تركها في أيدي
الزعماء تجري سفينتها على مشيئة الريح ، تضطرب حين تثور ، وتستقر
حين تسكن .

من أجل ذلك امتحن الله الفراتين بالقبوة الغشوم ، فبحكم الجيش ،
واستبد الطيش^(١) ، واضطرب العيش ، وسطت الأيدي المجرمة على عباقرة
الأمة . ومن أجل ذلك لا نتوقع لسياسة العراق بعد غازي ما توقعه لها
الناس بعد فيصل . والغالب في الظن أنها ستجري في عهد فيصل الثاني

(١) يشير الزيات إلى انقلاب بكر صدي ، وما أعقبه من مقتل جعفر العسكري وزير
الدفاع الذي كان يسمى أبا الجيش وله مكانة في جميع الأوساط العراقية والأجنبية . لما يتمتع به
من وطنية ، وطنية وإنسانية ، ومحبّة لعمل الخير ، ولو أنه بقي في بيته أو في مقر الدفاع لما
أصابه مكروه ، وربما استوزر في وزارة حكمة سليمان لما يربط بينه وبين بكر صدي من وئام
وصلات . ولما كان بينه وبين حكمة من صداقة ، ولكن قضاء الشغل ... وأراد بمعايرة الأمة
- بين الهاشمي ورشيد عالي وتوروي السعيد - وطه الهاشمي وأمثالهم . وما أعقب ذلك من
الاعتداءات والاعتبالات . وأشدّها خطراً هو زج الجيش في السياسة لأول مرة . فواحت البلاد
تتخبط من منيء إلى أسوأ ، وتسابق المغامرون والطامعون باسم الشعب ، والشعب على أيديهم يشقى
ويلقى الدواهي عقب كل انقلاب .

كما كانت تجري في عهد فيصل الأول .

إن مصرع غازي على هذه الصورة الأليمة ، فاجعة تدمني العيون ، وترمض الجوانح . وإن العالم العربي كله يشاطر العراق الحزين أساه على سيد شبابه ومناط أمه ، ولكن الدواهي النشكر صدمات تهر الشعور ، وتوقظ الفطنة . فتنبه على قدر ما تذهل ، وتوجه على أثر ما تضل . والشعب العراقي من الشعوب الكريمة الحرة التي تصقلها الخطوب ، وتعلمها الأحداث ، فتقف بفطرتها السليمة أمام الخطر هوى واحداً ، ورأياً جليماً ، وعزيمة صادقة ، وسيرى الذين يتحيلون ويتقولون أن ارادته الصارمة الحازمة ستثبت لدواعي الشقاق وتواجههم البقي ، وستثبت أن عصر فيصل الثاني سيكون عصره الذهبي^(١) ، فيشتد بؤسائه ، ويمتد سلطانة ، ويتسع عمرانه ، وتهب من جوف الهلال الحبيب عبقریات غفت في أحضان الخلود ، ولكنها لم تمت .

(١) لم يشهد العراق دوراً مضطرباً كدور فيصل وهو طفل غير مسؤول ، ولما التبعة تلقى على وصيه عبد الآله وزوابع الزارات المتعاقبة ، والتطاحن الحزبي وسوء الادارة . ساس البلاد رجل حقود لئيم قائم ، هو الوصي وزلي العهد ، فصرف أمور البلاد وفق شهواته وتزواته ، وجر العراق الى مصائب وانتفاضات وانقسامات ، وانقسم الساسة القدامى الذين عملوا مع فيصل الأول وغازي ، وراح يكيد بعضهم بعضاً ، وتحزب الناس ، واشتدت الطائفية ، وتقسمت الى عناصر ، بل والى مدن ، واضطرب الشعب ، ونسوا الاستعمار وكيدهم والصمودية واستفحال أمرها ، وابتعد العراق بسبب هذه السياسة عن ثقافته ، بل راح يحاهر مصر ورئيسها العدل ، ويفري الاستعمار به بدلاً من مد يد العون له ، وهو الرائد القائد الذي حرر مصر من الامبريالية وأمم القناة . وعاش العراق سائحاً مثبهماً يتطلع الى ثورة عارمة تبديل أوضاعه وتقلب مفاهيم أولئك الساسة . ويتخلص العراق من عبد الآله وزمرته ، فكانت ذلك صبيحة الرابع عشر من تموز ، فقوبلت بالأفراح ، وابتهج الشعب بالقادة المحررين ، وأمل أن تكون حداً فاصلاً للمآسى والأحزان ، وفاتحة خير لمعوم الشعب . ولكن وأسفاه فقد رافقها الانحراف من ختام الشهرين الأولين لحياتها ، وشهدت انقسامات ومصائب واعتقالات ومظالم رففتنا سوداً راح الناس يترخون معها على الماضي ، وما زال الحال . ندعو الله أن يولي أختيارنا ، فإذا دعاؤنا يره علينا فيسأط أشرارنا وصدق من قال : « كيفنا فكونوا يول عليكم » .

شباب العراق في مصر :

تحت هذا العنوان كتب الزيات حين زار وفد كلية الحقوق مصر في ٣ مارس ١٩٣٦ جاء فيه :

« قبل لأولئك الذين زعموا أن مصر ثبتت على العروبة ، فقطعت الأسباب الموصولة ، وأبيست الأرحام الندية : تعالوا فانظروا كيف بشتت بالعراق بشاشة الألفة ، ورفقت لبنية رفيف القرابة ، وأشبكت عليهم إشبال الأمومة ، قل لهم : تعالوا واسألوا شباب الفراتين : هل كانوا على ضفاف النيل في أرض غير أرضهم ، وبين قوم غير قومهم ، وفي بيئة غير بيئتهم ؟ » .

لقد كان أقبالهم على محطة القاهرة كأقبال الربيع ، واستقبالهم فيها كاستقبالهم العافية . نزلوا من القطار على أكتاف البهايل من شباب النيل ، وحلوا في قلوب الميامين من رجسال الوادي ، وتلاقت العواطف الطامنة على وردي الإخاء والمودة . ودخل الطلاب العراقيون في غمار الألوف المتهملة ، فتجاذبت السماء ، وتمازجت القلوب ، وتقاطعت الذكريات ، وتجاوبت الأماني ، وترجمت اللغة ، ثم كانوا طوال الأسبوع المنصرم ، غبطة القاهرة ، وبهجة الأندية ، وحديث الصعف ..

وقال :

« أزيلوا قائم الحدود ، وجددوا دارس الطريق ، تتلاق الوجوه ، وتتعارف الأخوة . واعملوا ما يعمل في العراق رسول الوحدة (يسن^(١)) » .

(١) يسن الهانمي : كان رئيس الوزارة العراقية يوم زار الوفد الحقوقي مصر ، وكان من أبرز زعماء العراق صدقاً وكفاية .

وفي مصر أمثال الوزير محمد علي^(١) والزعيم « طلعت حرب » ، أزيلوا الحدود تجددوا الاتحاد العربي جارفاً كدعوة « محمد » ، سريعاً كفتوح أمية ، خصيباً كحضارة العباس . هذه هي مصر الصحيحة يا شباب الراقيين ، لا يزال دينها دينكم ، ولغتها لغتكم ، وهواها هواكم . إنها لم ترك ولم تروها لأنها في جوف الحوت ، وهما انكم تسمعون حشرجتها الأليمة في خلقه ، وستجيش بين معدته وأضراسه جيشان السم الزعاف حتى يلفظها حية سليمة « كيونس » .. حينئذ تتجه « ابنة الشمس » إلى مطلع الشمس ، وهناك يكون مجد العرب اليوم كما كان مجدهم بالأمس ..

« لقد كانت زيارة الطلاب العراقيين فرصة ميمونة لتوثيق الصلات التاريخية المقدسة .. صافحونا بالأيدي ، وخاطبونا بالألسن ، وسمعونا بالأذان ، وزالت الفوارق العارضة ، وانجابت الحجب الكشيفة ، واستبان للناس أن الخيال جان على الحقيقة ، وأن السماع كاذب على العيان ، وأن الوحدة المستحيلة أمر من الواقع » .

وقال :

« إن تاريخ الجدود لينبجس فواراً حاراً في صحون المساجد الجامعة . هل تذكرون ثورة بغداد في جامع الحيدرخانة ؟ وهل رأيتم غضبة دمشق في الجامع الأموي ؟ هل سمعتم صرخة القدس في الجامع الأقصى ؟ هل علمتم وثبة القاهرة في الجامع الأزهر ؟ إن لذلك معنى عجيبيلاً لا يندب عن خاطر ، ولا يلتوي على ذهن . ذلك أن المنارة التي يذكر عليها اسم الله لا تزال هي المكان الذي يرتفع فيه صوت الحرية ، وأن الحراب الذي يقوم فيه الدين لا يزال هو الركن الذي يأوي إليه الحق ، وأن

(١) محمد علي : يريد به محمد علي عاتبة باشا الذي يعد من أوائل الوزراء العاملين لتجميع كلمة الأمة العربية .

الاسلام الذي ألفت شتيت البدو في الاول هو النظام الذي يجمع شمل العرب في الآخر .

نعي الزهاوي :

« نعي البرق شاعر العراق الزهاوي ، والمصريون والعراقيون في حفلة اتحاد الجامعة ، فكان وقع المصاب في نفوس الفريقين واحداً لا يختلف ، وقام كبير الادباء « طه حسين » فأبّن كبير الشعراء بكلمة تلقاها الإخوان بماطفة وشعور مشترك ؛ لان الزهاوي كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة فتتردد اصداؤها الموقظة في ربوات بردى وخنائل النيل وسواحل المغرب . وأدب الزهاوي وأمثاله هو الذي وصل القلوب العربية في مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة ، ولولاها لما تهيأ للعراق هذه الزورة . وهذه الزورة وأمثالها تتعارف وتتألف وتتحد . فتعالوا يا أخلاف المجد العتيق ، وأسلاف المجد الوليد ، تتعاون على دفع الأذى عن العزة المهانة ، تعالوا نقر في سمع الزمان أن أمة الرسالة تريد أن تؤدي الأمانة . »

هكذا كانت مقالات الزيات تعبر عن إيمانه بالعروبة ، وتعرب عن عقيدته في الوحدة وضرورة التمسك بها ، من أجل تحرير أرض العروبة من يد الفاصب الدخيل . وظل قلم الزيات يواصل الكتابة عن أحداث العراق كلما عراها حادث ، أو حلّ بها مصاب . كتب في حادثة الملك غازي كما رأينا ، وفي الزهاوي والرصافي ، وأبنتها أجمل إثنين ، أولاً جملة المحرف بها قلمه وهو يكتب كلمته في الرصافي ، أسخطت أصدقاء الرصافي على أساس « اذكروا محاسن موتاكم » ولا أحسبه يريد إسخط أحد أو يريد أن يبخس الرصافي منزلته أو يحط من قدره ، وهو الذي يقول فيه :

« كان الرصافي لسان العراق الصادق ينقل عن شعوره ، ويترجم عن
أمانيه ، ويحدد ركبته المجاهد في سبيل استقلاله وعزته بالحداء الحامشي
المطرب ، ويصور خلجات نفسه ووساوس أحلامه بالشعر الصريح المعجب .
وظل هو والزهاوي ، وشوقي وحافظ ومطران ، حقة من الدهر يؤلفون
الآوار الحسة لقيثارة الشعر العربي ، ولكل وتر درجته في الرنين
والجهره والأثر » .

أغاخان والرصافي :

وكتب مقارنة بين الرصافي الشاعر العظيم يوت على فراش البؤس
والفاقة وأغاخان الذي يزنه أتباعه المؤمنون كل عام بالماس ثارة ،
وبالذهب أخرى . . قال :

« في الاسبوع الذي كان الرصافي ، شاعر العربية ، يعالج فيه آلام
المرض ، ويكابد غصص الموت على فراش القلق ، في المضجع الموحش ،
وكل ما يملكه في حياته الطويلة العريضة ، أسنانه البدوية ، وأشعاره
المخطوطة ، في ذلك الاسبوع نفسه كان أغاخان زعيم الاسماعيليه يقعد
في كفة الميزان المأثور المشهور ، وبأزائه في الكفة الاولى مئة كيل من
سبائك الذهب المصفى ، هي مثقال الزعيم العظيم في هذا العام . خرج
له أتباعه في الهند ، وفي غير الهند ، ونفوسهم راضية ، وقلوبهم مطمئنة .
إي والله مئة كيل من الابريز الخالص ، هي ضريبة العقيدة ، يقدمها
المؤمنون المحبتون كل سنة الى أميرهم المقدس ، ورقابهم من الجلالة خواضع ،
وعيونهم من المهابة نواكس ، فيتعطف صاحب السمو بأخذها ، ليظهرهم
بها ، ويزكيهم لأجلها ...

وكان الرصافي كذلك أتباع يؤمنون بأدبه ، ويتصلون في الحياة



شاعر العرب الأكبر
المرحوم معروف الرصافي

الروحية بسببه ، فما بالهم تركوه يكتب في وصيته الأخيرة هذه الفقرة التي تستدر الشؤون ، وترمض الجوانح ؟

والفقرة التي أشار اليها الزيات هي : (كل ما كتبت من نظم ونثر لم أجعل هدفي منه منفعتي الشخصية ، وإنما قصدت به خدمة المجتمع الذي عشت فيه والقوم الذين أنا بينهم ، لذلك لم أوفق إلى شيء في حياتي يسمى بالرفاهية والسعادة في الحياة . لا أملك سوى فرائي الذي أنام فيه ونياي التي ألبسها وكل ما عدا ذلك من الآثا الذي في مسكني ليس لي بل هو مال أهله الذين يساكنوني) .

وقال : --

« لو شاء الرصافي أن يهادن السلطان ، ويمالئ الحكومة ، وينافق الشعب ، لعاش في أرغد العيش ، وبلغ أرقى المناصب ، ولكنه آثر الحرية على الرق ، واستحب الضراحة على الرياء ، فذهب شهيد كرامته وعفته » .

(١) كثير كلام المثأدين وكرره الصحافة العربية عن البؤس الذي كان يعانيه الرصافي ولا سوا في أيامه الأخيرة . وراحوا يلومون الحكومة ، ويمنفون في النقد والتثريب ، لا مبالها الشاعر الذي اغنى حياته في سبيل العروبة والعراق . والسياسة يد طويلة في إشاعة هذه الانتقادات واختلاق جو التشويه . .

والحقيقة : أن الموارد التي كانت تتدفق على بيت الرصافي تكفي عائلة كبيرة ، ولكنها تقع في يد خادمه عبد صالح ، فيبيدها ويحتجتها لنفسه ، كان له تقاعد بسيط يساري ٤٠ ديناراً ، وخصص له الحسن العربي الكبير مظهر الشاوي . : ديناراً يرسلها إليه كل شهر مدى حياته ، وزودته مديرية الخصار التبغ بإجازة تدبر على من يحسن تصرفها مع ما يخصص معها من الورق والسكر نحواً من مئة دينار على أقل تقدير . وكان محمود السنوي ومراد سليمان واخوه حكمة سامان يتمددونه بالحليب واللبن والرز ، والحكومة تخصه من حين لآخر بالمساعدات .

وقال واصفاً حياة الرصافي :

« قلت لصاحبي - الأستاذ مصطفى علي - ذات ليلة من ليالي في بغداد : أريد أن أزور الرصافي ، فقد زارني مراراً ولم أزره ، فقال : أتشجع على أن تدخل حي البغايا ؟ فقلت له : وما صلة هذا بذلك ؟ قال : إنه يسكن بينهن ، وقد تزوره واحدة أو أكثر منهن . فقلت له : هلتم ، فما يسع زواره من العذر يسعنا . ودخلنا البيت ، فإذا هو بيت الشاعر الأعزب المتلاف ، لا أثاث ولا نظام ، ولا حرمة . وكلمة الشاعر هنا بدل الأديب تدلك على أن ليس بالمنزل مكتب ولا مكتبة ، فقد كان الرجل لا يقرأ ، وإنما يتكلم على شدة ذكائه ، وحدة فهمه ، ويكتفي بما حصل في شبابه من أدبه وعلمه .

كان في الردهة قوم يأكلون ويشربون ، وفي حجرة النوم آخرون يسمرون ويلعبون ، وكان الرصافي يتصدر هؤلاء : في يمساه كأس وفي يمساه ورق . فلما رأيته ، فضّل اللعب ، وأقبل بأنسه عليّ ، ثم أخذ يشرب ، ويتحدث باللغة العازية عن الحقائق العازية ، في غير اكتراث ولا تحفظ . ويظلم الرصافي من يقيد عليه في مثل هذه الحال . ولكن نداماه يروون شعوه ، أو يذيعون حديثه ، فيبلغ صاحب الملك فيغضب ، أو صاحب الحكم فيعجب ، أو صاحب الدين فيصخب ، أو صاحب الخلق فيثور . كل أولئك يعادون الرصافي ، ولكنهم يهابونه لشخصيته ، ويحترمونه لعبقريته ، ويتربصون به سوء المصير .

هذه صورة مصغرة لحياة الفقيه الكريم . أما عقيدته ، فالأمر فيها لله ، لا للناس . وأما شاعريته ، فالحكم عليها للناقد ، لا للمؤرخ ...

واستطرد قائلاً :

« مستقول إن الزعيم اغا خان كذلك صريح حر .. وإن صراحته

السافرة وحريته الطليقة لم تبغيها عليه في قومه ، ولم تجر الى الكلام في صلاته وصومه .. والجواب : أن اتباع الزعيم الديني يصورونه في نفوسهم بصورة العقيدة التي يدينون بها ، ويجعلون هيكله المادي رمزاً لهذه الصورة ، ولهذا الرمز ظاهر يراه الأوزاع ، وباطن يستأثر بعلمه الاتباع . فهم يقولون ما يبصرون من زيفه ، ويقولون ما يسمعون من باطله ، ويسلمون على عمله المريب ، ما يسبله الصوفيون من القداسة على الطبل والدخ ، والناي والصنج . هذه الآلات في أيديهم غيرها في أيدي القيان والمجان : وهي في نظر الناس لا تختلف في شيء عنها . قل لمنها الجهالة ، أو السذاجة ، أو البلاهة ، فلن يقدح ما تقول في الحقيقة ، ولن يغير من الواقع .

أما اتباع الزعيم الأدبي ، فانهم يتخذون صورته من قبه وروحه ، فليصورته في كل ذهن شكل مختلف ، وفي كل قلب أثر خاص (١) .

وطبيعة هذه الصورة أو تلك الصور ، مشتقة من طبيعة الفن ، تنضج نارة وتختفي حيناً وتلوح حيناً ، على حسب استعداد النفوس لتقبل الجمال الفني حالاً على حال ووقناً بعد وقت ، لذلك كانت عقيدة هؤلاء الاتباع في زعمهم كالمرض المنفك تزول ثم تؤول ، فإذا زالت نسوه كما ينسون السرور والحزن واللذة . وإذا آلت سمعوه ، كما يسمعون البلبل على فنن الدوحية ، يطربون لشده ، ويعجبون بريشه ، ثم لا يعنيه بعد ذلك أن يجد الحب والعش ، أم يجد الفخ والقفص ؟ وكذلك

(١) سألت الصديق الكريم مصطفى علي عن زيارة الزيات الرصافي ، فقال : وعدني أنت بلقائي في نادي المعلمين . وكان يطل على شارع الرشيد قرب سوق الصفايين ، فصحبته الى دار الرصافي في (كوك نظر) . وكان الرصافي على علم من زيارتنا له ، فرحب بالزيات ورائس بزيارته ، واشركنا في امره .

شأن أصحاب السلطان ، وأرباب الحكم مع رجال الأدب الذين يقتبسون من عقولهم النور إذا أظلمت الخطوب ، ويستمدون من نفوسهم اللهب إذا خمدت العزائم ، حتى إذا استوثق لهم الأمر ، وتنازعوا الغار ، وتقاسموا الفيء ، وأنكروا ما بذل الأدباء وقالوا بلمجة الساخر البطرة وماذا صنع هؤلاء ؟ لقد قالوا وإن الكلام طبيع ، وكتبوا وإن المداة رخيص ، ذلك أن أكثر عشاق الأدب مفاليك لا يملكون لأربابه إلا الدعاء في الحياة ، وإلا الرثاء في الموت . وإذا كان لدى بعضهم فضل من القوت ، لم يجد في نفسه من سلطان العقيدة ما يحمله على المواساة به . ذلك هو الفرق بين العقيدة الأدبية والعقيدة الدينية . فالعقيدة الأدبية سلمية لا تتجاوز الإعجاب بالكلام والإنفاق من الكلام ، فإذا وجدت من يبذل في سبيلها المال ، كان ذلك قطعاً للسان الهاسجي ، أو شراءً للضمير المادح ، أو تزييفاً لصور الحق . وليس في مثل هذا البذل كسب للأدب أو دفع للأديب .

حظك يا معروف هو حظ الأديب منذ كان في الناس أدباء وفي الأرض أدب . يموت أمثالك شرقاً بالبؤس ، كما يموت أمثال أغاخان غرباً في النعمة ، فلو أن ربك حقق لك ما كان يرجوه شيخك (الالوسي) من رسوخ قدمك في الدين ، وغلو منزلتك في التصوف . إذن خلقتك في الزعامة الدينية ، وبلغت في « طريقك » ما بلغ أغاخان في الدنيا ، وتلت من صوفيتك ما تال معروف الكرخي في الآخرة ..

رسالة :

وهذه الرسالة جاءته من آتسة عراقية مفتونة بالأدب ، مشوقة لما يكتبه الزيات . وأرسلت مع الرسالة صورتها ، وكتبت إليه معذرة

للفاتحتها اياه بالكتابة والإهداء من غير تعارف سابق ، وفي ذلك خروج
على العرف لصدوره من فتاة . قال :

« يحلو لي أن أهرب أحيانا من زمني الحاضر لإثقاله ، أو إملاله ،
فأرجع إلى ذكرياتي أجتر منها ما ألد ، أو إلى مذكراتي أقرأ منها
ما أحب .

وفي هذه الساعة التي أكتب فيها للرسالة شعرت بضيق في الصدر
والفكر ، فألقيت بالقلم ، وقلت لنفسي : دعي الكتابة اليوم ، وتعالى
تتفرج من هذا الهم برجعة إلى دنيا الماضي ، فلعل في أصدائها الباقية
ما يؤنس هذه الوحشة . وتذكرت أن شهر يناير « كانون الثاني » قد
عودني الجميل فيما مضى من عمري ، فقد سجلت فيه أكثر ضحكات
القلب ، وحسبي منها ميلاد ولدائي : « رجاء » والرسالة .

فتحت مذكراتي عن صفحات هذا الشهر ، فوجدتني قد كتبت في
يومه العاشر من عام ١٩٥٠ هذه السطور :

« ألقى البريد الجوي إليّ في صباح هذا اليوم غلافاً من العراق ،
على ورقه طابع الذوق ، وعلى خطه سمة الظرف ، فلما فضضته وجدت
فيها رسالة وصورة . قرأت الرسالة والامضاء ، ثم تأملت الصورة
والإهداء ، فاذا هما لأنسة من أولانس^(١) بتعداد المثقفات قد أولعت

(١) هي مليحة اسعيق : فتاة يهودية معجبة بجمالها وشبابها وحبور عينيها وقامتها القارعة والمعتلا
جسمها الفض . هويت الابد قراحت تتعرف على الادباء وتبادئهم بإهداء صورتها وتدعوهم
الى بيتها إن رأيت منهم استجابة . وهي مليحة كاسجها ، خفيفة الروح ، جذابة ، حارة
الحديث .

بالادب ، وأغرمت بأهله . ثم عدت أقرأ ، وعدت أنأمل ، وطال تردد
البصر والفؤاد بين الصورة وهي رسالة الجسم الجميل ، وبين الرسالة وهي
صورة الروح النبيل ، حتى غاب حسي في سكرة من سكرات
الاحلام .

ترأت لي في خلالها أطياف من تعاجيب الهوى والشباب ، تتراقص
نشوى في أزقة « الوزيرية » و « رأس القرية » من مغاني بغداد العزيزة .
ولما عاد الحس أو كاد نظرت إلى الفهم الخلو الذي يريد أن يتنسم ،
 وإلى الطرف الاحور الذي بهم بأن يقول ، وإلى الشعر المغدودن الفاحم
الذي يسيل على الاذنين ، وأطراف الخدين ، فيجعل الوجه كله صورة من
الفتنة ، فتعود إلي الغفوة ، وأعود انا إلى الحلم ، وأخيراً تخلصت
قليلًا من سحر الصورة لارى صاحبها الادبية تقول أول ما تقول :
« أعتذر اليك من الكتابة والإهداء على غير تعارف » ، ولم يخل اعتذارها
الصريح من احتجاج ضمني على العرف الذي يفرق في مثل هذا الصنيع
بين الرجل والمرأة ، فلو أنها كانت فتى كما تقول لما وجدت في الكتابة
إلى مثلي ما يعتذر منه . ثم تحدثت طويلاً عن صلتها بالرسالة وحرصها
على أن تقرأ كل ما أكتب ، وخصت بالذكر رثائي للشاعر المرحوم علي
محمود طه ، وخرجت من ذلك إلى الكلام عن شاعريته وعبقريته .
ثم طلبت إلي آخر الامر أن أخصص لتأبينه عدداً من الرسالة أكتب
أكثره . كل أولئك في اسلوب رقيق يوحى أكثر مما يعبر ،
ويتمتع أكثر مما يقنع . ولم أكـد أستوعب الرسالة بفكري ،
وأناقش موضوعها في سري ، حتى تنسألت القلم وفتحت « الالبوم »
وأجبت عن الرسالة برسالة ، ورددت على الصورة بصورة ، ولكن
هيهات وأسفاه ! لن تحجب رسالة عقل عن رسالة قلب ، ولن ترد صورة
قبيحة على صورة « مليحة » !

ما أيسر السعادة على ابن آدم لو يدري أو لو يريد ؟ إن كلمة
من قلب مفتوح ، أو نسمة من شفة بريئة ، أو نظرة من عين حبيبة ،
أو فقرة من رسالة شاعرة ، أو نسمة من صورة فاتنة ، تستطيع أن
أن تنير ما أظلم قلبه ، وأن تفرج ما اشتد من كربه .

إن السعادة فتات وفترات ، فلا تكون في واحد صحيح ، ولا تدوم
في زمن متصل .



موقف الزيات من مقتل حسن سيف

في نهاية السنة الدراسية ١٩٣٨ وقعت حادثة مروعة كان لها صداها المؤلم في العراق وفي مصر ، هي مقتل الأستاذ حسن سيف أبي السعود المدرس في كلية الحقوق ، فقد أطلق عليه أحد الطلاب الرصاص صبيحة يوم الاثنين ٢٠ / ٦ / ١٩٣٨ في مبنى كلية الحقوق وأصيب عميد الكلية الدكتور محمود عزمي برصاصة في كتفه . واستغل الحادث أعداء الأمة العربية ، وراحوا يروجون دعاياتهم المغرضة . وجعل قصدهم تضيق أشرى الاخوة والتعاون بين القطرين الشقيقين ، وقد تجلّى تعاونهم بالعديد من الاساتذة المصريين للمعاهد والكلليات العراقية ، وكان الحوادث مجرداً عن أي عامل سياسي ، وانها نتيجة تصرف شخصي من طالب خائب فاشل ، حدا به جنونه أن يودي بحياته وحياة أستاذ فاضل مخلص في أداء واجبه ، حريص على أمانة العلم والمعلم . . فساء الأستاذ الزيات جموح بعض الاقلام في تعليقاتها على صفحات الجرائد والمجلات ، فكتب رد على تلك الاقلام ، ويدفع قالة السوء يوم ٤ تموز سنة ١٩٣٨ :

« بين مصر والعراق »

« تجري أحكام القدر على أسباب خافية من حكمة الله ، لا يؤثر

في منطقها مقتضيات السياسة ولا مناسبات الظروف ولا مجاملات الصداقة ، ولو كان لهوى النفوس ومشينة العقول أثر في تدبير الأحداث ، وتغيير الأفضية ، لما اختل في ذلك الوقت هذا الطالب العراقي المسكين فأراق على ثرى دار الحقوق البغدادية نفس الدكتور سيف ودم الدكتور عزمي . وهما يجاهدان غربيين في سبيل العلم ، يؤديان مخلصين للعراق فروض المودة . وأقول : « في ذلك الوقت » لأن وقوع هذا القدر المروع في هذه الساعة التي تمنع فيها أواخي المصاهرة بين مصر وإيران ، أفاح لبعض النفوس الجاهلة المريضة أن توازن بين ما يفعل إخوان النسب ، وبين ما يفعل إخوان العقيدة .

ومثل هذا الحادث المشؤوم يقع في كل قوم وفي كل يوم ، فلا تضطرم له القلوب . ولا تضطرب به الألسنة ، ولا تهن منه العلائق . ولكن وقوعه ظمأ على الغريب النافع من القريب المنتفع أعطاه معنى التضحية ، وجعل له تأثير الشهادة . وابن الوطن إذا قُتل في وطنه كانت مصابه مصاب أسرته ، وإذا قُتل في وطن غيره كان مصابه مصاب أمته .

أضف إلى هذه الملابس شائعات مكذوبة ، وتعليقات مشوية ، استطار بها السماع فدلست على ألسن الناس وجوه الحكيم ، وآذت أصدقاء العرب وعارفيه ، فهبوا يصححون الخطأ في المجالس ، ويعلمون الصواب في الصحف ، رعاية لأسباب الاخاء ، وإدامة لتعاون الفكر ، وضماً بأخلاق هذا الشعب النبيل على الأفواه القارضة .

شهد الله أني قضيت بالعراق ثلاثة أعوام ، لم تنلني فيها كلمة تؤذي ، ولا فعلة سوء . إنما كنت أتعلم في بغداد كما يتعلم الطفل على أحناء الصدر الحنون : لا أحسن عربية ، ولا أستشعر وحشة ، ولا أجد في العيون ولا على الشفاه إلا العطف علي والإعجاب بعصر .

وربما وجد المصري في غير مصر تناكراً بين وجهه ووجهه ، وتدابيراً بين عاطفة وعاطفة ، إلا في العراق فإنه يجد وجهه في الوجوه ، وهواء في الأهواء ، ويحس أن الأدب الذي درس ، والتاريخ الذي قرأ ، يتمثلان لباصرته وذاكرته ، في كل شخص وفي كل شيء ، ويرى أن هؤلاء الناس 'خلقوا كما خلق من النهر ذى الغريتين الحبيب ، وعاشوا كما عاش على الأرض ذات الطلع والحب ، لا يختلفون عنه في سحنة ولا خلق . والعراقيون من جهتهم يؤيدون حسبانته ووجدانه بالطلعة الأنيسة والمرودة الجزلة ، والكرم المحض .

كانت مصر إذا ذكرها في المجلس ذاكرة ، بزعت اليها قلوب القوم ، كما تنزع الأسرة إلى عصبتها النازحين إلى بلاد الذهب والأدب والجمال .

وكان للمصريين في بغداد ، على قلوبهم ، منزلة ملحوظة بين الجاليات الأخرى ، لا تحوم حولها شبهة الارتفاق ولا سبة التشرد ، لأن العراقي ، وإن كان ضئيلاً بخبره على الأجنبي الواعل ، يعرف عن المصري ما يعرفه كل الناس ، من عزوفه عن النقلة من قرية إلى قرية .. فكيف بالرحلة من وطن إلى وطن ؟ وهذا الذي رأيته بعيني لا أزال أسمع بأذني من الاساتذة المصريين الذين لا يزالون يسفرون بين الشعبين الشقيقين بالثقافة والمودة . فالأحاديث التي تندس اليوم إلى الأندية اندساس الفتنة لا ترجع إلى حق ، ولا تذهب إلى منفعة .

وهذا الحادث على قضايته ، ظاهرة من ظواهر المجتمع ، يحدث في الأمم المتقدمة كما يحدث في الشعوب الهمجية ، ويقع من القريب على القريب كما يقع من المواطن على المواطن ، وحقد النفس على النفس من طبائع الإنسان ، وضلال العقل ووهن الأعصاب من آفات الحي ، وما يستطيع غير الله أن يعلم خوافي الصدور وخوائن الأعين . فماذا كانت

تعمل حكومة العراق لتدرك ذلك العدوان الفردي المحتوم ، وقد تهافت أسبابه خفية في نفس مضطربة ، وأعصاب موهونة وبأس مضل ؟ ان الذين قالوا كان وعيداً كتب ، وتهديداً قبل ، لم يثبتوا بأن الصديق الحليل ، عزمي قد عاليج بهذا الوعيد أو أخبراً الحكومة بهذا التهديد ، واذن لا يبقى الا نزع الشهاب الذي لا طيب له ، وقدر الله الذي لا حيلة فيه .

إن العلاقة بين مصر والعراق طبيعية ، لم يفتعلها طمع الاقتصاد ولا طموح السياسة ، إنما هي علاقة الدم واللغة والأدب والتاريخ والمجس والعقيدة ، فإذا طاشت يد هناك أو هفا لسان هنا ، فلا ينبغي أن يقع ذلك من البلدين الأخوين الا موقع العبث الضروري الذي لا تكون الحياة الدنيا حياة الا لوقوعه فيها ، ولا يكون الانسان بشراً الا لوقوعه منه . هذه كلمة كنا نود ألا نقولها ، فإن الحاجة الى تقرير الود بين الصديقين مظنة لوقوع الشك فيه ، ولكن قعائد البيوت وأحلاس المقاهي لا يحبون أن يزجوا فراغهم الثقيل الا بزخرفة الاحاديث على حساب الحق ، فلم يكن لنا ولهم من هذه الهمة يد . وقد انبرى كاتب احب العراق والعراق احبه ، هو الأديب صاحب النثر الفني الدكتور زكي مبارك ، فقد كتب فصولاً مسبهة دافع فيها عن العراق ، وكان من شهوده . انظر كتاب الامتاز عبد الرزاق الهلالي (زكي مبارك في العراق) .

نضج التفكير القومي :

قدمت نماذج واضحة من نضج الوعي القومي بفضل الكتاب العرب ودعاة القومية ، وأن هذا الوعي وإن بدا مختلفاً في بعض الاقطار العربية ، ونحوه في بعضها الآخر إلا أن الحزات العنيفة التي تقع في قطر

من أقطارها تثبت ان التائل والتاسك ، واهتزاز وشائج القربى ، هو الادراك الحقيقي للامة العربية وانه هو القدر المشترك الجسد للشعور القومي والوعي التنامي . وان الحكم على شعب لمن يحلو له ان يحكم - بتصريح أديب أو هفوة زعيم من أبناء ذلك الشعب ، بأن الشعب كله يتنكر لأمته ولعرويته بما سبق من هفوات بعض الافراد ، ذلك حكم لا يمثل حقيقة ، وإنما الحقيقة الناصمة هي أن الامة العربية ما فتئت ، منذ مطلع العشرينات من هذا القرن ، تتقارب وتتفاهم وتتناصر وتتوحد برغم القيود المشددة ، والحدود المفككة ، والاحزاب المتخالفة . تراها في أقطارها تتجاوب وتتناصر وتتعاون وتتنادى لدعاء الحرية والاستقلال . في مصر ثورة على الاحتلال ، وفي العراق ثورة على الاستعمار ، ونرى ثورات في سورية وفلسطين وفي المغرب العربي . كل ذلك يثبت للدراس المنصف أن الوعي القومي ينمو وينضج وينتشر حتى عمّ الأقطار العربية مشرقها ومغربها . وهل أدل على نضج هذا الوعي من تلكم المشاركات الجماعية والانففاضات الشعبية كلما حدث حدث لقطر من أقطارها؟ فتري أبناء الأقطار الأخرى تتجاوب ، وتمتزج فرحاً إن نال ذلك القطر انتصاراً على الاستعمار ، وتأسى حزناً ان حلت بأهله نكبة ، فتسارع للمساهمة مادياً وروحياً . وهل نسينا صدى حروب الخطابي وانتصاراته في المغرب وأفراحنا لها ، وأسانا يوم نفقي (سعد) وصحبته الى جزيرة سيشل ؟ ألا يذكر الناس أفراح الامة العربية يوم جلا الاستعمار عن سورية ولبنان ، فاهتزت أقطار العروبة من المحيط الى الخليج ابتهاجاً وغبطة . وتعزيزاً لذلك أثبت مقالة الدكتور طه حسين الذي أشاع عنه البعض آراء كانت سبباً لإشاعة ققولات واتهامات تعدت الافراد الى الشعب كله فراحوا بحسن نية ويسوء نية يرمون الشعب المصري بالفرعونية .

رأى الدكتور طه حسين عن عروبة مصر

أشاع بعض الطلاب في أوائل الثلاثينات رأياً الدكتور طه حسين في عروبة مصر ، وأذاعوا في الصحف ان الدكتور يقول : إن مصر فرعونية ، وإنها تنسكركم للقومية العربية . أجرى هذا الحديث طلبة عراقيون وشاميون التقوا بالدكتور ، على ظهر الباخرة « شاميليون » وهم في طريقهم الى باريس ، ونشره الكزبري في صحافة الشام ، وتناولت صحافة لبنان والعراق وسوريا الحديث منكراً على الدكتور هذا الزعم ، وراحت تدلل على عروبة مصر . وشاع هذا الرأي وتناقلته الجرائد ، وتداولته اللسان ، وصدقه أناس ، ونفاه آخرون . وقد يصح أن يقال إن مصر يحوز لها ان تشاغل عن القضايا العربية بقضاياها الخاصة ، ويصح أو يحوز أن يقال إن الوعي القومي العربي كان ضعيفاً في نفوس ساستها يومذاك ، لان كفاحهم متركز على مقاومة الاستعمار او منصب في المنافسات الحزبية ، وقد طغى كفاحهم للاستعمار على كل تفكير ، وجعلهم يشغلون عن قضايا غيرهم ، فظهروا بمظهر الاقليمية . ومن هنا جاء عتب أبناء العروبة .

فاستغلت الدعايات المقرضة التي دبرتها الصهيونية ، وروجها عملاء الاستعمار ، وأخذوا يعمقون القالة القائلة بفرعونية مصر ، وينشرون حولها الاحاديث ، ويقابلون الزعماء المصريين وأعمالهم الوطنية بالشبهات ، ويرمونهم بالنسكركم للعروبة .

ولا شك أن فكرة القومية والعمل لها في مصر ظلت خافتة ومبهمة في نفوس الكثيرة النكاثرة من الساسة المصريين في مطلع العشرينات من هذا القرن ، فلا عجب أن صدرت بعض الاقوال والآراء المرتجلة من

بعض الادباء والساسة . ولكن هذا الوعي قد تبدل بفضل اللغزات والزيارات بين الاساتذة المصريين وبين اخوانهم من أبناء العروبة من عراقيين وسوريين ، ورأوا بأعينهم ولمسوا بأنفسهم ما كان يمكنهم من عموهم من الحب والاحترام والتقدير لمصر والمصريين ، وانهم ينزحوا منزلة الرأس من الجسد ومنزلة الاخ الاكبر .

فكتب الدكتور طه حسين مقالاً بعنوان :

— بين العروبة والفرعونية — قال فيه :

« الشعب المصري يتكلم اللغة العربية منذ قرون طوال ، ويعيش على الحضارة العربية وعلى التراث العربي منذ قرون طوال أيضاً .. ويشارك في إحياء التراث العربي وتقدميته ، شأنه في ذلك شأن الشعوب العربية في اقطار الارض على اختلافها ، من الخليج الى المحيط كما يقال اليوم . وليس من شك في ان حظ الشعب المصري في إحياء الحضارة العربية والتراث العربي ومن ترقية اللغة العربية أكثر وأوفر وأغزر من حظوظ الشعوب العربية الأخرى ، ولا سيما في هذا العصر الحديث ، بل في عصور أخرى قديمة كانت الشعوب العربية فيها معرضة لضغط أجنبي يأتيها من الشرق حيناً ويأتيها من الغرب حيناً آخر . وكانت مصر وأهلها أقل البلاد العربية والشعوب العربية تأثراً بهذا الضغط الأجنبي . وليس من السهل أن ينكر مؤرخو الآداب فضل مصر في حماية هذا التراث على اختلاف ألوانه . بهذه الكتب الضخمة التي ألفها علماء مصر أثناء العصر الأيوبي وعصر المماليك حتى في العصر العثماني حين أطبق الظلام على أكثر الشعوب العربية ، وفرض عليها الجهل قرضاً ، وقطعت الصلة بين الاقطار العربية نفسها . حتى في هذا العصر الذي هو أسوأ العصور في التاريخ الإسلامي ، كان الأزهر الشريف مصباحاً يضيء للعالم الإسلامي

طريقه ، ويحفظ عليه تراثه العربي والاسلامي .

كذلك كان الشعب المصري منذ ازدهرت الحضارة الإسلامية حفيظاً على هذه الحضارة ، منيعاً لها ، مضيفاً إليها ما كان يستطيع أن يضيفه بفضل جهوده الخصبه .

ثم يجادل المجادلون في أن الشعب المصري عربي ، ويزعّم الزاعمون أن المصريين يتأثرون بالتاريخ القديم أيام الفراعنة أشد مما يتأثرون بالتاريخ العربي . والغريب أن الناس جميعاً يعلمون أن مصر كانت تحمل التاريخ الفرعوني القديم ، ولا تعرف منه إلا ما كان مسطوراً في كتب التاريخ العربية من هذه الأخبار التي تروي من العصور الانسانية القديمة في غير تحقيق ولا تمحيص ، ولم تعرف مصر تاريخها الفرعوني إلا في هذا العصر حين استكشفت بعض الآثار الفرعونية ، وحين قرئت الكتابة المصرية القديمة . وكل هذا لم يكن إلا في القرن الماضي . فكان حظ مصر إذن من العلم بتاريخ الفراعنة كحظ غيرها من البلاد العربية الى أواسط القرن التاسع عشر . وكانت أثناء العصور الإسلامية للعروبة وللحضارة العربية والتراث العربي واللغة العربية .

أضف إلى ذلك أن القرن الماضي لم يشهد البدء في معرفة التاريخ الفرعوني وحده ، وإنما شهد البدء في معرفة التاريخ اليوناني في مصر والتاريخ الروماني في مصر أيضاً . ومصر ، كغيرها من البلاد الحية المتحضرة ، لا تستطيع أن تترك علماء الغرب يستكشفون ما كانت في أرضها من الآثار ، ويستخرجون من هذه الآثار تاريخ الوطن المصري في عصوره المختلفة قبل الاسلام دون أن يشارك في البحث عن هذه الآثار . وفي استخراج التاريخ منها ، بل في استخراج قروع الحضارة التي عاشت

في أرضها قروناً تعد بالعشرات ، بل ان استكشاف هذه الآثار يفرض عليها أن تحميها وتجدد في فهمها واستنباط العلم منها ، لأن مصر بطبيعتها مضطرة الى المشاركة في كل ما ينفع الناس من العلم والفن والأدب وسائر ألوان المعرفة على اختلافها .

فهل كان الذين يسمون المصريين بهذه التهمة الضعيفة ، تهمة الفرعونية ، والاعراق فيها ، والاعراض عن العروبة ، لا لشيء الا لأن مصر تجددت في حماية ما يستكشف في أرضها من الآثار وفي استخراج ما تدل عليه هذه الآثار من فنون المعرفة كأنهم يريدون أن تعتمد مصر الجاهل بها في أرضها من كنوز ، وتحلى بين علماء الأمم المختلفة وبين هذه الكنوز يستكشفونها وينقلونها الى بلادهم ، ويستنبطون منها العلم ، ويدرسونه في جامعاتهم ، ويلأون بها مناحفهم ، وتظل هي غافلة لا تسمع ولا ترى ، جاهلة والناس من حولها يلأون صدورهم بالعلم وينشرون من حولهم في بلادهم وفي غير بلادهم ؟ أم هل كانوا يريدون أن تمنع مصر من البحث في هذه الآثار ، وتحظر استنباط العلم منها ، وتفرض على الانسانية وعلى نفسها الجاهل بتاريخ أرضها وبالخصارات التي قامت فيها ؟

من أجل هذا لا أعرف أبلغ من السخف ولا أدنى الى هذيان الحمومين من هذا الكلام الذي تردده السنة الفتنة النابغة في سورية من أن مصر فرعونية حريصة على فرعونيتها ، معرضة عن العروبة متكررة لها .

ومن يدري ؟ لعل هؤلاء السخفاء كانوا يريدون من مصر أن تدمر كل ما يستكشف في أرضها من الآثار الفرعونية واليونانية والرومانية ، لتثبت عروبته وتثبت حرصها على هذه العروبة ومشاركتها في إحياء التراث العربي وترقية اللغة العربية والأدب العربي وسائر ضروب العلم

التي عرفها العرب ، ونشروها في أقطار الأرض ، وأتاحوا لغيرهم من الأمم أن تنهض وتتحضر وتتفوق في الحضارة ، إذا كان هؤلاء الناس يؤثرون الجهل لأنهم خلقوا محبين للعلم مؤثرين للمشاركة في كل ما ينفع الناس ، ولأن وطنهم قد امتاز بحفظ الحضارة الانسانية وحمايتها منذ العصور القديمة .

حفظ حضارة اليونان التي تعيش الانسانية عليها الى الان ، وحفظ الحضارة العربية الاسلامية التي شاركت في إنهاض أوروبا وحياتها ، وسيظل هذا الوطن كذلك وإن رغمت انوف ، سيظل هذا الوطن الذي نشأت فيه حضارة الانسانية الأولى ، وانتشرت منه ، وملاأت الارض من حوله نوراً ، وسيظل هذا الوطن الذي حفظ الحضارة اليونانية وأتاح للباحثين والعلماء منهم كنوزاً لا تقدر ، وسيظل هذا الوطن الذي حفظ الحضارة العربية والتراث العربي ، وأتاح للعرب ولغير العرب أن ينتفعوا بهذا التراث وتلك الحضارة .

فلتردد ألسنة الفئة الباغية ما شاءت من هذا السخف وأمثاله ، فهي لن تضر مصر ولن تضر المصريين في شيء ، وهي لن تمس عروبة المصريين قليلاً أو كثيراً ، ولن تستطيع أن تنزع المصريين فضلهم في إحياء الحضارة العربية والتراث العربي ، باذلة في ذلك من الجهد والوقت والمال مما لم يبذله شعب آخر . ولتطمئن هذه الفئة الباغية فلن يتحول المصريون عن عروبتهم ، ولن يقصروا في حماية العروبة وفي إحياء التراث العربي ونشره ، لينتفع منه القريب والبعيد ، ولينتفع منه العربي وغير العربي . لأن مصر لا تستطيع أن تغير طبيعتها ، وأن مصر هي ، على رغم الجاحدين والمعادين ، الأرض التي أثمرت فيها الحضارة العربية والتراث العربي ، كما لم يثمر في غيرها من البلاد العربية ، ولا سيما هذا العصر الحديث . وأن تاريخ مصر قد فرض عليها واجباً تراه مقدساً ،

وتأبى أن تقصر فيه مهما تكن الظروف ، وهو أن تتعلم ما استطاعت
الى التعلم سبيلاً ، وتنتشر العلم من حولها ما وجدت الى ذلك سبيلاً ،
ولا عليها أن تجحد فضلها في ذلك قلة قليلة من أعداء العروبة ومن أعداء
الشعب السوري ، فئة لا هي في الغير ولا هي في النفي^(١) .

من الجحود ، إي والله من الجحود ، أن نرمي مصر بالفرعونية لثروات
بعض الكتاب من أمثال سلامة موسى ولويس عوض وأضرابهما . وهي
دعوة روجها الاستعمار وبعض من يطلع في ركابة من المأجورين وتكرار
هذه النعمة من بعض كتاب العرب في سوريا أو العراق انسياقاً مع
دعوة أعداء العروبة الذين يعملون لتمزيق وحدة العرب الفكرية والسياسية .
وأرض الكنانة كانت ولا تزال تنزل أبناء العروبة هنزلاً رجباً ، كانت
أيام الاستبداد العثماني مهبطاً للمجاهدين من أبناء العروبة من أمثال
الكواكي وآل العظم والشدياق وآل الرافعي وزيدان ومحمد كرد علي
ومحمد رشيد رضا والكاظمي . وكانت مؤثلاً للمجاهدين من أحرار العرب
من الخليج الى المحيط في حروبهم التحريرية من الاستعمار ، يلقون فيها
البذل والعون والعطاء بسخاء وتنزلهم منزلة كريمة ، مثل الثعالبي والخطابي
والبشير الابراهمي وأبو رقيبة والبرزاز والسماعرائي والدرة والصفواني ،
وغيرهم كثيرون . تغدق عليهم بكرمها وتنزلهم منزلاً كريماً ولا تن على
أحد . ورأينا مبادرتها لنصرة الجزائر وتونس وليبيا ولبنان وسوريا
والعراق واليمن ، كما رأينا نصرتها للاقطار العربية (شرقاً وغرباً) ،
وهي تتحمل اليوم العبء الأكبر في كفاحنا مع الصهيونية والاستعمار .

(١) انظر كتاب كلمات الدكتور طه حسين من ص ٢٦ - ٣١ منشورات دار

الملايين ١٩٦٧ .

وهذه جامعاتها تفتح أبوابها لأبناء العروبة من مختلف شعوبها وأقطارها ،
ولا تقف بوجه طالب قصدها حتى ولو تجاوز الوافدون العدد المحدود ،
وقد تتجاوز بذلك نصوص القوانين المبطنة على أبنائها المصريين .
والنمضة الحديثة في شق أقطار العروبة مدينة لمصر ولأسانذتها الذين
يعملون مخلصين في حقل التعليم الجامعي والثانوي ، فهل بعد كل هذه
التضحيات التي تقدمها مصر للعروبة مجال لتقولات المعارضين من أعداء
الأمة العربية ؟ وهل يصدق تخرصاتهم عربي في نفسه بقية من أنصاف ؟

الدكتور زكي مبارك يدافع عن العراق

على أثر ما أشاعه المغرضون ، ورددته السنة السوء ، وبعيد منا
ديكتته أقلام الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ، كتب الدكتور زكي مبارك
في ١٩٣٨/٦/٢٩ مقالاً بعنوان « فاجعة بغداد » نشرته جريدة الأهرام ،
وأثبتته في كتابه « من وحي بغداد » ، ومما جاء فيه :

« أما بعد ! فقد تكون لهذه الفاجعة عقابيل ، ولكن واجبي نحو
وطني أن أعلن جهره ، أن هذه الفاجعة لا يجب أن تفسد ما بين مصر
والعراق عن الصلات الثقافية ، فالطالب الجاني كان مريضاً ، وقد ضعفت
أعصابه تحت تأثير المرض والقيظ ، فجنى ما جنى غير مسؤول ، ثم قتل
نفسه بعد ذلك ... »

أشهد صادقاً أن مصر لها في قلوب أهل العراق أجل مكان .

وأشهد صادقاً أنني لم أر من أهل العراق غير الجميل ...

وأشهد صادقاً أن حكومة العراق وجمهور أهل بغداد عزونا في هذه
الفاجعة أجل عزاء .

وأشهد صادقاً أن العراقيين إخوان أعزاء ، لا يضمرون لنا غير
الحب والعطف والوداد .

وقال : « ما لقيني إنسان بعد هذه الفاجعة في بغداد إلا قال : ما عسى أن يقول فينا المصريون ؟ فكنت أجيب : لن يقول المصريون فيكم شيئاً يا أهل العراق ، فتلك أقدار قضت بما قضت ، ولا يشور على الأقدار إلا غافل أو غبول .

أيها العراقيون : إن همومكم من همومنا ، وأجزائكم من أجزائنا ، وقد شاء الله أن يجمع بيننا وبينكم رباط من الحزن والدمع وهو رباط وثيق ، وقد تفردت مصر بأن يكون لها في أرضكم شهيد ، فارعوا هذا العهد ، فهو أصدق العهود . .

أيها العراقيون : ثقوا تمام الثقة بأننا نحبكم ، ونعطف عليكم ، ونتمنى لكم الخير والعافية . ثقوا بأن مصر يسرها ويرضيها أن يقال إنها اتصلت بكم بسبب الدماء .

أيها العراقيون : هل تذكرون قول شاعركم المتنبي :

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً

فأفعاله اللاتي سررن ألوف

إن ذكرتم هذا البيت ، فنحن نذكر أنكم إن كنتم أسأتم إلى أحد فقد أحسنتم إلى ألوف ، وما أسأتم إلى أحد منا ، وإنما أساء شاب مسكين بكينا عليه حين رأينا أهله يصرخون ويولولون ، إن من الجريمة أن تنسب هذه الجريمة إلى أهل العراق ، هي جريمة فردية يسأل عنها جانيها المسكين الذي قتل نفسه بلا ترفق ، هي سحابة صيف ، تسبقها الصحو والصفاء .

أيها العراقيون : لقد ساءني أن تزعج صحافتكم وأنديتكم على سمعتكم القومية ، فاسمحوا لي بأن أعذر عنكم وأن أصرح بأن الله حكمة في

مستور الغيب .

وقانا الله وإياكم شر الفتن ، وهدانا جميعاً إلى سواء السبيل^(١) .
والدكتور زكي مبارك مواقف متعددة تنضج بالقومية ، وتلهج بأواصر
القربى ، وقف بالمرصاد لكل من كانت تسول له نفسه ببذر بذور الفتنة
بين مصر والعراق ، فكتب مقالاً بعنوان :

« مكانة مصر في العراق »

« ليت قومي يعلمون كيف يحبهم أهل العراق ؟
ليت قومي يعلمون كيف يفرح أهل العراق لفرحهم ، وكيف يحزنون
لحزنهم ؟

ليت قومي يعلمون كيف يسير أبناؤهم في بغداد والحلة والموصل
وكركوك والنجف و كربلاء والبصرة وما إلى هؤلاء من حواضر العراق ؟
ليت قومي يعلمون كيف تسود مجلاتهم ومؤلفاتهم وأناشيدهم في
مضارب العشائر ، وكيف تكون أغانيهم راح السامعين على شواطئ
دجلة والفرات ؟

إن العراقيين يحبوننا أصدق الحب ، قليتمزفوا جيداً أننا نحبهم ، ونتمنى
لهم كل خير ، وننظر إلى بلادهم نظرة الأخوة الصادقة التي لا تضمر غير
العطف والصدق .

وسنذكر مصر أن العراق رآها أهلاً للحل الأمانة العلية ، فحكمتها من
غرس أصول الثقافة الحديثة في رحاب دجلة والفرات . .
وسنذكر العراق أن مصر كانت عند ظنه الجميل ، فلم ير من أبنائها
غير الصدق والاخلاص ، ويرحم الله من قال^(٢) :

(١) كتاب الخلاي : زكي مبارك في العراق ص ٢٠٧ - ٢١٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٣ - ٢١٤ .

أذكرونا مثل ذكرنا لكم ربّ ذكرى قربت من نوحاً
واذكروا صبأ إذا غشي بكم شرب الدمع وعاف القدحا ..

وكتب الدكتور زكي تقريراً إلى وزير المعارف ، وكان يومئذ المؤرخ
الأديب الدكتور محمد حسين هيكل مؤلف « حياة محمد » وكتاب في « منزل
الوحي » وشفع تقريره بهذه الرسالة :

« أيها الأستاذ الجليل ،

سترى في هذا التقرير صفحات تشرح الحوادث التي كانت سبباً في
وقوع فاجعة بغداد ، فاقراً تلك الصفحات - غير مأمور - لترى أن
ما وقع لم يكن أثراً لعداوة موجهة إلى الأمة المصرية ، وإنما هو نتيجة
تصرفات أوقعت فيها المقادير بعض الناس لنعرف ما في أنفسنا من
الصلاحية للاستبسال في خدمة المقاصد العالية بمعاهد الشرق .

وكان في نيتي أن أطوي تلك الصفحات من هذا التقرير ، ولكن
دعاني إلى اثباتها ما عرفت من أن بعض المفسدين يريدون أن يجعلوا
تلك الفاجعة نهاية الصلات الودية بين مصر والعراق ..

وأرجو أن تعرفوا أنني لم أنلطف في سرد تلك الأسباب ، ولم أضف
إليها شيئاً ي عليه الفرض في مراعاة مصر أو التعامل على العراق ، وإنما
وقفت موقف الرجل الأمين الذي يقدر المسؤولية أمام الله وأمام التاريخ .
وعند قراءة الفصول الخاصة بتلك الفاجعة ، سترون أن الله قدر ولطف ،
فلم تكن تلك الحوادث إلا سحابة صيف ، وقد تقشعت بفضل الله
الكبير المتعال .

وإنما أدعوك إلى النظر في الأسباب التي دونتها بنزاهة في هذا
التقرير ، لأن تلك الفاجعة عرضتني إلى شبهات أشد ظلاماً من حظوظ

الأحرار من الأدباء ، فقد أشاع المرجفون أن لي غرضاً في دفع مقالة
السوء عن العراق في هذه البلاد ، وما اذاع هذه الفرية الأنيبة إلا أناس
حميت أعراضهم بقلبي ولساني ..

يرجون عثرة جدنا ولو أنهم لا يدفعون بنا المكاره بادوا
وقال فيها :

« لقد قلت ما قلت ، وكتبت ما كتبت في الدفاع عن العراق ، ومن
الله وحده أنتظر حسن الجزاء . فمن كان له هوى في أن يصدني عن قول
الحق ، فليمض في ضلاله كيف شاء ، فما أنتظر العطف من أحد ، وقد
أقمت حياتي الأدبية على قواعد من الحديد » .

تاريخ العراق المعاصر

في حياة الشبيبي

نقشة مصدور لما كان يلقاه الأحرار من الذين صرفوا أمور العراق وفق مصالحهم الخاصة وما كان يرسم لهم .

قرأت في بريد مصر الأخير النبأ التالي : « وافقت مشيخة الأزهر الشريف على قرار يقضي بتعيين الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة مديراً لمجلة الأزهر براتب قدره ٢٠٠ جنيه » .

هذاما روقه صحف مصر في الأيام الأخيرة ، وهو نبأ رأيت أن أقف عنده لحظة للمعبرة ، وهذا الخبر لا يعنيني إلا من حيث دلالة البالغة على ارتفاع قيم الأدب ورواج بضاعته في بلاد ، وكسادها في أخرى . نحن نعيش في بلد تطاول غيرها بالكلام الفارغ والدعوى الباطلة ، لا بالعمل . فما أبعد الشقة بيننا وبين هؤلاء الذين نطاوهم من هذه الناحية .

إن اختيار صاحب مجلة الرسالة لإدارة مجلة الأزهر اختيار موفق فإن صاحب الرسالة كاتب أو صحفي مضري ، عرف بملاغته وترسله وبمقالاته التي يدبجها في مجلته . ولا شك أن أمثلة غير كثيرين في

أقطار الشرق العربي . ولكن هذه الأقطار انجبت كتاباً وصحفيين وأدباء من طبقة الأستاذ المذكور . ما في ذلك من ريب . إلا أن الفرق بين البلدين بعيد ، فهذا بلد يعيش اعلام الأدب والترسل والصحافة فيه معوزين مرفهين مقبلين على شأنهم في الانتاج والتأليف ، وهذا بلد آخر تعاني هذه الطبقة فيه أنكاد عيش يمنعها عن العمل والانتاج ، فيموتون وقوت معهم بنات أفكارهم بدون أن يحسب لهم حساب في كثير من الأحيان .

لماذا يفتت هؤلاء المبدعون من الأدباء - ناظمين وناثرين - جهات قلوبهم ؟ ولماذا يذنبون أدمغتهم ؟ أليس من أجل سنّ المناهج اللاحية وتعميد الطرق الواضحة ، طرق الهداية والارشاد ، ليسلكها الناس الى الفضائل والحامد ومكارم الأخلاق .

أجل ، هذه هي رسالة المبدعين من الأدباء ناظمين وناثرين . وإلى ذلك مرد هذا الاكهار والاجلال لهم ، والحقاوة بالغة بهم لدى الشعوب الناهضة قديماً وحديثاً . وكثيراً ما رأينا في بعض البلدان المتأخرة ان الجول والزراية والاحتقار نصيب الأديب أو الكاتب المبدع .

لذلك نرى للادب دولة في عصور دون عصور . ولا يعرف الفضل إلا ذروة والناس أعداء ما جهلوا . وما أكثر عدد الأغبياء والجهال المنحطين بين المغنيين بشؤون الحكم والسياسة في هذه الأيام !

* * *

عقد مجمع اللغة العربية في القاهرة حفلاً تأبينياً للفقيد الشيخ محمد رضا الشيباني ، كان المتكلم فيه زميله وصديقه فقيدها الزيات ، قال :

« رحم الله أخصانا الشيباني .. كانت كرسية في مؤتمر الجمع متميز الوجود ، مرموق المكانة ، ظاهر الجلالة . وكان جهده العملي في المؤتمر واضح الأثر جاني الثمر خصب الانتاج ، وكان مكانه في العراق مكانة

القائد المتبع ، تحلقت من حوله التوازع الجديدة في النجف ، وتجمعت من ورائه المبادئ الحرة في بغداد ، فقاد حركة الإصلاح الديني في الجامع ، وجاهد في سبيل الإصلاح السياسي في الحزب ، وشارك في معركة التحرر من الانكليز في الشعيبة . وكان تاريخه كله مثلاً في الشجاعة والحفاظ والاستعلاء والأدفة ... ومن جرائر هذه الحلال عليه انه لم يتول منصباً ، أو يتقلد وزارة الا استقال بعد قليل . أما الباعث فإمسا يرجع إلى وطنيته ، وإما إلى سبب يتّ إلى كرامته .. استقال من وزارة المعارف مرتين ، مرة في سنة ١٩٢٥ لاختلافه مع رئيس الوزراء على اتفاقية النفط الأولى ، وأخرى سنة ١٩٣٥ ، لاختلافه يومئذ على سياسة التعليم واختيار المعلم ، واستقال من رئاسة المجمع العلمي العراقي وعضويته سنة ١٩٤٨ لغواث من الأذى وضعها في طريقه خصيمه المين نوري السعيد ، واستقال من مجلس النواب سنة ١٩٥٠ مع النواب المعارضين الخمسة والثلاثين ، لاستطالة بعض الأعضاء الحكوميين على حرم المعارضة ... ثم دعاء التصوت والاحتشام إلى ضرب من العزلة الشاعرة ، ابتدأت في حوش من أحواش النجف ، وانتهت إلى قصر من قصور الكرادة ، فقليل ما كان يقضى مجلساً ، أو يشهد مجتمعاً ، أو يحضر منتدى . لم يكن كعاصريه الرصافي والزهراوي حديث مجلس ، أو ندع ملهى ، أو سمير أنس أو شاعر حفل أو صاحب فكاهة ، إنما كان طريقة وحده في سمو الخلق وشرف الصحبة ونبل الغرض . ولذلك انحصرت شهرته بين طلائع الأدب الرفيع من الخاصة وأقطاب الرأي المعارض من الساسة .

كان وهو متربع في حجرته المتواضعة في النجف على حشيشه الضيقة فوق حصيرته الواسعة ، وأوراقه منشورة أمامه ، وكتبه منشورة حوله يرقب طالع العهد الجديد من بلاط الملك الهاشمي في الرصافة ومن دار المعتمد البريطاني في الكرخ ، فيرى الإرادة العربية مكبلة بالقيود



الشيخ رضا الشبيبي

الانكليزية، لا تتحرك إلا بقدر ، ولا تتصرف إلا بإذن ، فيجيش صدره بالشعر المثير ، ويتحرك لسانه بالنثر الموقظ ، فتتناقل الأقواء هذه الصيحات على شواطئ الفرات من الكوفة والحلة إلى الناصرية والبصرة ، فتتعمل فعلها الساحر في نفوس الشيعة النافقين على الاحتلال والحكم والملوك ، وعلماء النجف ومنهم الفقيد ، كانوا في عهد الغزو الانكليزي كما كان علماء الأتراك في عهد الغزو الفرنسي لمصر ، اليهم يرجع الأمر ، وعنهم يصدر التوجيه ، وعليهم يعتمد العامة .

كنت في مطلع العام الثلاثين من هذا القرن في بغداد أؤدي واجباً أدبياً في دار المعلمين العالية ، وكان الملك في أيدي العرب ، والحكم في أيدي الانكليز ، والمناصب أعلاها في يد هؤلاء ، وأدناها في يد أولئك ، فكانت الحال في ذلك الحين محنة ابتليت بها كفاية الملك ، فالانتداب البريطاني كان قبل الملكية يعمل في العلن ويحمل التبعية ، فأصبح بعدها يعمل في السر ولا تبعة عليه . والحكومة العراقية ، كانت بادية البلى ممزقة الجوانب ، لا تستطيع بخروقتها أن تستر العرش ، فالملك يحكم الوضع كالتستر الانكليزي ، ولكن الوزارة بحكم الضعف كانت تكشفه ، فكانت أوزار أولئك وأخطاء هؤلاء تحمل في رأي المعارضة والشعب على الملك .

والشعب العراقي على اختلاف نوازعه وعقائده وأجناسه ناقد متمرد ، طموح ، لا يصبر على مقت ولا يقفل عن خطأ . وكانت الشيعة أشد الناس ضيقاً بهذه الحال ، لأنهم كانوا على كثرة عددهم ووفرة ثرائهم ، قلبلي الحظ من المناصب القيادية . ومرجع ذلك إلى أن الذين مالوا فيصلاً في ثورة العرب على الترك في الحجاز وآزره على تبوء العرش الأموي في الشام وهاجروا معه بعد ميسلون إلى حاضرة الملك العباسي في العراق .. كانوا من الضباط العراقيين السنيين الذين ربّتهم تركيا في

مدارسها ، وأعدتهم للحكم والحرب ، كجعفر العسكري وياسين الهاشمي ونوري السعيد ، فثبتوا أركان الدولة ، وتقلدوا مناصب الحكومة ..

والشيعة في العراق ، والمارونيون ^(١) في لبنان ، كانوا في خلافة بني عثمان كالموالي في خلافة بني أمية . أبعدوا عن مناصب الدولة ، فاشتغلوا بالعلم ، وحيل بينهم وبين موارد الثقافة في عاصمة الخلافة ، فاعتمدوا في التعليم على أنفسهم ^(٢) . وكان اعتقاد الشيعة في التعليم على النجف . والنجف كانت كالأزهر لا تخرج إلا فقهاء في الدين وعلماء في اللغة . أما سائر الشعب فقد ظل قابلاً لهؤلاء ، يستبر على هديهم ، وينزل على حكمهم ، ويجري أمور دينه ودنياه على سنتهم . فلما كانت الملكية الفيصلية لم تجد في أكثرهم من يصلح للوظائف العامة ، فتولاهم إخوتهم من أهل السنة . لذلك كان أول ما أثار عجيبي بعد قدومي إلى بغداد أني وجدت وزير المعارف أمياً بختم ولا يوقع بقلم . فلما سألت عن السبب ، قيل لي : إن العرف جرى بأن يكون في الوزارة عضو شيعي ، وهذا الرجل ثري مسالم ، فوقع اختيارهم عليه .

ولأضرب أن يكون وزير المعارف أمياً ما دام الأمر كله بيد المستشار الانكليزي . وقد جربوا في الوزارة من جربوا من أئمة الشيعة فلم يحمدا التجربة ، لأن هؤلاء العلماء كانوا يستريحون بحاشية القصر ، ويستوحشون من دار الاعتقاد ، فأرادوا أن يغفلوا أيديهم ويكففتوا من أسلفتهم ، فمنعوا ورد القرات ، والقرات نهر الشيعة تنزل على ضفافه الحصبية القبائل البدوية ، ويفرض المجتهدون بقواه المادية والزوجية ،

(١) لأن الشيعة في نظر المذاهب حوام مع إيران ، وأن المارونيين ضلعتهم مع فرنسا .

(٢) المدارس لم تمنع عنهم ولكنهم هم امتنعوا عنها . لأن أكثرتهم اشتغلوا في التجارة ، وقليل منهم طلبوا الفقه وعلوم الدين لأنه مصدر للدنيا والآخرة .

وتقسمت الأهواء والآراء سياسة البلاد ، فحزب يؤيد الانتداب لأنه سند العرش وانتظام الحكومة ، ومصدر القوة ، ويتزعمه نوري السعيد . وحزب يناصر الشعب لأنه صاحب الأرض ومادة الجيش ومصدر الانتاج . ويتزعمه ياسين الهاشمي . وهوى الشيعة طبعاً مع هذا الفريق لبعض الأسباب التي ذكرت^(١) (كذا) ، وفقيدة الشبيبي كان في بؤرتها من الأحداث ، يتجمع فيه شعاع الوطنية ثم ينتشر عن شعره ونثره هدى للقلوب وضياء في الاعين . كان هواه منع المعارضة فاذا وزر ياسين أدناه ، وإذا وزر نوري أقصاه ، فتولى وزارة المعارف خمس مرات لم يلبث في كل مرة إلا بمقدار ما يصمد بحزبه من دسائس البلاد ووساوس الانتداب ، وقليل ما يصمد . فما الذي جعل من طالب العلم الديني في النجف الاشرف عالماً ذا كتاب ، وكاتباً ذا قلم ، ومحارباً ذا سيف ، وسياسياً ذا وزارة ، ومصلحاً ذا رسالة ، ومجمعياً ذا رأي ؟

إن نسبه العريق في العلم ، وإن حياته الطويلة في العمل ، ليجيبان عن هذا السؤال أبلغ الجواب :

ولد محمد رضا بن محمد جواد بن شبيب بمدينة النجف سنة ١٨٨٨ في أسرة معروفة بالعلم ، موصوفة بالسيادة ، فقد كان جده شبيب الذي ينتسب اليه ، من اعلام الفقهاء المحدثين في عصره ، وقد ورث بنوه فيما ورثوا ، الميل الى علوم الدين وما يقيم عليها من وسائل ، فتهباً رضا لتلقي الأمانة بحفظ القرآن وتعلم الخط على مقرئة صالحة ، ثم طلب علوم اللسان والعقل على طائفة من خيرة علماء العرب والفرس ، ذكرهم في ترجمة حياته . . وكان ميله الغالب الى علوم المنطق والفلسفة والأدب ، فقرأ فيها أمهات الكتب ، وجمع منها نواذر المخطوطات ، وكان منهج

(١) العشائر وهم الكثرة مع الحاكم القائم ، ولا رأي لهم .

التعليم في النجف على النمط القديم ، يلزم الطالب أستاذاً بعينه ، حتى يخرج منه فيه ويحيزه به .

الا أن مجالس كانت تعقد في أروقة النجف يغشاها كثير من الطلاب ليستمعوا إلى محاضرات في الأصول والفقه يلقيها أئمة العصر ، كمجلس الأصول للملا كاظم الخراساني ، ومجلس الفقه لفتح الله الملقب بشيخ الشريعة . وكان من بين هؤلاء الطلاب فقيدها الشيخ الشبيبي .. فلما استبحار شبابه واكتملت آلائه وبرزت شخصيته ، تحركت في نفسه نوازع القيادة الأصيلة في بيوت العلم في النجف . وعلماء الشيعة في العراق وإيران ظلوا في جميع العهود قوامين على الناس ، لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإشارة من مجتهد أو مقالة من عالم . لأن وراثته الأئمة الاثني عشر كانت فيهم ، وجباية الصدقات كانت في أيديهم .. ومن هناك نشأت لهم في المجتمع الشيعي أرسنراطية طبقية وزعامة قومية ، كان لها في أقاليم الفرات الأثر الفعال في كل ثورة ..

والشبيبي كان واحداً من هؤلاء العلماء يرى في نفسه ، بحكم مرباه ، وطبيعة بيئته ، زعيماً بطبيعته ، سياسياً بنشأته . فلم يكف فجزر البقطة العربية يسلمح في الأقطار العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى ، ومنها العراق ، حتى ألفت من شباب النجف والكوفة وكربلاد والحلة جماعة تدعو إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي ، وجعل ينسج منهج هذا الإصلاح بشعره ونثره في المجلات المغربية والسورية والعراقية . ويقول مؤرخو الأدب العراقي الحديث إنه من أوائل من طرق الموضوعات الاجتماعية وقناؤها في شعره من بين شعراء العراق ، وأولهم على الإطلاق بين شعراء النجف . ومنذ يومئذ أخذ ذكره يسير ، وشعره يروى ، وأمره يظهر ، حتى احتل الانكليز العراق ، وأقاموا حكومة من ضباط الجيش تستند إلى حاكم بريطاني عام ، لا إلى زعيم عربي مستقل . فرأى العراق أن

وعدد مكابهنون مكذبون ، وأن عهد الحلفاء منقوض ، وأن الغدر بالعرب
 منبئت ، فهب يطلب من المحتلين أن يكشفوا الغطاء عن بصره ليري ،
 وأن يرفعوا الكرامة عن قبه لينطق ، وأن يعقدوا مؤتمراً يمثل الشعب
 العراقي ليقرر نظام الحكم ، ويختار رئيس الدولة . فأبى الانكليز عليه
 ذلك ونفوا من نفوا واعتقلوا من اعتقلوا . فثار العراقيون عليهم ثورة
 الأباة الأعزة بعد أن أفتاهم أئمتهم بالجهاد المسلح ، وغذاهم أدباؤهم بالشعر
 المشير ، وذلك قول الشبيبي :

بني يعرب لا تأمنوا للعدي مكررا
 خذوا حذركم فالقوم قد أخذوا الحذرا
 يريدون فيكم بالوعود مكيدة
 ويبغون إن حانت بكم فرصة غدرا
 فلا يخدعنكم لينهم ، وتذكروا
 أضاليلهم في الهند ، والكذب في مصر
 ومن مات دون الحق ، والحق واضح ،
 إذا لم ينل فخرأ ، فقد ربح العذرا

وكان من رأي الشبيبي في الاجتماع الذي عقده الحاكم الانكليزي في
 النجف أن تقوم في البلاد دولة عربية سيادة ، وحكومة دستورية مستقلة .
 فلم يكده الحاكم العام يدرك ما قال حتى قاطعه بضربة من يده على المتضدة .
 فثار الحفيظة بالعربي الأبي ، فانتفض انتفاضة الغضب ، وولى ظهره
 الحاكم وخرج . وخرج معه أكثر القوم . ثم أخذ يورث النار على الغزاة
 بين قبائل الفرات ، مرة بالدين ، ومرة بالشعر ، حتى رأى هو ورفاقه أن
 يصلوا أسباهم برجال الثورة العربية في الحجاز وسوزيا ليوحدوا ألوية
 الجهاد في مختلف البلاد ، فجمع الحقائق ، وحرر الوثائق ، وسافر مندوبا

عن العراقيين في أواخر سنة ١٩١٩ إلى مكة عن طريق البادية ليقابل الحسين ، ثم إلى دمشق ليلقى فيصل ، فكانت وثائقه التي حملها ، وحقائقه التي رواها ، قوة من الحق والواقع تجهّز بها فيصل أمام الحلفاء في مؤتمر الصلح . ثم قرّر قراره في دمشق سنة كاملة شارك في حوادثها وجرى في مجاريها ، واجتهد لياسين وصحبه بالمشورة ، وتحجى الملك وحاشيته وجوّه النصيحة ، حتى قررت عصبة الأمم أن الأقطار التي انفصلت عن تركيا لم تبلغ الرشد ، فلا يسد أن تقوم عليها وصاية من الدول الكبرى ، فانتشبت انكساراً لفلسطين والعراق ، واختيرت فرنسا للبحر وسوريا . فخرج العرب بذلك القرار من ظلم معلوم إلى ظلام مجهول ، ومن استبداد الفوضى إلى استعداد منظم ، ومن سلطان دولة ضعيفة إلى سيطرة دول قوية . . هنالك عصفت النخوة في نفوس الأدباء ورؤوس القادة ، فقطرت الأقلام سماً في هجاء الحلفاء ، وسالت النفوس دماً في وقعة ميسلون ، ولكن قدر الله غالب ، والمعتمد على غير الله مغلوب ، فانتقم الصليبيون من العرب ، وانتصر القائد غورو على الملك فيصل ، وتبددت فكرة الجامعة العربية كما يتبدد الحلم الجميل في حقيقة اليقظة . .

رأى الشبيبي ذلك كله بعينه . رأى العرش العربي وهو ينشل في دمشق ، والملك الهاشمي وهو يفرّ من فلسطين ، فلم يجد بداً من النجاة بنفسه على ظهور الإبل إلى العراق .

وفي النجف رأى ثورة الفرات وقد تركها شراراً يتطاير هنا وهناك وقد أصبحت أولراً يرعى العدو رعي الهشيم ، قشايح الثوار ، وشيع النار حتى رأى الانكليز أن الثورة جدّ ، وأن مقاومتها هزيمة ، فأذعنوا كعادتهم لسلطان القوة ، واستجابوا على رغبتهم لمطالب الأمة ، ووطأوا عرش الرشيد للملك فيصل ، فاحتلاه في أغسطس عام ١٩٢٢ . وذكر رجال العهد الجديد للكرم الفقيد موافقه الجلستى من قضية الاحتلال

وتوزعة الاستقلال ، فكان الملك يستشير ، ويستشير ، ثم أسند إليه منصب الوزارة خمس مرات ، أولاها في وزارة الهاشمي سنة ١٩٢٤ وأخرها في وزارة الصدر سنة ١٩٤٨ . واختير عضواً في مجلس الأعيان رئيساً له سنة ١٩٣٧ ، ثم انتخب عضواً في مجلس النواب رئيساً له سنة ١٩٤٣ . وكان كما قلت ، لا يلبث في كل منصب تولاه إلا ريثما يبدأ عمله المستقل ويبدى رأيه المعارض ، والاستقلال والمعارضة بأبهما العرش القانم على كواهل الانكليز^(١) . والانكليز كانوا الفاعل المستر في جميع أعمال الدولة ، وهم لا ينسون أن الشبيبي حارهم مع الأتراك في القرنة ، وقانلهم مع العرب في الثورة ، فن الطيبي أن يسلطوا عليه جلادهم نوري السعيد^(٢) . فوضع في طريقه العوائق ، وراح يدس من حوله الدسائس حتى بعيدة يائساً إلى عزلة في الكراة ، يبحث ويؤلف ، ويحقق ويحاضر ، ويمد الجامعات العلمية في بغداد ودمشق والقاهرة بشعرات فكره ، وحصيلته اطلاعه . وإن يجمع اللغة العربية ليشهد أن فقيده الكريم لم يتخلف عن شهود مؤثر من مؤثراته منذ انتخب عضواً فيه سنة ١٩٤٨ إلا مرة واحدة ، ولم يحضر دورة من دوراته إلا مزوداً بطائفة من البحوث القيمة والملاحظات الصائبة والاقتراحات السديدة ، كان يلقها علينا في تواضع فيه عزة ، وقوة فيها ثورة ، وثقة فيها يقين ، جاءه من سمعة علمه وضحة تشبه . . ذلك إلى سمو في خلقه ، وتبل في هواه ، وبروز في ذاته ، جعلته طوال عضويته في الجمع عميداً لأعضائه الشرقيين بحكم الواقع . . يتكلم عنهم يوم افتتاح المؤتمر ويوم اختتامه . وجهاده الطويل الثمر في

(١) كان الانكليز يشمون الملك فيصل بأنه يشجع المعارضة ويوحى اليها بالرأي والمطالبة ليحصل الوطن بعض حقوقه من يد الاستشارة الانكليزية ويستخلص القليل من المعتمد المتصاب .
(٢) كان الشبيبي قد شارك انقلاب بكر صدقي بقبوله منصب رئاسة الأعيان ، وفوري يحقد على كل من أسهم في الانقلاب أو قبل علانهم في حكومته ، ولا ننسى أن الشبيبي من جهة الهاشمي في المعارضة ومن أصحاب المدغمي . .

سبيل العرب والعربية ، كرّمته جامعة القاهرة حتى منحتّه درجة
الدكتوراه الفقهية في الأدب والتاريخ ، واحتفت به أندية الأدب ومعاهد
العلم في عواصم المروية ، تقديراً لجهوده للعلم والسياسة . ثم كان من آثاره
على الوحدة أن دعا إلى عقد مؤتمر الجمع في بغداد توثيقاً للرابطة
وتوحيداً للوجهة ، فانعقد هناك استجابة لدعوته وتحقيقاً لرغبته ، ولكن
صاحب الدعوة وأسفاه لم يحضر الدعوة ، كان يشهد الاحتفال بليلة
الإسراء في القدس في جمع من علماء المسلمين ، فلم يكذب يدرك المؤتمر
حتى أدركته الوفاة وخلا مكانه ، وذهب هذا الفضل كله ، وهذا العلم
كله في فجأة من فجآت القدر ، وخلاصة من خلاصات المنون ، فلم يعن
عنه طب الطبيب ، ولا حب الحبيب ، ولا أمس الحاجة إليه .

كان الشيخ محمد رضا الشبيبي من العلماء الكثيرين والشعراء المقلين ، فله
في العلم عشرات المؤلفات والمقالات . وأما الشعر فله ديوان مفرد ، ذلك
لأنه كان يبذل العلم للناس ، ولكنه كان يقول الشعر لنفسه . . ونفسه
كانت لا تكلفه الشعر إلا لحاطرة تجيش في ذهنه ، أو عاطفة تقدس
في حياته ، أو واقعة تنطبع في حسه . فلم يقرض الشعر عن طلب ولم
يقرضه لمناسبة . وقد سأله بعضهم أن ينظم في معنى معين ، فقال له :
لا ينبغي لأحد أن يقول للشاعر : إنظم في كيت وكيت ، إنما الشعر
شعور يجيش في النفس فيجري على اللسان . .

وشعره ، على قلته من عظم الشعر وجيده . نحا في معانيه منحى
المعري في النقد والحكمة ، ونهج في أسلوبه نهج الحماداني في الجزالة
والعذوبة ، فمن معانيه قوله :

يا المرزية ! كم يفرق بيننا
جادات علينا غصبة روحية
ذلوا بحبهم المعاش وبرهنوا
ذهبوا بدعوى في الصلاح عريضة
يتشاقلون ويحبون عن العلى
لا يحسدون على المال أمة
إن الزعامة سلمت لزعانف
أنظر إلى الأعجاز كيف تصدرت
شر العصور وفي العصور تفاوت
وتصلتنا الأضعفان والأحقاد !
شقيت بها الأرواح والأجساد
أن ليس من بعد المعاش معاد
إن الصلاح من الشيوخ فساد
ليقال إن شيوخنا زهاد
وهم على علاتهم حساد
في الشرق قادوا أهله فانتقادوا
وعنائهم السادات كيف تساد
عصر به تتقدم الأوغاد

ومن حمدانياته قوله في مدينة صيدا ، وقد زارها في رحلته السياسية

سنة ١٩٢٠ :

رحلت اليها بالصيابة انما
مدام فتى مثلي صباياته كثر
عمدت الى كأس السلو فنذقتها
وكأس الجوى طعمان أحلاهما المر
أقد أطلقت صيداء طائر أيككة
بيغداد أعياء وأرهقه الأسر
غريباً من الأطيار فيها توافرت
خوافيه واشتدت قوادمه العشر
وأزعجني من بلدي مزعج القطا
فهل أنت يا صيداء - لا بلدي - وكو
نعم لم يزل يعتمد قلبي اضطرابه

كما اضطربت ضمن الشباك القطا الكدر

ألنسى زمان الكرخ والكرخ معزس

وتذهب عن ذكرى الرصافة والجسر ؟

هوى البحث أقصاني ومالي جانب

- أبي الله - عن زوراء دجلة مزور

وما انفرد به عن أبي العلاء وأبي فراس وطنياته التي توثب النفوس

على المستعمر ، وتشجيع الوثائق بين الأخوة ، وتدعو العرب إلى الوحدة :

كوّنوا الوحدة لا تقسمها
زعمات الرأي والمعتقد
أنا بايعة على أن لا أرى
فرقة ، هاكم على هذا يدي

ثم اجتماعاته التي تصور العيوب ، وتظهر النقص باللسان العفّ الذي
يتميز به ، والبيان الحق الذي ينطبق عليه ، وذلك كقوله :

فتنة الناس ، وقمنا الفتنا !	باطل الحمد ومكذوب الثنا
ربّ جهم حوله قمرا	وقميص صيراه حسنا
أيها المصلح من أخلاقنا	أيها المصلح ، الداء هنا
كلنا يطلب ما ليس له	كلنا يطلب ذا حتى أنا
ربما تعجبنا مخضرة	أربّسع بالأمس كانت دمنّا
لم تول - ويحك - يا عصر أفق	عصر ألقاب كبار وكسّ
حكم الناس على الناس بما	سمعوا عنهم وغضوا الأعينا
فاستجالت ، وأنامن بعضهم ،	أذني عينا وعيني أذنا
إننا نجني على أنفسنا	حين نجني ثم ندعو: من جني؟
بلغ الناس الاماني حقة	وبلغناها ، ولكن بالمنى
أخطأ الحق فريق يائس	لم يلومونا ولاموا الزمنا
خسرت صفقتكم من معشر	شروا العار وباعوا الوطننا
أرخصوه ولو اعتاضوا به	هذه الدنيا لقلّت ثمنّا
يا عبيد المال ، خير منكم	جهلاء يعبدون الوثنا
إنني ذاك العراقي الذي	ذكر الشام وناجى اليمنا
إنني أعتد (نجداً) روضي	وأرى جنة عدن (عدنا)

أما أحاديث نفسه ومطامح هواه ، فقد عبر عنها باللفظ الموقن ،
والاسلوب المبكر ، والخيال القصد بين العقل والقلب . ومن يسمع عنه

شيئا لا يجد في أدنية صدى يتجاوب لشاعر سابق ، ولا نفعة تتردد من لحن قديم ، ولو كان المقام مقام تفصيل وتحليل لذكرت الأدلة ، وسردت الأمثلة ، ولكن حسي في مقام الأسى أن أذكر أحيانا بدل مبنائها ومعناها على أن الشاعر الفقيده كان إذا تخلص من كساد التقليد ، وأخفت في مسامحة أصوات الماضي ، عاد إلى طبعه الأصيل وفكره الحر ، فيأتي بالمعنى الطريف في الأسلوب البديع . كقوله في واقعة ، حال تردد في عزمه بين العقل والهوى :

قلي يريد بلا غيب زيارتكم والقلب ينهائ إلا بعد إغيا
قضية بقياس الروح موجبة والنفس جنبنا سلب وإيجاب
ما أنت ممن يريد الحب فلسفة - يا قلب - ذات براهين واسباب
نفسه القلب للسلوى يحركني فتبتهت حركات الشوق أعصابي
ما زال في الصلوات الحسن ذكركم نجوى مصلاي أو تسبيح عراي
لم أدر ما أمهجتى ، غير أنكم في اللحن لحنى ، وفي الإعراب إعرابي
قد يحجز الدهر ما بيني وبينكم مذ ساعة فأراها منذ أحقاب
وظالما حوت في وجه ولم أرى الا وقد علقت يميني بالباب (١)

وكان للشبيبي رضوان الله عليه ، تجديد في عمود الشعر ، ولكنه تجديد المحافظ لا تجديد المضيع . جدد في المعاني والأغراض ، وحافظ في الأوزان والقوافي ، فهو يقول على نحو ما قال أبو نواس ، بالأمس من قبل :

الى الآن لا يستملح الشعر إن علا ولا يستجاء القول إن لم يلفق
قريض طول دارسات وأربع وشعر جمال سائرات وأينق

(١) الابيات اشبه بشعر الزهاوي ، وفلسفته الباردة ، بل هي من غزل الفقهاء .

مقيّدة أبوائه وفنونه وأدهن دواهي الشعر تقييداً مطلقاً
إذا لم يحثك الشعر عفواً تحامنه^(١) وأن لم يسعك الخلق لا تتخلق^(٢)

وهو يعد ذلك كله يؤلف مع الرصافي والزهاوي والكاظمي والنجفي
الأوتار الخمسة لقيشارة الشعر العراقي في الثلث الأول من هذا القرن .
على تفاوت بينهم في الجهورية والهمس والغلظة والرقّة والضحولة والعمق .
وكان هو من بينهم الوتر الحساس الذي ولا يملح سمع لا يمجح ذوق ولا
ينكره فن .

أما نثره فهو نثر العالم ، لا نثر الاديب ، لأن النبوغ في الصناعتين
قلما يتفق لأحد .

وميزة الأسلوب العلمي أن يكون لفظه قدراً تامناه ، وطريقه قصداً
لغايته ، كقوله مثلاً : « نحن الآن في عصر الشك كما يقول فريق من
أهل الغرب . ومن ذلك أن شكنا الآن يقتارل حتى أسس الثقافة التي
يربدها معظم الغربيين للشرقيين ، ومن بين هذه الأسس غز الشرفيين ،
والتنديد تصريحاً أو تلويحاً بقيمة أثرهم في الحياة حتى ضعفت ثقة شباب
الشرق بأنفسهم وبمطولة أسلافهم ، وفلاشت في بعض الجهات وحل محلها
الثقة المطلقة بتفوق الغربيين إلى أن نشبت الحرب العالمية الأخيرة وأسفرت
بعد أن ظهرت أسبابها وفتائجها للعيان عن حركة فكرية عامة تجتاح
الآن أفكار البشر بدون تمييز . ويتوقع أن يكون من هذه الحركة الفكرية
رجوع القوم عن الشطط في أحكامهم على الشرق والشرقيين ، ونبذ
دعوة التفوق الغربي الموهوم والتسليم بشكافؤ المواهب والكفايات في أصل
فكرة الجنس البشري . فليس في الدنيا من هذه الناحية شرق ولا
غرب ، بل بشر يتداولون التفوق والغلبة وفق أحكام سنة الكائنات

(١) حذف فاء جواب الشرط من تحامنه ولم يجرده ومن «ولا نتخلق» وهي خبرونة لا تجوز .

العامية .. ولا شيء أفضل في تجديد شباب الشرق ، واستئناف قواه للعمل في سبيل حضارته من رسوخ هذه العقيدة فيه .

وما كتبه في أواخر أيامه قوله لمقدمة كتابه « أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية » : « من أهل زماننا قوم شغفوا بالجديد ، لأنه جديد ، وذهبوا إلى استبعاد القديم من تراثنا في الأدب والفنون لأنه قديم ، والحق يقال إن العبرة في الشعر ليست في حداثة عهده على ما يراه قوم ، ولا في قديم عصره كما يذهب إليه آخرون بل العبرة في هذا الباب بلطف المعنى ، وسلامة المبنى ، وبلاغة العبارة ، وصدق العاطفة ، وجمال الشعور والتصوير . وان من الشعر لما يهز النفس ويرضي الوجدان ، وان من الشعر لما يلهم الصواب ويهدي إلى الحكمة .. فإذا توافرت في الشعر القديم هذه الخصائص ، فهو شعر جديد . وإذا خلا منها الشعر الحديث ، فهو شعر رث عتيق ، هذا ولا أبالغ إذا قلت إنني عاهدت نفسي واخواني الدارسين ألا يجدوا في هذا البحث إلا كل شيء جديد ، جديد في الجوهر والروح ، قديم في الشكل والصورة . وهذا هو أسلم المقاييس في حكمنا على القديم والجديد » . فأنتم تزون - أيها السادة - من هذين النموذجين أن أسلوبه سلس وواضح مقرب لا تغريه تصاريف البيان ، ولا تحليه تحاسين البديع ، لأن التلاؤم والموسيقية والأناقة وغيرها من صفات النثر الفني ، لا تقتضيها أحوال العلوم . والموضوعات التي كان يعالجها فقيدنا الباحث كانت أدخل في باب العلم ، فسبيلها الاقتساع ، لا الاصناع^(١) ، وإدليلها المنطق لا الخطابة . فمن مؤلفاته : تأريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى اليوم ، وأدب النظر في المناظرة ، وتذكرة فيما عثر عليه من الكتب والآثار

(١) لعلها : الاصطناع .

النادرة ، وفلاسفة اليهود في الإسلام ، لحّص فيه فلسفة ابن كمونة وابن ملكا ، والمأثور من لغة القاموس ، ومؤرخ العراق ابن الفوطي ، والمسألة العراقية ، وتاريخ النجف ، وأدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية ، ثم «تراثنا الفلسفي» وهو آخر كتاب طبع للفقيه . ومن بحوثه التي ألقاها في مؤتمر الجمع : النهضة الأدبية في العراق ، والألفاظ الأيوبية في كتاب تقويم النديم ، وبين الفصحى ولهجاتها ، وفي فقه الأساليب ، ومصادر الشك في كتاب العين ، وسنة التطور في اللغة ، وفي تاريخ اللهجة المصرية ، ولبسة اللهجات وأصول اللهجة العراقية ، وابن خلكان وفن الترجمة ، ولهجات الجنوب ، وتراثنا القديم في المصطلحات ، وثقافتنا اللغوية في عصر المغول ، وبين مصر والعراق في ميدان العلاقات الثقافية . وقد سردت هذه العناوين سرداً لأقول إن طبيعتها هي التي فرضت هذا الأسلوب العلمي ، فأبنت بين صيغ الفن في شعره ونثره ..

أما بعد أيها السادة ، فهذا موجز حياة رجل عظيم ، أقل مفاخرها موضوع كتاب ، وجملة مآثرها تاريخ خطبة ، والرجولة والعظمة صفتان يجمعهما ما أوتي من مناقب ، مصدرها خلقه ، ومواهب مصدرها علمه . كان رجلاً بالمعنى الرفيع الذي يفهمه المذهب من لفظ الرجل ، وكان عظيمًا بالمعنى البديع الذي يدركه المثقف من كلمة العظيم ... ولودّهبت لأحلال حياته إلى عواطفها الأولية لوجدتها من الحلال : الصدق ، والصراحة والاباء ، والشجاعة . وهذه هي الرجولة ، وفي الاعمال : العمق ، والشعور ، والاتقان ، والتفرد . وهذه هي العظمة . وفقد الرجل كهذا الرجل ، حياته تأريخ ، وعمله رسالة ، وخلق قدوة ، وكفايته ثروة ، خسارة انسانية لا خسارة قومية ، ومصاب أمة لا مصاب أسرة ، وفجيرة منغمة لا فجيرة عاطفة ..

وكانت ، لا يتفق ، ولا يتالق ، ولا يتداهي (١) ولا
يداجي ، ولا يقول إلا ما يصح في رأيه ، وهذه الصفات قد تجعل
المصلح عظيماً ، ولكنها لا تجعله زعيماً .. ولا أقصد الزعامة السياسية ،
فإن السياسي في أمم الشرق كان إذا تجهز لها بالضمير والمنطق والصراحة
والصدق ، هاجمه خصمه بالأباطيل العاشية فيظهر عليه . ووقف منه
جمهوره على الحقيقة العارية فينفّر منه . لذلك عجز الشيعي آخر الأمر
عن التوفيق بين هواه والعامة ، وبين خلقه والسياسة ، وبين ضميره
والحكم ، فارتد إلى العلم والأدب يؤدي عن طريقها واجبه ، ويشغل
بطالبها وجوده ، وفي هذين الميدانين جاهد فأبلى ، وقاد فانتصر ،
وأصلح فزعم . رحم الله ذلك العربي الحر ، والوطني الصادق ، والجاهد
المخلص ، والوزير النزيه ، والعالم الحجة ، والجمعي الباحث ، والشاعر
المجيد ، والناقد البصير ، والأديب المطلع . وألهمنا على فقدته جميل
الصبر ، وعوضنا من بعده خير العوض ..

(١) لها : يداهن .

بين الزيات والراوي

كان استاذنا الجليل طه الراوي كثير الاهتمام بالأساندة العرب الذين يقدون إلى بغداد ، زائرين ، أو تستقدمهم وزارة المعارف . ويشرف لرفقتهم ويفتح صدره ويبتسّم لهم ، يكرمهم ويؤم لهم ، ويتعهد مصالحهم ، وبصفي لهم المودة . ولا سيما الأدباء منهم ، والذين يقومون بتدريس العربية . وقد جرى استقدام أكثرهم بدلالته واستشارته ، فله رحمه الله صداقات ومودات مع أحمد أمين والعبادي وإبراهيم مصطفى وعبد الوهاب عزام وعبد الرحمن عزام وزير مصر في العراق وزكي مبارك ومبروك نافع وهاشم عطية ويدوي طبانة ، ومنهم الزيات . وهذه رسالة من الزيات تفصح عن هذه الرابطة :

من الزيات الى صديقه الراوي

القاهرة في ٧ - ٣ - ١٩٣٨

صديقي الاستاذ الجليل السيد طه الراوي .

لا أحب أن أتحدث في هذه الرسالة عما أحمل لك في قلبي من جميل الأثر ، وأكن لك في نفسي من عظيم التجلية ، فان معرض ذلك في خطاب يشبه أن يكون رسمياً فيه معنى لا أرتضيه لنفسي .

فلأترك ذلك أذن الآن ، ولأتحدث اليك حديث رجل يخدم الثقافة
 لرجل يهتم عليها في قطر من أقطار العروبة . الرسالة يا سيدي الأستاذ
 هي المحلة الوحيدة الروحية والثقافية . وتكاد اليوم تكون لساناً للأدب
 العربي في جميع أقطاره . وهي كذلك تساعد المدرسة على أخذ الناشئة
 بالأخلاق العربية والأساليب الأدبية ، وفي سبيل ذلك تضحي بالوسائل
 الصحفية التي تجلب المادة وتكسب النفوذ . فهي لا تتعلق شهوات
 الجمهور ، ولا تستجيب لرغبات الحكومات ، ولا تعتمد على الاعلان ،
 ولا تستغل فضائح الناس . عرفت ذلك الحكومة المصرية ، فساعدتها
 بالاشتراك فيها لجميع مدارسها ومكاتبها بألف نسخة ، وكنت أرجو أن
 تعطف عليها وزارة المعارف العراقية بعض العطف فتزيد في اشتراكها
 بعض الزيادة . وقوى في نفسي هذا الرجاء منذ أسندت إدارة المعارف
 إلى كفائتكم وخبرتكم ، فانكم أعلم الناس بالخدمة التي تؤدي بها الرسالة
 إلى الطلبة ، لذلك أكتب اليكم هذه الكلمة أسألكم بها النظر في أمر
 الاشتراك في الرسالة والرواية لعلكم تجدون الفرصة مواتية لإرضاء
 غيركم من هذه الناحية ، وإني أقدم إلى الأخ الفاضل خالص تحياتي
 وموفور شكري .

الخلاص

أحمد حسن الزيات

رسالة الأستاذ الراوي الجوابية

أخي الأستاذ الفاضل السيد أحمد حسن الزيات المحترم

تحية مشفوعة بالاحترام : أما بعد ، فإني تناولت كتابكم الكريم
 ببعد الاجلال والابتهاج ، وإني لأشكر لكم ما تدفق به شعورك النبيل



الأديب طه الراوي

تجاه أخ يحمل لكم في أعماق نفسه من الود المقرون بالاكبار والاعزاز
ما لا قبل للقلم بتصويره . واني لمعجب جد الاعجاب بما تسديه رسالتك
للعلم وأهل من خدمات ، وما تجديه عليهم من يانع الثمار مع البعد عن
ضوضاء التمويل والتهارش ، ومع المشايعة للحق والمنافعة عن الصدق في
أي المواقف كانا ، هذا وقد أشرنا على الدائرة ذات الاختصاص في
وزارة المعارف أن تضاعف عدد ما اشركت به منها ابتداء من أول
نيسان^(١) ١٩٣٨ ، وقبل الختام أرجو قبول خالص الاحترام .

الخلاص

ظه الراوي

الدكتور غانكة الخزرجي تشمن أدب الزيات :

ليس أندى على قلب المرء ، وأطرب لنفس الأديب والشاعر ، من
كلمة طيبة منصفة يقولها ناقد ، أو يكتبها كاتب يقدر بها أدبه ويشمن
بها أسلوبه ، وقد أدبنا الله باريء النسم وخالق الطبايع بقوله الكريم :
« ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة : أصلها ثابت وفرعها في السماء »

(١) اشركت وزارة المعارف بجهة الرسالة المدارس الثانوية والمتوسطة ودور المعلمين
والكليات والمعاهد وبأعداد لاقسامها الادارية والمكتبة العامة . وكانت الرسالة المجلة المتميزة من
دون بقية المجلات ، مصرية أو لبنانية أو غيرها . تحظى باقبال المتعلمين والاساتذة والموظفين ،
فيكان يصرف منها بضعة آلاف اسبوعياً . وكانت عاملاً مهماً في اشاعة مفاهيم الادب العربي
واقتشار الوعي القومي والعلمي معاً . وكانت سبباً من أسباب ارتقاء النشر الفني وشيوع الاسلوب
الفصيح على أقلام الكتاب ، ولا شك ان في اختفاء الرسالة خسارة كبرى للقاريء العربي والمبلاغة
العربية ، تلام عليه وزارة الثقافة والارشاد في مصر الشقيقة .

والشجرة الطيبة تؤتي أكلها بأذن ربها ، فتنفع الناس والحيوان ، يأكلون من ثمارها ويتقيؤون ظلها ويتنسمون أرواحها ، وكذلك الكلمة الطيبة يقولها المرء لأخيه ، فتدخل إلى نفسه البسمة والرضى ، وتشبع في نفسه البشر والبهجة ، وتده بالعون ، فيمضي على الطريقة المثلى ، وتشد من عزيمته وتشجعه على صالح الأعمال ، وتنبئ له الطريق .

والكلمة الخبيثة « كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » يبس جذعها ، وتساقطت أوراقها ، وجفت أغصانها ، فلا تصلح إلا للوقود . والكلمة الخبيثة الحاسدة تشبط العزيم ، وتدخل إلى النفس الظلام ، وتشبع السخط ، وتوهي وشائج الصداقة ، وتوهن الهمة ، وتنتشر في القلب الهم والغم .

وبعد فأدب الزيات جدير بالتقدير ، واسلوبه الرصين قين بالثمين . وحق الأكفاء أمثال الزيات أن يقدر أدبهم الأكفاء من أمثال الدكتور الخزرجي . فما زال أدبه يبشر بالفكرة الرصينة ، ويتضوع بالأدب الأصيل ، لا يرضيه إلا الحق والجمال والخير ، ويبشر بالمثل العليا ، ويهدف إلى أحياء وعي عربي سليم . والزيات في رسالته لم يقصد إلى النجاح واجتذاب الجمهور بتلك الرسائل الرخيصة التي يتوسل بها بعض الكتاب في إثارة الجنس واستمواء القراء بالقصص الغرامية ، لاقتناص الربح بأرخص المغريات ، والإسفاف بالأسلوب إلى مستوى العمامة . وإنما كان من دأبه أن يرفع الجمهور إلى المستوى الذي يتذوقون به الأدب القويم والأسلوب الفصيح ، ظلت رسالته حلقة تمثل في الأدب المذهب السديد الذي يزاوج بين القديم والجديد ، وتحرص على الرفعة والجدة ، وتؤدي ثقافة سليمة بأسلوب عربي مبين . وقد ثبت الدكتور

الفاضلة أدب الريات بأسلوبها الرصين قبل أن تعرفه شخصياً ، وقبل أن يكتب مقدمة ديوانها ، فكانت بحق كلمة رائعة جاءت تقدير الكفاء للكفاء ، وثمين الناقد المنصف للاديب الأريب . والدكتورة عاتكة لها ملكتها الفنية وتربيتها الأدبية وحسها المزهف الشاعر ، وقد أوتيت الأداة الصالحة والتميز الصادق لهذا التقويم القويم .

واني لمعتبط أن أضف هذه الباقة العريقة من حديث صاحبة (أنفاس السحر) و (لألا القمر) إلى كتابي .



أسلوب الزيات

للدكتور غائكة الخزرجي

استاذة الأدب بجامعة بغداد

الأستاذ أحمد حسن الزيات أديب كبير من أدياء العرب المعاصرين ، وإمام ثبّت ثقة من أئمة البيان ، في لغة القرآن ، وإن الفكر ليحار ، وإن اللسان ليعجز إن أراد أن يحصي بعض ما للرجل من أيدٍ تُغرّ على العربية وأهلها في ميادين الأدب والعلم والسياسة . ومآثره في هذه الميادين جميعاً كثر ، ليس إلى حصرها من سبيل .

فالرجل في الأدب إمام من أئمة النثر اللقي ، وهو ذو أسلوب أيسر ما يوصف به أنه السهل الممتنع والقريب المحال والمطمع المعجز . وناهيك بأسلوب هذه سماته وتلك مميزات .

وإني لأرجو ألا أكون مجانباً للحق إن قلت لك إن الزيات أوضح من الرافعي ، وأسمح من العقاد ، وأوجز من طه حسين . على أن أسلوب الرجل يضم محاسن هؤلاء الثلاثة جميعاً ، أعني متانة الرافعي وعمق العقاد ودمائة طه حسين ، مضافاً إليها سمته هو . وسمت الزيات في أسلوبه شيء فوق الاحاطة ، لأنه فوق الوصف وفوق البيان .

وإننا لندعو هنا - وحديثنا عن الأديب مرهون بدقائق (١) - ألا نحقق في محاولتنا وصف أسلوبه ، هذا الأسلوب الذي حسبه من فخر أن يقال فيه إنه أسلوب الزيات ، وكفى .

من حقلك أن تسألني بعد ذلك : ما يكون هذا الأسلوب الذي وصفته لك أول ما وصفت بالسهل الممتنع والقريب المحال والمطعم المعجز ، والذي رفعته فوق الرافعي والعقاد وطه ، أساطين النثر في أدبنا المعاصر ؟

الحق أن أسلوب الزيات الأدبي أسلوب فرد ، يتميز بطابعه الخاص الذي يرتفع به عن سواء من أساليب الأدباء قدامى ومحدثين ، وهو عندنا أسلوب جامع لأخص خصائص الشعر والنثر معاً ، فله من الشعر خياله الجناح وعواطفه الحادة ووشيه المنعم ، وجرسه العذب ، فهو في جوهرة ووشيه شعر لولا أنه غير موزون ، وهو في سمته وهيكله نثر منتظم بارع في نظامه واتساقه ، باهر في فنه وانسجامه ، وهو نثر فني بليغ ، فيه أدق سمات الفن وأجل خصائص البلاغة ، وأول ما يسترعي النظر فيه إنما هو إعجازه الواضح ووضوح المعجز من عمق مركز وتركيز عميق ، وهو يحقّر أعلى مثل وأرفع صورة للسهل الممتنع القريب المتعذر . إن هذا الأسلوب إنما جاء ليحقق لنا في البلاغة قول ابن المقفع المأثور : « البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها فإذا حاول عجز » .

وأسلوب الزيات بالغ الآخر مبنى ومعنى . فكما كان لجرسه في مسمعيك صدى كذلك كان لمعانيه في نفسك أصداء .. ولا عجب « فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، منزهاً عن الاختلال ،

(١) احسب ان الحديث اذيع أولاً ثم نشر ضمن احاديث الدكتوررة التي كانت تلقىها من اذاعة بغداد ..

مصوناً عن التكلف ، صنع في القلب صنع الفيت في القربة الكريمة « على نحو ما يقول لنا الجاحظ .

والزيات ممن هيئت له الاجادة بأسبابها ، واتفق له الاحسان بدواعيه ، فواته طبعه وحسه ، وأسعفه علمه وفكره ، وطاورعه بيانه وفنه ، فأخرج لنا هذا الأدب الملهم الملهم ، وهذا النغم المسكر المطرب ، وهذا الفن المؤنق المعجب ، حتى إنه ليحقق لنا أن نقول فيه ما قال ابن الأثير بالبحثري ، من أنه : أراد أن يشعر فغنى .

إنك لا تدري وأنت تقرأ الزيات من أين تؤخذ ، أهى براعة الكاتب في انتقاء ألفاظه ومواءمتها وموسيقيتها حتى لكأنه يعالج منها فناً عالياً في الجرس وحسن الإيقاع ؟ أم هي عبقريته في تصيد حساس المعاني وشوارد الأخيلة ودقائق الأفكار وعرضها في هذا الثوب الرائع في الحلي المتمن والوشي الجميل ؟ أم هو فنه المفلق الخفي الذي تبهرك آية وتخفى عليك كوامنه وأسراره ؟ أم هو مزيج بين هذا وتلك وذلك ؟ أسكن الحس وأطرب النفس ، وأعجب الأذن ؟ ونحن إذا آمنا بقول الزيات نفسه من أن « الاسلوب إنما هو خكيتق مستمر : خلق الالفاظ بواسطة المعاني وخلق المعنى بواسطة الالفاظ » وأن الاسلوب إنما هو مركب فني من عناصر مختلفة يستمدّها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه ، تكشف لنا بعد ذلك سر تجويد أدبنا الكبير في أسلوبه وانفراده به بين أئمة النثر الفني في أدبنا العربي على توالي العصور . إذ أن قدرة الزيات على المواءمة بين الالفاظ والمعاني ، والتفنن فيها جميعاً قدرة لا يختلف فيها اثنان . هذا إلى توفد في ذهنه ، ورهافة في نفسه ، ورفعة في ذوقه ، قلما توافي أحداً أو تتفق لأدب .

واني أضيف إلى هذا كله أن السر الأكبر الذي يكمن وراء إعجاز

الزيات في أسلوبه إذا هو أصالته . فالزيات يستقي من تسع ثر وورد صفو ، وماء عذب ، فيه ري للشاربين . لأنه يصدر عن ذات أعلى ما يميزها الصدق ، وأعلى ما تزدان به الإيوان ، فليس الزيات إلا أصيلاً في أدبه ، مؤمناً برسالته ، صادقاً في تأديتها على الصورة المثلى التي يجب أن تؤدي بها الرسائل العليا . ولا تسئل بعد ذلك عن أدب معينه الطبع لا التطبيع ، وقوامه الصدق لا التصنع . وأنا أقول في أسلوب الزيات ما قال إبراهيم بن العباس الصولي الكاتب في شعر العباس بن الاحنف :

« ما رأيت كلاماً محدثاً أجزل في رقة ، ولا أصعب في سهولة ، ولا أبلغ في إيجاز ، من شعر العباس ... »

وان سألتني بعد ذلك عن أشبه الزيات في أسلوبه بين الأدباء ، فأقول لك انه أعجزني أن أجده له الشبه بين النثرين جميعاً قدامي ومحدثين ، وما أراهم أخطأته بين الشعراء ..

ولا تعجبين لهذا القول بعد أن ذكرت لك أول الحديث أن أسلوب الزيات في جوهره ووشيه شعر لولا أنه غير موزون ، ولك أن تسألني من بعد عن هذا الشاعر : من يكون ؟ وأراهم أسرع لأقول لك إنه صاحب « سلاسل الذهب الوليد في حلب » . انه الشاعر الذي أراد أن يشعر فقته ، صفى المتوكل على الله ، ونجى غلوة الحلبية : أبو عبيدة الوليد بن عبيد البحر ، فكللا الرجلين ساحر الأسلوب : يعنى بالجرس ، ويحفل بالموسيقى . وكلاهما يشف عن طبع صاف وفن أصيل ، وكلاهما احتفى باللفظ وما أهمل المعنى ، ورزق الخيال وما أبعد عن الحقيقة ، وصدر عن الطبع وما خافى الفن ، وأشد ما يلتقي عنده الأدبيان .. احتفاء كل منهما حفاوة بالغة بلون واحد من ألوان البيان .. أريد به الطباق المرسل والمقابلة المستملحة ، واحسانها في ذلك احساناً مما بعده مستزيد زيادة .. احساناً يدفعك إلى الدهش والحيرة ، فما تدري أهى



الاستاذ محمد بهجة، الاستاذ والامام احمد حسن الزيات وعزيز اباضه وعضوان من
اعضاء "جمع اللغة العربية" شباط ١٩٧٠

الضئعة التي ما بعدها ضئعة ، أم هو الطبع المواقى الذي ما بعده طبع .

وليس أحب إلى نفسي من أن أختار لك من أدب الرجلين الشاعر
والنثر ما يوفقك على هذا التشابه الذي ذهبت إليه ، والتوافق الذي أريد
لك أن تقرني عليه . هالك البحثري واستمع إليه مستمعاً بمنفعة وشبه
ورقة جرسه وطرب موسيقاه وأعجاز مقابلاته المعجبة المونقة . . اسمعه
يفسب ثم يعتب :

يهون عليها أن أبنت متيماً	أعالج أمراً في الضمير مكتماً
وقد جاوزت أرض العراق وأصبحت	حى وصلها منذ جاورت أبرق الحمى
بكيت حرقه عند الفراق وأردفت	سأوا نهي الاحتشاء أن تتصرما
فلم يبق من معروفها غير طائف	يلم بنا وقتنا إذا الركب هو ما
يكاد وميض البرق عند اعتراضه	يضئ خيالاً جاء منها مسلماً
ولم انسها عند الوداع ونثرها	سوابق دمع اعجلت أن تنظماً
خليلي كفتا اللوم في قبض عبدة	أبى الوجد إلا أن تفيض وتسجماً
ولا تعجبنا من قعجة البين إنني	وجدت الهوى طعمين شهدا وعلقما
وأصيب إن نازعته اللحظ رده	كليلاً ، وإن راجعته القول جمجماً
ثناء العدا مني فأصبح معرضاً	وأوهه الواشون حتى توهما
وقد كان سهلاً واضحاً فتوعرت	رباه ، وطلقاً ضاحكاً ، فتجها
أمتخذ عندي الاساءة محسن	ومنتقم مني امرؤ كان منعماً
ومكتسب في الملامة ماجد	يرى الحمد غنماً والملامة مغرماً
أعنيك أن أخشاك في غير حادث	تبين أو جرم اليك تقدماً
أست الموالى فيك نظم قصائد	هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجماً
ولو أنني وقترت شعري وقاره	وأجلت مدحي فيك أن يتمضماً
لأكبرت أن أومي اليك بأصبع	تضرع أو أدنى لمعذرة فما
ولكنني أعلي علك أن أرى	مدلاً وأستحييك أن أعظماً

وليكن منك حديثي اليك عن الزيات. حديث الزيات نفسه اليك ..
هاكه في قصته عن «نورا» يسمعك البطلة تروي مأساة قلبها .. أستمع
اليها واليه ، وقابل بعد ذلك بين ما قدمنا لك من أبيات أبي عبادة
وبين ما سنتلوه عليك من نشر الزيات .. أستمع اليه يقول على لسان
البطلة :

« وبعد .. فقد سمعت الصدى ولم تسمع الصوت ، وأحسست الوجد
ولم تمس النار ، وعرفت الجملة ولم تعرف التفصيل ، والحال كما ترى تشدد
ولا تخف ، وتستحكم ولا تتفرج ، فهل عندك لقصتي مسامح ولأزمتي فرج ؟ »
والزيات يقول في موضع آخر من القصة نفسها :

« وانقسمت الاسرة بحكم الطباع والفرائز إلى فريقين بيني وبين القنصل ،
فريق الخير وفريق الشر ، أو فريق النور وفريق النار ، أو فريق المعنى
وفريق الحس ، فالبنات وأمن فريق ، والبنوت وأبوهم فريق ، ففي
غرفتي تجتمع نورا وأختاهما ومعهن الكتاب والبراءة ، وفي غرفة السيد
بكبير يجتمع لباس وأخواه ومعهم الشراب والزينة » .

ويقول الاديب الكبير في صدر فصل من كتابه « الدفاع عن البلاغة »
ما نصه :

« آفة الفن الكتابي أن يتعاطاه من لم ينهياً له بطبعه ، ولم يستعن
عليه بأداته . وأكثر المزاويل اليوم لصناعة القلم متطفلون عليها ، أغراهم
بها رخص المداد ، وسهولة النشر وإغضاء النقد ، فأقبلوا بتملقون بها
الشهرة ، أو يزجون بها الفراغ ، أو يطلبون من وراءها العيش ، وكل
جهازهم لها ثقافة ضحلة ، وقريحة محلة ، ومحاكاة رقيقة . ومن هنا شاع
المبتذل ، وندر الحر ، ونفق الرخيص ، وكسد العالي ، وكثر الكتاب ،
وقلت الكتابة » .

ألا بورك بالأديب الكبير وبورك لنا بالمديسة في عمره ، ونفعنا الله
بالمزيد من غوره .

الدكتورة عاتكة الخزرجي
كلية التربية ، جامعة بغداد

لألاء القمر :

الدكتورة عاتكة الخزرجي الاستاذة في كلية الآداب ، أديبة باهرة
وناقدة بارعة وباحثة ناجحة ، وهي إلى ذلك شاعرة رقيقة المواطف
مشهورة الاحاسيس أنيقة الأسلوب ، وفي قصائدها أقباس من الوجد
وأنفاس محترقة من الحب الإلهي في لفظ منمق ، ونغم موزن ووشى هو
السحر الحلال . نشأتها دراسة متصلة تدرجت بها وقطعت مراحلها بتفوق
حتى تسلمت قمتها ، وتسلمت شهادتها العليا من السوربون . وخرجتها
ممارسة في النظم والنثر ومعاملة في الدرس والاطلاع على محصول الإنسانية
للآداب الحديث والقديم . طبع أسلوبها الرشيق على الطريقة المثلى في فن
القول . أخرجت ديوانها (أنفاس السحر) فقدم له الشاعر الكبير عزيز
أبازة ، وطبع ديوانها الثاني (لألاء القمر) فقدم له الاستاذ الزيات .
والدكتورة عاتكة كثيرة الاعجاب بأدب الزيات ، كتبت عنه وهو حي ،
وأبنته بعد وفاته ، وثمنت أدبه ، وقدرت أثره وخدمته للغة العربية
وآدابها . والمقدمة صفحة رائعة من انشاء الزيات الممتع الرشيق ، رأيت
أن أثبت نصها لصلتها بموضوع الكتاب ، فهي جانب من جوانب أدبه
في العراق :

« هذا الديوان الثاني من شعر الدكتورة « عاتكة الخزرجي » استاذة
الأدب بكلية الآداب من جامعة بغداد ، صدر منذ أسابيع في القاهرة

وقد قدم له الأستاذ رئيس التحرير بهذه المقدمة (١) :

« في الكرخ نشأت ، وفي الكرخ تعيش ، والكرخ منذ تعطر جوه الصافي بأنفاس الملائكة يسبحون بالجسمال وينفون بالحب على أسنة المصطفين الأخيار من المتصوفين والزهاد ، الذين اجتسبهم الله ليكونوا حقيقة لشريعته ، وشريعة حبه ، لا يزال مبعثاً للحب الإلهي المجرد ، وصرحاً للجمال الروحي المطلق ، ومشاراً للذكريات « الجنيد » و « الحلاج » و « معروف » وأضرابهم ممن يتشعلون جمال الله في خلقه ، ويعبرون عن حيمه إياه ، وفنائهم بالرمز الموحى ، والفزل المثير ، فينتشي بباطنه الزاهد ، ويلتقي بظاهره الماجن ، والقصور إنما هو في اللغة المحدودة التي لا تستطيع أن تعبر عن معاني الروح إلا بالفاظ الحس ، ولا أنت تتصور مداخل النفس إلا بمخارج الحروف .

فبينما كانت الشياطين في الرصافة تنزل بالفزل الجسدي الشوان ، على القيان والمجان ، فيجدون الألفاظ الطيبة والتراكيب السمحة ، كانت الملائكة في الكرخ تنزل بالمواجد الروحية والاحاسيس العلوية على العباد والزهاد ، فلا يجدون الكلمة المواتية ، ولا الجملة الدالة ، فيصطنعون لغة بشتار وعباس وأبي نواس ، فينعمتون المرأة ، ويصفون الخمر ، ويذكرون السكر والعشق والشوق والغناء ، يرمزون بذلك كسبه للمعبود الأزلي الأبدى الذي لا يحيط به علم ، ولا يتعلق به وهم ، ولا تعبر عنه لغة ..

فإذا جمعت الى ذلك أن « غانكة » صريحة النسب في العروبة ، فأبوها خزرجي وأمها عبيدية ، وأنها عريقة النزعة في الصوفية ، فجدها

(١) مجلة الأزهر أكتوبر ١٩٦٥ .

كان يقرض الشعر الصوفي ، وأبوها كان بكثير من المحفوظ منه ، وأنها قوية الفطرة بحسب الطبع والوراثة والبيئة على استقبال مواحي الحب واستكناه أسرار الجمال ، أدركت سر هذا التفتح الذهني الباكر في التهيئة عاتكة . وهي على ضيوات الذكر في مغاني الكرخ ، وشدوات الظير في أعالي النخل ، وصفقات الماء على غوارب دجلة . كان شعرها في هذا الطور إرهاب شاعر ، ودندنة قيثارة ، ومقسمة بلبل ؛ ثم لم يلبث أن صار بقوة السليقة وشجاء القريحة وقبض الخاطر وعمق التأمل واكتمال الاداء ، أغاريد صباية ، وأنشيد حماسة ، وتراتيل أرغن ، وتسابيح صلاة . إن المينابيع السافية الثرة التي ارتوى على فيضها واغتدى على جنانها شعر الدكتور عاتكة ، هي : الله والطبيعة والنفس والينبوع القدسي ، هو أندى على كبدها وأروى لشعورها من الينبوع النفسي والينبوع الطبيعي ، لأنها حين تصف النفس أو تصور الطبيعة يتمثل فيها بديع السموات والارض الذي أحسن كل شيء خلقه ، ومنح كل جميل جماله :

بالذي رقرق الصباية في القلب ووشى بالحب انشاء نفسي
والذي أبرأ الحنايا وأصفى ها صفاء الأنداء في ضوء شمس
أنت عندي معنى به أجد الله حيالي في الصبح أو حين أمسي^(١)

وإذا تقسم هواها خواطر النفس ، وظواهر الحس ، فقالت في النخل والنهر ، ونوحت بالوطن والانسان ، وغنت بالحب والحبيب ، فذلك لأن الحب من طبيعة قلبها ، يصدر عنها كما يصدر العبير عن الزهر أو النور عن السراج ، لا يقصد به سمعاً بعينه ، ولا بصراً بذاته ، إنما هو الحب للحب ، والعبق للعبق ، والفناء في الوجود ، واللذة في الألم . وكثيراً ما يضيق جسدنا المشغوف بقلبها المشغوف كما يضيق الغلاف البلوري الشف بوهج المصباح المحرق ، فتقول :

(١) ديوان انقاس الشعر .

أنا أهواك يا دنيائي أم ذلك قلبي شأنه العيش ولا عيش لمن دون حب
 أنه يحيا ... وإن كان بحياه عذابي سادراً نشوان يحسوا الخمر من كرم شباب
 إنه ريان لا يعنيه من يشكو الأواما آه لو حطمتها حتى ولو كنت الخطاماً

إن الشبابة من قصب ، ولكن اللحن من نار ، فكلماتا دفقت فيما
 من روحها ذاب قلبها في حبها ، فتنن أو تحن أو تشكو أو ترجو أو
 تشور بألفاظ منسقة كالنغم ، موزقة كالزهر ، صمقة كالوشى . تسري
 فيها المعاني الشاعرة سرعان الذبابة في الرحيق ، أو الفوحة في الطيب ،
 فأسلوها نسق مطرد من الفكر والخيال والعاطفة ، يصقله طبع وذوق ،
 ويقومه درس وإطلاع ، فلا تجد فيه ما تجد في أكثر الشعر النسوي
 من قلق في لفظ ، أو نبوءة في قافية ، أو غوص في معنى ، أو تجوز
 في قياس ، أو شدوذ في غرض . ولقد وقاها كل ذلك تنشئة عربية
 قوية ، ودراسة أدبية عميقة ، ومراعاة فنية طويلة ، وحساسة متخيرة
 من روائع الشعر الخالد ، طبعتها على الأسلوب الصحيح ، وهنتها إلى
 الطريق الواضح ، وعصمتها من الزيف الذي أصاب نفرأ من الشعراء
 والشواعر ، فسموا المعجز قناً والنثر شعراً والقوضى طريقة . فهي تتصرف
 في المضمون الشعري تصرف الفنان المتطور الحر الذي يواكب ركب
 الحضارة ، ويتعمق أسرار الطبيعة ، ويتقصى أطراف المجتمع ، ويدفع
 المتخلف بفكره إلى امام ، ويرفع المستبد بشعره إلى فوق . ولكنها تقف
 في الشكل الأدبي عند الخصائص التي تميز أدباً من أدب ، وتفصل جنساً
 من جنس . فهي تعدد في الأوزان ، وتنوع في المقوفا في حدود الأوتار
 الستة عشر التي تتألف منها قيثارة الشعر العربي .

وما كان لابنة بغداد ، وفتاة العروبة ، ومريدة الحلاج ، وصاحبة ابن
 الأحنف ، ورديبة المعلمين ، وخريجة السربون ، وأستاذة الأدب ، أن

تتذكر لأدبنا ، وتتمرد على شعرنا طمعاً في اقتحام الأدب من الباب الخلفى ، واكتساب الشهرة بالرأى المخالف ، فإن موهبتها الأدبية ومنزلتها الاجتماعية وثقافتها الجامعية وتناجها المتصل لتربأ بها عن التحلي بالعطش ، والتفرد بالشذوذ .

تهيأت لي الفرصة مرتين أو ثلاثاً للقاء صاحبة « أنفاس السحر » و « لآلئ القمر » بالقاهرة .

وكانت اللقيا الأولى وهي على وشك الرجوع إلى بغداد فلم يكن بين السلام والوداع إلا بعض ساعة ، تبادلنا فيها التحايا ، وتهادينا الكتب وتذاكرنا الأدب بالقدر الذي يشير ولا يعرف . ثم عادت إلى الكرخ وفي نفسها أن تزيدني معرفة بها ، وعلماً بأدبها ، فكانت ترسل إلي ما تجيد من شعر ، وما تصدر من بحث ، فأشره في الرسالة ، ومن طريق هذا الاتصال الأدبي المتجدد استطعت أن أعرف أي كاتبة كانت ، وأي شاعرة تكون .

فأما الشاعرة فلعلك تستخرج رأيي في شعرها من جملة هذه الكلمة ، وأما الكاتبة فالامر بينهما وبين الشاعرة جسد مختلف . الكاتبة تستمد موضوعها من الحقيقة التي يشتمها العلم ، ويؤيدها المنطق ، وبصقلها الطبع ، فالتعبير عنها واضح لا مبهم ، مفصل لا مجمل ، مقيد لا مطلق ، مجسد لا مجرد ، كما تراها في كتابها القيم عن العباس بن الاحنف . والشاعرة تستقيط شعرها في الغالب من وعيها الباطن لا من حسنها الظاهر . فهي تعبر عن حب لا صورة له ، وعن معنى لا ذات فيه ، وأحياناً يدق الخيال ويردف الحس ويصدق الحدس ، فيجتمع في غزلها وضوح الصورة ودقة العبارة وقوة التأثير . فيقول الناقد الذي لا يؤمن بصوفييتها : إنها تدخل في الغزل باعتباره باباً من أبواب الشعر لا يجري من مجاري الشعور ، فهي تعبر بالفن لا بالوحي ، وتؤثر بالصنعة لا بالطبيعة ، ومهما

يكن الاختلاف في عانكة بين المكاتب والشاعرة ، فأنت لا يتطرق إلى
بلاغتها في الحالتين وبراعتها في الصناعتين ، وقديماً قالوا إن إجادة النثر
والشعر قلما تتفق لأحد ، وصاحبة الأنفاس من هذه القلة .

أما اللقيا الثانية فكانت منذ أيام في فندق البرج على النيل ، وكان
قد مضى على اللقيا الأولى قرابة عام ، توثقت فيما بيننا صلة الأدب بما
تحدثت عني في الرسالة والإذاعة ، وبما قرأت لها من المقطعات والمقالات .
فلما التقينا ، التقينا على ألفة ، وجرى بيننا الحديث كأنه صلة حديث انقطع لا
بداية لحديث نشأ .

ثم أخرجت من حقيبتها مخطوطة ديوانها الجديد « لآلاء القمر » ،
وأخذت تنشدني بعض مقطعاته ، وأقول (تنشدني) لأن إلقاءها المطرب
المعجب ، بصوتها الرخيم وجرسها الواضح ، ونبرها المجهور ولهجتها المعبرة ،
كان أشبه بالحن الموسيقي في حسن تنويعه ، فإذا أضفت إلى ما تسمع
بعض ما ترى من ألفة في الشكل ولباقة في الدل وسحر في الجاذبية ،
تذكرت أو تصورت « ممي » وهي تحدثك حديثها الشهي الذي يمتزج
بالقلب والروح ويتصل بالعقل والعلم ، وتيقنت أن الله جل شأنه لن
يخلي دنيا العروبة من (ممي) ما دام في الأرض حياة ، وفي الناس حي .

من ذكريات بغداد

نشر الاستاذ الزيات ثلاث مقالات بمجلة العربي الكويتية في الاجزاء ٤١ و ٤٢ و ٤٣ من سنة ١٩٦٢ ، اشتملت على ناحية خاصة من حياته التي قضها في بيت أسرة مسيحية معروفة ، وله عليها صديقاء رفائييل بطي صاحب جريدة البلاد ويونس بحري صاحب جريدة العقاب ، وحبذا له العيش في هذا المنزل القريب من وسط العاصمة ، لا يبعد كثيراً عن مدرسته إلا مسافة يقطعها ماشياً بدقائق ، والسكنى مع هذه العائلة توفر عليه كثيراً من النفقات التي يتطلبها الفندق ، وتوفر له الهدوء وراحة البال وتبعده عن ضجة الفنادق واغلاقي الزوار ، والكتاب والمدرس المعثوب يحتاج إلى كل ذلك ولا سجا وهو يعيش مفرداً لم يصطحب زوجته . والأسرة التي أقام عندها الزيات أسرة مريحة مفتوحة خدومة . ولا حاجة لي لشرح أحوالها وقد أغناني عن سرد خافيتها وبادها قلم الزيات ، فلأترك له الكلام :

* * *

في سنة ١٩٣٢ ، وهي السنة الأخيرة من سني الثلاث في بغداد كنت أعيش في أسرة مسيحية تؤث في دارها الوسيلة غزفتين أو ثلاثاً لينزل فيها من تصطفهم من نزلاء العاصمة .

كانت هذه الدار كسائر دور بغداد تتألف من طابقين يدوران على

فناء سماوي رحب ، يشتمل الأسفل على ردهة بسميها العرافيون « طارمة »
وسرداب أصمّ تلوذ به الأسرة في الصيف من وقد الحر ، ومرافق
الدار من حمام وسقاية ومطبخ . ويشتمل الأعلى على بهو فسيح الأركان
فخيم الأثاث ، تغطي أرضه مجموعة متخيرة من سجاجيد إيران ، وتزين
جدرانها ونوافذها طنافس الحرير وستائر الخمل ، ويتصدره « بيان »
عريض نضدوا عليه تحفاً من تماثيل المرمر وبراويز الأبنوس ، ونثروا
على الكراسي القريبة منه آلات الموسيقى من عود وكمنجة ودف وناي .
ويتوسطه منضدة دقيقة الصنع أنيقة المنظر ، قد وضعوا عليها ما يحتاجه
لاعبو « البردج » و « البوكر » ، ثم يشتمل بعد ذلك على ثلثي غرف
لنوم الأسرة والنزلاء ، تتلاصق وتتناسق في صف واحد على ممشى دائري
يطل على الفناء ، وقد صفوا على حواشيه مقاعد طويلة أو قصيرة لمن
يريد أن يتصل بالسماء ، أو يستمتع بالهواء ، على نحو ما تجد على ظهر
الباحرة (١) .

أما الأسرة فكانت تتألف من زوجين كهليين ومن ثلاث بنات وثلاثة
بنين . وكان سر الوراثة الذي يجعل من الزوجين الاسودين من الكلاب
الظليقة ستة جراء فيها الاسود والابيض والأبقع والأصهب والاعير
والأشهب والأشقر ، قد جعل من هؤلاء الأولاد الستة تشكيلة عجيبة
من الصور والألوان والطباع ، لا يشترك في شيء منها أخ وأخ ، ولا
أخت وأخت ، ولكنهم يشغفون جميعاً في الأولاع بالموسيقى والنبوغ في
العزف على آلاتها المختلفة .

(١) هذه البيوت المقورة المكشوفة الفناء كانت هي الشائعة في بغداد القديمة . أما اليوم
فقد شاع الطراز الغربي ، واختفى السرداب والحوش المكشوف واستعوض عنها بوسائل
التبريد الحديثة .

فيوسف الاخ الاكبر ، يهدف للرابعة والعشرين من عمره ، أزهر اللون ، أشقر الشعر ، مشوق القامة ، قسيع الوجه ، ينظر فيكسر من عينيه ، ويبتسم فيضم من شفتيه ، ويتكلم فيفيض من صوته . قاولا أن الشعر قد أخذ ينبت على عارضيه وشاربه لقلت إنه فتاة في رونق الشهاب وميعة الانوثة . يعلم الموسيقى في المدارس والبيوت ، ويعزف الالحان في السوامر والاندية .

وكان « ألفريد » طريده في العمر ، قمحي اللون تشوبه صفرة الخمر ، مليح القسعات ، تشيع فيها جاذبية قوية ، أسود الشعر ، تجتمع منه خصلة على جبينه المصقول قد قرّقا عند فوده الایسر ، في قده طول ، وفي صوته غنة ، وفي حركاته مرح ، وفي هندامه أناقة . وهو لا يزال طالبا في إحدى المدارس الثانوية الفرنسية . بينما « ألبير » أصغر الأخوة ، وضئ الطلعة ، شاحب اللون دقيق البدن ، يسيل شعره الاصفر المغدود من وراء أذنيه على قذاله ، هادي ، الطبع خفيف الظل شاعري العواطف ، يقعد ، على الرغم من صغر سنه ، مسح أخيه الاوسط في فصل دراسي واحد .

أما البنات فكانت عند نزولي على الاسرة اثنتين ، « مرجريت » وهي فتاة في ربيعها السابع عشر ، مسنونة الوجه ، مرسلة الشعر ، طويلة العنق ، مسحاء الثدي ، تميل إلى الطول ، وتقف وسطا بين النحيفة والبدينة ، ولعل محياها المطموس لا يوحى اليك شيئا من ذكاه ، أو أثرا من عذوبة ، ولكنك إذا جالسها أو لابسها لا تعدم أن تسمع منها حديثا يتع ، وأن ترى فيها خلة تعجب .

وثانيتها « جورجيت » صغرى الاخوات ، صبية لا تزال في عمر البدر ، مطهمة الوجه ، بضة البشرة ، ممتلئة البدن ، في جفنيها انتفاخ .

وفي شفيتها غلظ . ولكنها على قلة حظها من الجمال ، لطيفة الروح ،
فكهة الحديث ، مفرحة الطبع ، تتكلم ولا تستحي ، وتزج ولا تعف .
وهي مع أختها الوسطى بمدرسة أمريكية للبنات في حي « باب الشيخ » .

تلك هي الصفات البارزة المميزة في أولاد هذه الأسرة ، رسمتها
خطوطاً مجردة من غير تظليل ولا تلوين ، لتبين على التقریب الفروق الخلقية
بين بعضهم وبعض . وإذا كان شكل الجسم من الحسن والقبح ، ومن اللطف
والغلظ ، يتم عن طبيعة الروح من الخير والشر ومن الطيبة والخبث ،
فإن هؤلاء الأولاد من بنين وبنات ، يختلفون اختلافاً بئساً في الخلق
والطبع والسلوك والتزعة . فمنهم المخادع الحصيف الذي يسعى المال من كل
طريق ، والمماجن الظريف يطلب اللذة من أي نوع ، والفنان الرقيق
الذي يعيش الجمال في أي صورة ، ومنهم الساذجة السهلة التي تصدق كل
خبر ، وتفتشي كل سر ، وتلي كل طلب ، ولا يهمها أن تخرج مع سيد
أو خدام ، والطائشة الوقحة التي جعلت همها اللعب والحلوى ،
ودأبها العبث والضحك . ولا يختلف عندها أن قتال ما تريد بالحق
أو بالباطل .

لا يمكن أن تنشأ في هؤلاء الأولاد هذه الفروق الظاهرة والباطنة
من فعل الوراثة القريبة المباشرة ، فإن الوالدين يعقوب وماري لم يجعرا
في أخلاقهما الشيء ونقيضه ولا المعنى وضده .

فالزوج من رجال الأعمال المجددين ، يتصرف لعياله في التجارة ،
يتقلب من صنف إلى صنف ، ويضطرب من أرض إلى أرض ، لا يدخر
جهداً ولا يضيع فرصة ، يصدر الحيلود والتمور ، ويستورد الآلات
والسلع . لا يتقيد بصنف واحد ولا بملك معين . وإنما يتقيد بحساسته
التجارية التي تهديه إلى سلعة اليوم وحاجة المستهلك . له مخزن للحفاظ

وليس له متجبر للعرض . وسنبيله في البيع أن يستعين بالوصولية
والميكافلية على إقناع ذوي النفوذ في الوزارات والشركات أن يشتروا
بضاعته جملة .. وهو من مخلفات العهد التركي في العراق ، يتكلم
التركية ، ويلبس الطربوش ، ويحسن إحناء الظهر عند السلام ، ويتقن
إذابة الملق في الكلام ، ويعرف كيف يدخل إلى هواك ورضاك من
الباب الذي يؤدي . والزوجة من ربات البيوت الصالحات ، يظهر عليها
كلال الستين الخمسين ، وعناء الحياة العاملة . وهبت نفسها لخدمة زوجها
وبناتها ، لا تكاد تخرج من البيت ولا من المطبخ . على أن كثرة عملها
وطولها لم يحميا جسمها من الشيخم ، فتراكب لها واسترخى ، ثم
اعتراها على الكبر صدم خفيف ، فزهدت في الاجتماع بالناس ، واكتفت
من نعيم دنياها برؤية أولادها وزوارها ، يشلون على عينها الجانب البهيج
المرح من الحياة . كانت لا تشارك في الحديث لأنها لا تسمع أكثر
ما يقال ، ولا تدخل في اللهو لأنها لا تعرف أكثر ما يلعب ، إنما
كان دورها في حفلات الدار أن تعد الحلوى ، وتهي المزة ، وتقدم
الشراب ، وتعنى براحة السامرين والسامرات ، فلا يشوب صفوهم كدر ،
ولا يدرك طوهم نقص .

كانت «ماري» طيبة القلب ، ولا تكبره حتى العسود ، وكانت
سمحة القياد فلا تعارض حتى في الضرر ، وكانت ضيقة الثقافة فلا تنظر
حتى في الضحيفة . كان مصدرها الوحيد الذي تستقي منه العلم والخبر
والرأي هو زوجها يعقوب حين يخلو أحدهما إلى الآخر في غرفة الطعام
بعد انصراف الأولاد كل إلى شأنه .

كانت هذه الدار بعد ضجة الصباح وخروج الوالد وأولاده إلى العمل
أو إلى العلم ، تسكن سكون الدير ، وتوحش وحشة الطفل فلا تكاد
تسمع صوتا ولا حركة .

كانت السيدة والطاهي يعملان في صمت ، وكانت الخادمة والخدام ينظفان في سكون ، وكنت أنا في الغرفة أو في الشمس أقرأ أو أكتب أو أنام . ثم تعود الحياة فتنتعش وقت الغداء ، ولا نلبث أن تهمد . فإذا أقبل الليل أمست الدار ، ردهتها أو سردابها أو بهوها على حسب الفضول ، فقصفا لا يشبع من القصص ، ومقصفا لا يفتر من المعزف ، وناديا لا يكف عن اللعب . يوسف يدق بأنامله العشر على معزف البيان ، وألفريد يغمز بريشته المرهفة على مضرب العود ، وأليير يمر بقوسه المشدود على أوتار الكمنجة ، ومرجويث وصواحبها من حسان الجيران والأقارب يراقصن الزائرين والمدعوين . فلا تخرج إحداهن من ذراع شاب إلا لتدخل في ذراع كهل . وفي الأركان المختلفة من الصالون يجلس هنا بعض أصحاب النفوة في الوزارات أو الشركات ، يقارعهم يعقوب الكأس ، ويفاوضهم في صفقة ذات وجهين من صفقاته العظيمة : وجه لهم ووجه له ، ويحتمع هناك بعض أرباب اللهو من الشباب : يعابثون الفتيات ، ويتسابقون إلى قلوبهم بالنظرات المعبرة والكلمات المغرية ، وبين هنا وهناك تجلس مع الأم امرأتان أو ثلاث بمن ودعن الصبا والغزل ، يثرثن في أخبار النساء وأسرار البيوت ، ويقبل علي رجلان أو ثلاثة ممن قصد بهم الحياء على هامش الحفلة يخوضون في حديث الأدب والسياسة .

فإذا انقضى الهزيع الثاني من الليل ، وقضت النفوس حاجتها من اللهو العازف والراقص ، انصرفت طائفة ، وتحلقت طائفة أخرى حول مواقد الحظ يلعبون « البوكر » ، ويتبادلون السعد والنحس ، ويتقارضون الرضا والسخط . والمتفرجون من الرجال والنساء ينظرون « الفيشات » تتجمع وتنفرك أمام اللاعبين كأنها كشيان الرمل في يوم عاصف تنقلها رياح الصحراء من هنا فتكومها هناك ، فيبتج قوم ويكتشب آخرون ،

الا الزوجين يعقوب وماري ، فقد كان ابتهاجها لا ينقطع ، لافي الريح ولا في الحسارة ، لان حصاة المائدة من القمار (الوار) كانت تضاف إلى حصيلتها في كل دور على أي حال ..

وهكذا كان صاحب الدار ، بفضل بنية وبنائه ، يستفيد من طائفة الزائرين جملة من الوعود يروج بها سوقه ، ومن طائفة المقسامرين حفنة من النقود يصلح بها أمره .

ثم عرج الزيات على وصف قنصل لدولة من الدول الإسلامية كانت يسكن في الجهة الجنوبية من الطابق الاعلى . من غرفة نائية كانت تحمر في أكثر الليالي ، لم يجد الزيات من نفسه دافعا إلى أن يصل ما بينه وبين ذلك القنصل بسبب المودة ، وربما كان منشأ ذلك النفور سلوك ذلك القنصل المبتهل بالشذوذ والقذارة ، وليس له علاقة بالقصة أو بالاسرة ، لذلك لا أجد داعيا لفصح أمره وان كان الاستاذ الزيات لم يتحرج من كشف حاله ، ثم قال الزيات :



حبيبك ما ذكرت من التعريف بالدار والاسرة ، ولعلك قد تهيات الآن إلى أن تسمع القصة :

في فترة القيلولة وهي فترة يخشع فيها الصوت والحركة عادة في جميع البيوت ، ولكني لم أكد أجتاز الدهليز الطويل المظلم حتى رأيت الردهة المهجورة قد أخذت زخرفها من الوجوه الحسان من الجفسين ، والضحكات الرقاق والغلاظ يتجاسون فيطردن الوحشة عن صحن الدار ، والام وأولادها يخطرون في زينتهم بين المقاعد ، يؤهلون ويرحبون بالزوار . فألقيت على الحضور نظرة عابرة ، ثم أومأت بالتحية الخاطفة إلى من

وقع بصري عليهم من أعرف ، وأخذت طريقي إلى غرقتي الخاصة .
وبعد قليل أقبلت الخادمة على عاداتها تحمل إليّ دورقاً من الماء المثلوج ،
فسألتها عن سبب هذا الحفل في هذه الساعة ، فقالت : إنّ الأنة
«نورا» قد عادت من دمشق منذ ساعتين ، وقد قدمت معها عمتها
وبنائها ، وهؤلاء هم مستقبلوهم من الأقربين والمحبين والمعجبين ، وعددهم
يزداد من لحظة إلى لحظة .

«نورا» آه ، لشدة ما لهجت ألسن الأسرة بهذا الاسم ، ولطالما
تحدث الزوجان بإسهاب وإعجاب عن صاحبة هذا الاسم . لقد عرفت
عن «نورا» بالسمع ، مثل ما أعرف عن مركريت وجورجيت بالعيان ..
عرفت أنها البنت الثالثة الكبرى ، وأنها تطلب العلم منذ أربع سنوات
في مدرسة ثانوية للراهبات في دمشق ، وأنها تقيم مع عمتها بباب ثوما ،
ولم تعد إلى بغداد زائرة منذ عامين ، وأنها على حظ عظيم من الجمال والذكاء
والعقل والحساسية والانوثة ، قلما تؤثّر فتاة في سن العشرين ، وأنها
مخطوبة بالوعد لشاب من موظفي البنك العثماني عرفته فيمن يكثر
التردد على مجلس هذه الدار ..

لم أجد في نفسي الرغبة الملحة في أن أنزل لأهني الأسرة بقدميها
وأشارك القوم في الاحتفال بها ، فقرأت قليلاً ، ثم نمت . وفي المساء
عاد الحفل فانتظم في البهو الواسع ، فدخلته فيمن دخل ، وقبّلتني إلى
الآب يعقوب ابنته «نورا» ومن قدم معها من قريباته ، فسلمت الفتاة
في استحياء ، وغضت من بصرها وهي تتمم بالعبارات المألوفة عند
السلام والتعارف .

لم تبدأ هذه الليلة كسائر الليالي بالرقص والحز ، لتنتهي كالعادة
بالوجوم والقمر ، وإنما بدأت وانتهت بالأنس الخالص واللهو البريء .

تشاجن فيها الحديث عن موضوعات شتى في العبادات واللاهيات بين سوريا والعراق ومصر ، وكان جلّ الحديث واقفاً على العممة اللبقة التي تدبر فبندقاً كبيراً في سرة دمشق ، وعلى تاجر فكه يكثر التصرف والتقلب في أقطار العروبة .

وكانت «نورا» كالعروس على المنصة : تسمع في صمت ، وتتنظر في خفر ، وتتكلم في وقار ، وكنت أنا مثبت العينين مفتوحهما في وجه «نورا» لا أكاد أطرف ، مصيخ الأذنين مرهفهما إلى حديث المتحدثين ولا أكاد أعي . كان وجه «نورا» جملة من القسبات الحلوة ، والملامح المعبرة في صورة من الفن الإلهي المبدع ، لا يقع مثلها في الإمكانيات لإزميل مثقال ، أو ريشة مصور ، أو قلم شاعر . ولا تظن فيما قلت مبالغاً من زخرف الحديث ، فإن كل من رآها يعترف بأنه لم يجد لها مثيلاً فيما رأى أو سمع ، وليس لإقبال الشباب أو الكهول على الاحتفال بها والارتياح لها سرٌّ ، إلا جمالها الفائق وجاذبيتها الطاغية .

ربما لا يجد المتحدلقون من خبراء الجمال جسمها منطبقاً على مقاييس الفن إذا أخذوه عضواً عضواً ، ولكن الروح التي تثبت فيه ، والفطنة التي تنبعث منه ، والعذوبة التي تهيم عليه ، شيء يسمو على المقاييس ، ويخرج من دائرة الفن . لم أكن أنا وحدي الذي انعقد نظره بوجه «نورا» واشتغل قلبه بحسنها ، وإنما كان أكثر الجالسين ينقلون أبصارهم عند الضرورة من شخص إلى شخص ومن شيء إلى شيء ، ثم يعودون فيضعونها على محبّا «نورا» . أما الأم فقد كان يظهر من نظراتها وبسائطها أنها تقيمه على النساء بأنها ولدت هذا الحسن . وأما الأب فقد كان يبدو ، من هيئته ولطيفته ، أنه يفخر على الرجال بأنه أوجد هذه الفطنة . وأما الخطيب فقد كان يلوح ، من حركاته وكلماته ، أنه يزهي على الشباب بأنه استأثر بهذه التحفة .

ولندع بعد ذلك الحوادث تتوالد وتتوالى في الأيام التي ستمتدح على هذه الليلة .

أصبحت « نورا » مركز الجاذبية في الدار ، فحيثما تكن يتهاقت عليها الناس من العشيرة والخيرة ، وكانت لهذا التهاقت في الأيام الأولى أسباب تختلف باختلاف السن والطبع والحالة .

فالاختنان وأترابها كنّ يتطلعن إلى أن يعرفن منها ما استحدثت من ضروب الزي والزينة في سورية ولبنان ، والآخوة ورفاقهم كانوا يتوقون إلى أن يسمعوها شيئاً من صباوات الشباب وسفاوات الهوى في دمشق وبغروت ، والوالدان وأقرباؤها كانوا يحاولون أن يكشفوا سرّ هذا التغير الذي طرأ على نفس « نورا » فهي لا تنشط لحديث ، ولا تهش لزائر ، ولا تنبسط للهو ، وكان عهدهم بها أن لسانها الخلو لا يكف عن الدعاية ، وأن وجهها الطلق لا يفتر عن الضحك ، وأن روحها اللطيف لا يتقبض عن الأنا .

وكنّت لاحظت ، وأنا بعيد ، أن الصلات الواهنة بين أعضاء هذه الأسرة قد عادت إلى طبيعتها من الأحكام والوثوق منذ عادت هذه الفتاة . كان أفراد هذه العائلة أشبه بنزلاء الفندق ، يضمهم بناء واحد ، وتجمعهم مائدة واحدة ، ولكن لكل منهم حمله وبديته وخطته وجهته وغرضه . فلما عادت « نورا » كانت كالخيط الذي ينظم العقد المنتثر ، والروح الذي يمسك الجسد المنحل . ولعل السر في ذلك أن المرء بطبعه يحب في غيره ما ليس فيه . فالجبان يحب الشجاع ، والقمبيح يحب الحسن ، والهيبوب يحب الجريء ، والعيني يحب الفصيح . ولهذا كان الأبطال يحبون الأبطال والآلهة . والله قد كمل « نورا » بما نقص أهلها من جمال الجسم والروح ، فهم يحبونها جميعاً ، ويرون فيها الجزء المانم لكل منهم ،

والحب سر التجاذب ، والتضام في الكون كله ، هو الذي يجعل من حبات الرمل جبلاً ومن قطرات الماء بحراً ومن أفراد الناس أمة .

لم أر «نورا» قبل اليوم حتى أدرك ما أدركوا من الفروق بين ما كانت عليه وما صارت إليه ، إلا أن ما رأيت منها كان يختلف كل الاختلاف عما سمعت عنها ، كانوا يقولون إنها بهجة الدار ، وزينة البهو ، وروح الحديث ، ولحن البيان ومرح الرقص . ولكني أراها منذ قدمت ساهمة الوجه تطيبيل السكوت ، مضطربة البسال تطلب الهدوء ، ضيقة الصدر تؤثر العزلة . وعبتنا حاول أهلها أن يوقفوا فيها رواقد اللهو ، وأن يشعروها أن يجانبها خطيباً برّح به الشوق ، وتقل عليه الانتظار . فمن حقه أن يجلس إليها وأن يخرج معها . وأقام أبوها حفلة ساهرة في الطابق الاسفل من الدار . وكانوا قد أنزلوا إليه الفرش والاثاث من الطابق الأعلى في أواخر مارس حين يبدأ الصيف في بغداد . وينقلب البيت قريباً من غير وقود ، والهواء لها من غير دخان ، فقصت الردهة والفناء والسرداب بالمدعوين من رجال المال والأعمال واللهو ، تصحبهم نساؤهم وبناتهم في بزاتهن الجميلة وزيفتهن الرائعة . وكان الخواجة يعقوب قد أراد باقامة هذه السهرة الراقصة أن يحتفل بأخته السيدة (صوفي) ويرجو من وراء ذلك أن يدخل الانس على قلب «نورا» وأن يخرج إلى النور بعض السلع التي طال عليها الرقاد في ظلام الحزن . وكانت منية النفس لكل حاضر أن يظفر من «نورا» بكلمة أو جلسة أو عزقة أو رقصة . ولكنها الأمر ما أعرضت عن الاركان الصاخبة في الحفلة ، وأقبلت على عجائز أمها فجلست اليهن قليلاً ، ثم انتقلت إلى الركن الهادي الذي أجلس فيه مع الاستاذ رفائيل بطي عميد الصحافة العراقية وبعض المتأدبين من الشباب ، وأخذت مجلسها يجاني .

وكان الاستاذ رفائيل (عليه الرحمة) واسع العلم بأحوال البلاد العربية

ورجالها ، فلا يغيب عن ذهنه خبر ولا أثر من أي كاتب أو شاعر أو أديب في مصر ولبنان وسورية . فكان الحديث بيننا شجوناً من النوادر والطريف ، أخرجنا من جو الحفلة . فلما انضمت اليها « نورا » ، اتجهت نحونا الانظار ، ف شعرنا ثانية بأننا أفراد من هذا الجمع المضطرب في اللهم والانس ، فلا بد أن نرجع إليه ونشارك فيه ، ولكن « نورا » آثرت أن نخوض فيما كنا فيه من الحديث عن مصر ، قالت أحب الاحاديث إلى قلبها ، كما تقول ، ما اتصل بها وبأهلها ، وانها لتعرف عن أخبارها وأسرارها أكثر مما تعرفه عن أي بلد آخر . وأخذت هذه الفتاة المنقبضة الصوت تبسط أسرار وجهها بالضحك ، وتحل عقدة لسانها بالكلام ، وتروي الخبر بعد الخبر ، وتورد التكنة بلهجة مصرية لا يشوبها إلا نبرات بسيرة من لهجة دمشق . فقلت لها ، وأنا لا أمك نفسي من الدهشة : هل زرت مصر كثيراً ، وعشت في القاهرة طويلاً ؟ فقالت في نبرة تتم على الاسى والاسف : « لم يكتب لي الله هذه السمادة بعد » . قلت لها : إذن كيف تهيأ لك أن تعلمي هذا العلم ، وأنت تتكلمي هذه اللغة ؟ فتشاغلت عن سؤالي بغممة خافتة ، ولم ترد أن تجيب .

وكان كلامها وضحكها قد ظهر أثرهما على بعض الوجوه ، فعجبوا أن تستوحش في مكان فيه الخطيب والقريب ، وتستأنس في مكان فيه البعيد والغريب . وكانت الأم ماري وصواحبها قد أقبلن على العممة يسألنها عن سر هذا الاكتئاب الذي أصاب « نورا » فأمدت فيها الشعور بتناع الحياة ، فقالت العممة ، وهي تخافت من صوتها : « أما السر فلا يعلمه إلا الله ، ولقد اعترتها هذه الحال منذ اكتمل الماضي فعرضتها على الطبيب ، فقال : إنها مريضة بالقلق النفسي من الإرهاق أو الهم ، وتفتيدها الراحة والتسلية والنقلة . ووصف لها أنواعاً من العقاقير سادت على تعاطيها

الحال ، واشتدت العلة ، فكانت تنفر من المحالطة ، وتطمئن الى الخلة ، وتكثر من الصلاة ، وتواظب على القداس . ونضارها ، في خلال ذلك تذرى وبشاشتها تزول ، قرأيت أن أجرب النقلة ، فرحلت بها الى بيروت في عطلة عيد الميلاد ، فتستلت بعض التسلي وتحسنت بعض التحسين ، ولكنها لم تلبث أن عادت الى حالها الأولى بعد أن عمدنا الى دمشق . وكانت معلماتها من الراهبات قد لاحظن عليها أعراض هذا المرض النفسي ، فعالجنها مرة بالدعاء ومرة بالدواء ، فما نفع الدين ولا أفاد الطب . وأخيراً جاءت عطلة عيد الفصح قرأيت أن أعود بها الى بغداد ، عسى أن نجد في الوطن الذي نشأت به ، وفي العش الذي درجت فيه ، ما يدفع عن جسمها هذا الذبول ، ويذهب عن نفسها هذا القلق . وكان في الحفل أربع أعين لا يدخلن شعاع السرور ، ولا يقرهن متاع الفبطة . عينا في وجه الخطيب ، وعينا في وجه أمه . كانت عينا « جاك » تخضلان بالدمع كلما رأى خطيبته لا تحفل به ولا تنظر اليه . وكانت عينا أمه تشعان بالسخط كلما رأتا « نورا » تقبل علينا ولا تقبل عليه . وعلى فجأة من هو اللاهين ولمب اللاعبين سقط « جاك » من فوق كرسيه ، فاقد الوعي ، متخشب الجسد ، غتليج الأطراف ، مضطك الأسنان ، مزيد القم . قصرخت أمه ، وفزع الحضور ، وخفوا اليه بالمسعفات حتى أفاق ، وكانت « نورا » من أسرع الى المصروع بالمنبهات ، فخصصها بالشكر . واضطجع على الكنبه ريثما استراح ثم تحامل على بعض أصدقائه وخرج .

وغام على أثر ذلك الحادث جو الحفلة ، فتكدر الصفو ، وانقطع اللهو ، وانصرف المدعوون .

وفي بكرة اليوم التالي ، وكانت يوم أحد ، دخلت علي السيدة « ماري » ، وفي يدها صينية صغيرة عليها قدحان ، فحيتني تحية طيبة ، ثم

قالت وهي تضع الصينية على المائدة : « عدت من الكنيسة قبل الأولاد لأصطحب معك بقدر من الشاي وأبوح لك بأن «نورا» منذ رأتك ، تظهر الاهتمام بك وتكثر السؤال عنك . وقد رأيتها في الحفلة تقبل عليك وترتاح بأنسها اليك . ومن الممكن إذا توثقت صلتها بك أن تكشف لك عما يكن صدرها من لواعج الحزن والهم ، فقد عجزت عمها وعجزنا عن كشفه . ثم روت لي ما قالته السيدة (صوفي) عن مرضها وكيف تطور حتى خيف أن ينتهي الى انهيار عصبي لا يرجى برؤه . وعقبت عليه بأنها شديدة القلق على مستقبل البنت ، فقد رفضت أن تعود الى الدراسة بدمشق ، وكرهت أن تظل خطوبة الى جاك . وقد رأيت ما حدث ليلة البارحة من جراء صدودها عنه ، وهو من أكثر الشبان مالا ، ومن أرفعهم وظيفة . إن «نورا» كما ترى معبودة الأسرة ، وإنا لنبذل في سبيل سعادتها أنفس ما نملك . وليس جمالها وحده هو الذي أحلها من قلوبنا هذا المحل . فإن لها غير الجمال البارع والذكاء اللامع مزايا أخرى ، أخصها صفاء النفس ونقاء الضمير وخلوص الدين ، والدين على أقوالها وأفعالها الساطعان القاهر منذ الطفولة ، فهي لا تقول لنفسها ما نخشى أن نقوله للناس ، ولا تفعل في سرها ما تكره أن تفعله في العلن ، ولا تجري في أمورها إلا على سنن القديسين والرسل . فإذا أصابها مكروه في ضحتها أو في سعادتها ، أصاب الأسرة في جميع حياتها ، فلا تنتفع بعدها بالعيش . فالرجاء في الله وفيك أن تعالج مشكلتها بالعلاج الذي تختاره ، وسأرسلها اليك متى عادت من القدس » .

من النفاق الخوض أن أقول إن شعوري بهذا التكليف كانت شعور الخالي المحايد . الحق إنه كان شعور الحالم الذي صور له عقله الباطن ما كبت من الرغائب والشهوات في صور زاهية من الوقائع والمذات . ثم تيقظ فإذا به يرى الحلم حقيقة واقعة ، يبصرها بعينه ويلبسها بيديه . كنت في خلال الأسبوع الذي مضى على هذا الانقلاب في الدار ، أنابح

هذا الحسن الرائع بجواسي الخس ، وهو يحيي في المشي أو يذهب
ويدخل الغرف أو يخرج ، ويتكلم في البهو أو يصمت ، فيمنعني الحياء
أن أدور في فلكه وأن أدخل في شماعه ، ثم أصبح فإذا بي أسمع
أنه يسأل عني ويفكر فيّ ، وإذا بي أرى أن القائمة على أمره تنبئ به
بي وتكلم إليّ !!

فهل تصدق القط الذي أعطاه أمل الدار مفتاح الكرار إذا زعم
أنه تسلم هذا المفتاح وقلبه فارغ ، ورأسه بارد ، ونفسه عزوف ؟

قد يكون هذا القط صوتاً قوياً ، يعمل من هذا الكرار
صومعة لنفسه ، ومحراباً لصلاته ، ولكن إخفاءه حقيقة شعوره وطبيعته
سروره رياء صريح .

سمعت نقرتين خفيفتين على باب غرفتي ، ففتحت ، فإذا «نورا» في
ثياب الأحد وطالعة الملاك ، تبسم وتقول : « أخبرني أمي أن للمسيد
حاجة إليّ » ، فقلت وأنا أمي لها الكرسي لتقع : « إن حاجتي إليك
حاجة الغريب إلى الأُنس ، والضيف إلى الأكرام » فقالت : « لست غريباً
وأنت في دارك ، ولا ضيفاً وأنت بين أهلِكَ ، وإن العائلة كلها ،
كما سمعت ، تحبك وتحترمك » . فقلت لها : إن غربة الروح أشد من
غربة الجسد ، وربما ظل الرجل طوال عمره ضيفاً بين أهلِهِ إذا لم يوافقوه
على هوى ، ولم يشاركوه في شعور . ولهذا شعرت من إشعاع نفسك
عليّ من بعيد ، أن بيني وبينك ألفة من الروح ، لو كان لها تجاوب في
شعورك لوجد القلب بجانبه قلباً يتفتح له ويتصل به ويسكن إليه ،
ولعلي أدركت سرّ انقباضك عن الناس . إنهم لا يشبهونك في خلق
ولا طبع ، ولا يفهمونك في إحساس ولا فكر . فهل أدركت الصواب ،
أو على الأقل واجهت الحقيقة ؟

وكانت الفتاة قد حدثت ببصرها اليّ ، وأقبلت بسمعتها عليّ وقالت :

« إن ما قلته عن نفسك وعني لم يتجاوز الحق ، وإن ما أدركته أذنت من سر انقباضي هو ما أدركته أنا من سر انقباضك . وقد كنت علي وشك الاتصال بك لو لم تأمرني بلقائك أمي . وما كنت جلوسي اليك البارحة في الصالون إلا تمهيداً لذلك . أما لماذا اخترتك من غير معرفة ، وألفتك من غير صلة ، فعلم ذلك من مكنونات النفس . فلا تعرف له باعثاً ولا غلة . وكل ما أعرفه من ظواهر الأسباب أنك مصري وقلي معمر بحسب مصر ، وأني مريضة ، ومرضي يحتاج بطبيعته الي مؤاس من نوع خاص ، ولم يكذبني قلبي ، فقد علمت من بوادر كلامك هذا أنك تنطق عن نفسي وتكشف عن ضميري . .

لم أر في الجلسة الأولى أن أدخل في صميم الموضوع ، ولا أن أسأله عن سر حبها لمصر الذي تكتمه ، ولا عن كنه مرضها الذي تعانيه ، وإنما اكتفيت بأن قلت لها : أراك تفتقدين الأنيس المؤاسي ، وأنا أعلم أنك غطوبة الي السيد جاك ، والخطيب صفي القلب ، ونجى النفس وشريكك المستقبل . وهو كما ينم عليه حاله ، هوأك أشد الهوى وبرعأك أصدق الرعاية ، فلو أنك بادلتك الحب وشغلت به دنياك لما أحسست معه بالفراغ . ولكن أملك تقول على أثر ما أصابه الليلة إنك لا تبالين به إذا حضر ، ولا تسألين عنه إذا غاب ، ولا ترددين عليه إذا كتب ، فهل هذا عرض من ذلك المرض ؟

فسكتت « نورا » قليلا ، ثم قالت في شيء من البطء كأنها تعد كلماتها عداً : « يجوز أن يكون للأزمة النفسية التي أكابدها منذ شدة أشهر بعض الأثر في فساد الحال بيني وبين جاك ، وإنما جاء أكثر الأثر من الاختلاف في مزاج ومزاج ، والتباين بين خلق وخلق : أنا خيالية

وهو واقعي ، وأنا روحانية وهو عادي ، وأنا مؤمنة وهو طبعي ،
وأنا أفهم الحياة على أنها (آلة موسيقية) وأنغام ، وهو يفهمها على أنها
آلة كائبة وأرقام . فأنا لا أصلح له وهو لا يصلح لي ، وما كانت خطبتنا
إلا عدة وعدها أبي إياه لنباهته في دنيا المال والعمل .

وكان باب الغرفة قد ظل مفتوحاً ، فدخلت مرجريت وجورجيت ،
فعاد الحديث إلى مجراه العاد ، ونزلنا بعد قليل إلى السرداب لنجد العمّة
ومن حولها سائر الأسرة يتحدثون في اهتمام وجد . فلما رأونا تدخل
وعلى وجوهنا دلائل البشر ، تهللوا جميعاً ، ولقونا لقاءهم للعائدين من
مفاوضة ناجحة ، أو للعائدين لصفقة رابحة . ثم انصرف بعضهم إلى
البيان ، وبعضهم إلى الكونكان ، وجلست أنا ونورا مع المتحدثين .

ولاحظ الثلاثة الكبار ، يعقوب وزوجته وأخته أن ابنتهم مشروحة
الصدر للجلسة ، ومفتوحة النفس للحديث . فقال الأب موجهاً كلامه
إلى « نورا » :

« كنا نتحدث هنا فيما كنّا نتحدثان فيه هناك ، ومن الخير أن تتابع
الحديث لتبصر وجه الرأي في خطبة جاك ودراسة « نورا » من قبل أن
تعود « صوفي » إلى دمشق . »

وكانوا يعلمون فيما بينهم أن الجواب عن هاتين المسألتين عندنا لا
عندهم ، فقلت : إن من رأيي أن تتركوا عقدة هذه الخطبة للزمن يحلها
على مهل ، فإن قطع العقدة ، وإن كان أيسر من حلها ، يؤدي النفس ،
ويخرج الكرامة ، وسيروض السيد جاك نفسه بالصبر والسلوان على
احتمال الواقع . .

وقالت « نورا » : وإن من رأيي أن أبقى معكم إلى الخريف ، فإن

البعد عن منشأ الداء وإن كان سيحرمني أداء الامتحان ، سيساعد في أرجو على استئناف النشاط واسترداد الصحة .

أصبحت غرفتي منذ اليوم قطعة من الروض وقاعة من التحف ، نقلت إليها « نورا » أجمل ما في الدار من زهريات ولوحات وتماثيل وتحف ، ثم كانت تتمتع بها كل صباح بنفسها ، فتلشق الزهر وتنظم الاثاث وترتب الكتب . وانقسمت الأسرة بحكم الطباع والغرائز الى فريقين : بيني وبين القنصل ، فريق الخير وفريق الشر ، أو فريق النور وفريق النار ، أو فريق المعنى وفريق الحس . فالبنيات وأمنه فريق ، والبنون وأبوهم فريق . ففي غرفتي تجتمع « نورا » وأختها ومعهم الكتاب والبراعة ، وفي غرفة السيد « بكير » يجتمع يوسف وأخوه ومعهم الشراب والريبة .

وتمكنت الألفة بيني وبين « نورا » فلم تعد تصطحب أختها في الجيئ الي ، فاذا أقبلنا تريدان لمو الحديث صرقتها الى المذاكرة ، وبقيت هي جالسة على كرسي طويل ظهرها مسند إلى صدره وسائر جسمها ممدود على طوله ، وفي يدها مجلة تنظر فيها . ولكنها لا تلبث أن تذهل عنها وتستغرق وهي يقضى في حلم عميق . فاذا كنت أكتب تركتها حتى أفرغ ، وان كنت أقرأ أطبقت الكتاب واستغرقت أنا أيضاً في وجه كل معنى وجسم كله فتنه ووضع كله سر .

وكانت عطلة عيد الفصح قد انقضت ، فعادت الغصة الى دمشق ، وعاد الأولاد الى المدرسة ، وخلت الدار إلا من الممرض والمريضة ، أو من المصور والنمال ، فوجدت الفرصة مواتية لاستيطان دخيلة أمرها ، وأستخرج دفيئة صدرها ، فقلت لها ذات يوم : أريد أن أعالجك بالتجليل ، كما يفعل الطبيب الخلل ، أو بالاعتراف ، كما يفعل القسيس المعترف ، فبوحني لي بكل ما في نفسك ، عسى أن أجد لك فرجاً من

هذا لهم ، وأعدك أن يظل الأمر فيما بيني وبينك سر مهنة أو سر اعتراف .

فقلت : وأنا أريد هذا أيضاً ، فاني منذ فارقته « الأب إلياس » أشعر بالكرب يخنق صدري ، وبالقلق يلوع ضميري . وقد كنت أستريح إليه بالاعتراف كل أسبوع كما يستريح الحزون بالبكاء أو المهموم بالشكوى . وأنت أقرب إلى قلبي منه لأنك تشعر بانسباط الربيع ، وهو يشعر بانقباض الخريف ، وأنت تعيش في موجود الدنيا ، وهو يعيش في موعود الآخرة . ولا أريد أن أمضي في المقارنة بينك وبينه . فقلت لها ، وأنا أنثر البركة عليها من يدي : إذن ضمت لك الشفاء بهذه الثقة . ثم جلست على كرسي الاعتراف ، وأخذت تعترف لي وتقول .

أخذت « نورا » تعترف لي بالفرنسية ، لأنها تستسهلها ، لا لأنها تفصلها ، قالت :

« كان ذلك في تموز من عام ١٩٣١ ، وكان من عادي في العطلة الصيفية إذا لم أعد إلى بغداد أن أضرم يدي إلى يد عمي في إدارة الفندق ، فأدعها تصرف أموره العامة فتقوم المطبخ وتهي الموائد وتجعل الغرف وتتمهد الأثاث وتراقب الخدم . وأجلس أنا إلى المكتب في المدخل : أستقبل النازلين وأرصد ما لهم ، وأودع الراحلين وأقبض ما عليهم . وأجيب عن كل سؤال وأستمع إلى كل شكوى . ولم أكن أدري أي شيء في يجذب النزلاء إليّ ، ويرميهم بأثقاليهم عليّ ، فكل داخل وكل خارج كان يتلمس الدواعي أو يحتلقها ليقف أمام المكتب ، يسأل من غير موجب ، ويتكلم من غير موضوع ، ويشفع الكلام الذي لا معنى له بالنظرة التي تقول ، والبسمة التي تدل ، فأجيب عن السؤال بالنفي أو الإيجاب ، وأرد على الكلام بالصمت أو الإيجاز ، وأغض

عيني عن النظرات والبسمات فلا تجد طريقها الى نفسي . ولكنني بعد أيام ضقت ذرعاً بهذا الفضول ، فتخلّيت عن صدر المكتب للكاتب ، وانتجيت ناحية منه ، وأخذت أراقب الأمور من بعيد ، فلا أتدخل فيما يتصل بالادارة العليا للفندق . وكنت مع ذلك أنظر بحساسة إلى من يدخل أو يخرج أو يجلس أو يقف . فأرى صوراً من الناس وأنظاً من اللباس وإخلاطاً من اللثمي تجعل كل ثماني وبعض ليلى حفلة مستمرة في سبيل . وكان يستوقف نظري من هذا الخليط المتغير المتجدد الجميل والأنيق والمهذب ، وهؤلاء يغلب عليهم التصون والتعالي فلا يتبدلون بالفضول ولا يتلهون بالعبث . وكان من بينهم شاب رشيق القامة حسن الهندام حلو التقاطيع . لم أستطع أن أتبين منه خلال النظرات الحذرة العجلى إلا ظاهرتين على وجهه في دخوله وخروجه . وكان متزايلاً لا يدور في مدار الفندق ولا يشعر بحاذبية أهله ، إنما كان يدور كما علمت من بعد ، حول شمس غير منظورة ، لم يبقَ منها في دنياه إلا شعاعه تضيء عينه بقدر ما يعيش .

كان يجلس وحده في البهو ويأكل وحده على المائدة ، فإذا كتب لا يكتب إلا رسالة ، وإذا قرأ لا يقرأ إلا صحيفة . والصحف التي كانت يقرأها مصرية يأتيه بها الخادم كل صباح ، فهل هو مصري ؟ لو سمعته لعرفته من لهجته ولو عرفت اسمه لكشفت عن بطاقته ، ولكنه لم يكن ير بالمكتب إلا ليودع للكاتب مفتاح غرفته أو ليسترده . وكنت وأنا في ركني المنعزل ألح عليه بالنظر المتتابع كلما وقف على المكتب أو جلس في الردهة ، لعله يلقي عليّ نظرة أو يوجه اليّ كلمة ، فما كانت وجهه يتعدى وجه الكاتب ولا عينه تفارق صفحة الكتاب ، إلى أن اضطرب الكاتب يوماً أن يغيب واضطرت أنا إلى أن أجلس على كرسيه . وأقبل هو في الضحى الأكبر يودع مفتاحه ليخرج ، فحباً في احتشام

وأدب ، وألقى بفتحاحه في رقة ولطف . ولما رأى بين يدي كومة من بريد الفندق ، كنت أفرزها لأوزعها على الغرف ، وجهته إلى من تحت أهديته الوظيف نظرة حبيبة وقال : هل لي في هذا البريد بريد ؟ فسألته عن اسمه ، فقال : « نبيل طاهر » ، فعدت أقرأ العناوين في شيء من البطء لا أدري لماذا . حتى استخرجت له من بينها خمس رسائل صادرة من القاهرة ، فأخذها شاكراً وخرج .

عرفت في هذه اللحظة العابرة المباشرة اسمه وقليلاً من خلقه وكثيراً من صفاته ، وانصب في شعوري عن طريق نظرتي وكلمتي وبسمة دفت من حاذيئته الروحية ، شغل بالي به ، وصرف همي إليه . كان مثال ما ارتسم في ذهني من صورة المصري الصميم : وجهه ناعم أسمر مشرب بالخمرة كأنما وردته نشوة الخمر ، وشعر ناعم أثيث متموج قد انفرد على فوده ، أشرفت منه جمة على ناصيته ، وعينان كجلاوان تشع منها الطيبة وتشيع فيهما البهجة ، وفم رقيق حلو يفتر افتتار الطفل ، وهذه الصفات الطاغية التي تبرز لعينيك أول ما تراه فتشغلك عن صفاته الأخرى .

كنت أتمنى كلما دخل أو خرج أن يمر بي فيسألني شيئاً أو يكلفني أمراً ، ولكنه كان كما قلت ، محصوراً في حياته الخاصة ، لا يخرج منها أبداً ، ولا يستقبل فيها أحداً . ملكتني رغبة قوية في أن أطرق عليه باب دنياه طرقة ، فلعلني أكشف ما وراء هذا الباب من سر يسبب هذا الانقباض ، ويوجب هذه العزلة ، ففرزت يوماً بريده بنفسني وحجرتي ، ولما علمت أنه جالس في البهو يقرأ صحيفة ، ذهبت إليه في شيء من الحرج ، وقلت له : هذه رسائلك من بريد اليوم ، جعلت من حملها إليك فرصة أسألك فيها عن مقامك في الفندق . فتمض الشاب واقفاً ، وتسلم الرسائل ، ثم تطلعت فدعاني إلى الجلوس ، فجلست ، وخيل لي أن علامة

من علائم الرضا قد تراءت على وجهه ، فقلت له : أراض عن غرفتك ومائدتك وخدمتك ؟ أعندك ما تشكوه أم لك ما ترجوه ؟ فقال وهو يحاول أن يخفي ربكة بدت عليه ، شكراً يا آنسة ، كل شيء مريح ، وكل أمر يسر . فقلت له : دع هذا التحفظ ، واجعلني هنا بمثابة أختك ، واسترح اليّ بما عسى أن يكرب صدرك من هموم الغربة ، فاني مثلك أشعر بما يعتري الغريب من الوحشة ويعتاده من الشوق . فقال في لهجة مصرية وصوت خفيض : يسعدني ويذهوني أن ترفعيني في نظرك الى منزلة الأخ ، ولقد قلت إنك غريبة ، وكان بعض الشك يخالجي في أنك سورية لاختلاف اللهجة والحلية والملامح ، فهل انت عراقية ؟ فقلت : نعم أنا بغدادية ، أطلب العلم في دمشق ، وصاحبة هذا الفندق عمي ، فأنا أساعدها في إدارته شهرتي العظيمة ، وجاء عامل التلفون بدعوتي الى مكالمة ، فاستأذنت منه وسمت .

أنس اليّ يومئذ نبيل ، فكان يجلس في الردهة لا في البهو ، ويوجه كلامه اليّ لا الى الكاتب ، ويفضل أن يبقى في الفندق على أن يخرج . ولكن الحياء منه ، والاباء مني ، كانا يقفان بنا عند هذا الحد من النظر المردد ، والكلام العابر . ففكرت في حيلة تدني المجلس وتطيل الحديث ، فأخذت أقرأ الصحف المصرية كل صباح لأتمس فيها بالمناسبات التي يصح أن تكون موضوعاً لسؤال أو موضوعات لحديث ، ثم أدنو منه في الوقت الذي ينصرف فيه النزلاء ، ليخضع الصوت وتسكن الحركة ، فألقي اليه الخبر أو أورد عليه السؤال ، فينطلق وجهه بالبشر ، ويفتح ذهنه بالكلام . فأقول ويقول ، وأجول في كل معنى ويجول . يروي لي عن مصر وأروي له عن العراق ، ويحدثني عن سعد واحده عن السعدون ^(١) ثم تجدد بعد ذلك

(١) عبد المحسن السعدون كان يومئذ رئيس الوزارة العراقية ، ثم انتحى لأسباب سياسية فكان انتحاره الحزن حديث الناس في كل مكان .

لمجلس وتكرر الحديث ، حتى توثقت بيننا الألفة ، وكادت أن تزول الكلفة .

سألته ذات يوم عما زار من آثار دمشق ، وعما رأى من مفاصل الطبيعة في الغوطين وبلودان والزبداني . فقال بلهجة الأسف : إنه قضى في دمشق نصف شهر دون أن يجد في نفسه رغبة في نزعة ، أو حاجة إلى رحلة ، وكل ما كان يصنعه في هذه الأيام أن يتجول في أفكاره في شارع ، أو ينفرد مع صومعه في قهوة . فقلت له وقد وجدت الفرصة لاكتشف عن سره وأمره : يؤمني أن أسمع منك كلمة الهم ، وأنت في السن التي لا تَبْأِي التبعة ولا يهملها من الدنيا إلا جوانبها اللاهية المرحية ، فهل تشكو علة أو تكابد أزمة ؟ وهل تتيح لاختك الحانيه عليك المنعطف بك أن تحمل شيئاً من عبئك الذي حرمك من هو العيش وشغلك عن بهجة الحياة ؟ فقال : لشد ما يسمدني ذلك ، فإن كتم الألم في الصدر ككتم البخار في القدر ، لا يزال يثور ويضطرب حتى يجد متنفساً من الضيق فيهدأ ويستقر ، وإن الآهة ينفضها المريض ، أو الشكاية يبعثها الحزين ، لحي الراحة من ألمه أو الفرجة من كربيه . ولقد وجدت فيك منذ رأيتك وسمعتك ، علاجاً من دائي الذي أشكوه ، وتسليه عن همي الذي أقاسيه . وغداً الأحد وهو يوم عطلتك فتعالى إذا سمحت تخرج إلى ظاهر المدينة ، فأشركك في أمري ، وأفضي إليك بذات صدري ، وأتلى في الوقت نفسه بعض مناظر الشام في صحبتك .

لم أجد في الاستجابة إلى دعوته مشقة كبيرة ، لاني مسيحية لا تقيدني تقاليد البيئة ، ولاني مراهقة تستهويني تجربة الخروج الأول مع شاب ، ولاني مشوقة منذ أيام إلى حديث طويل مع (نبيل) . وتواعدنا على اللقاء في مكان قريب من الفندق ، وقلت لعمتي بعد أن شهدنا قداس الأحد : إن إحدى صديقتي من الطالبات دعتنى إلى الغداء والسينما ، فلا تقلقي علي إذا تأخرت . وانطلقت بي وبنبيل السيارة إلى « دمر » .

وكانت الغوطة القريبة قد تألفت في زينتها الطبيعية ، فجعلت من أدواحها الباسقة جنة للقلب الشاعر ، ومن أمواها الدافقة بهجة المزاج المكتئب ، ومن مروجها الخضر سكينه للحس المضطرب . وكان مقهى (دمر) قد امتدت موائده على ضفتي الجدول الهادر ، وقد ازدانت بمن جالس اليها من بنات يوم الأحد وأبنائه . واختارنا مائدتنا في ركن منعزل من طرف المكان ، وجلسنا اليها متقابلين ، وجهاً لوجه وعيناً في عين وفيما إلى اذن . وكان نبيل لا يزال مأخوذاً بروعة الغوطة وما يكتنف مدخل دمشق من الروابي الخالية في صدر الجبل ، والانهار الشاذية في حضن الوادي ، والمنازل الغارقة في زهر الروض . فقال : ما رأيت أبعد من هذا المنظر ولا أنفذ من هذا السحر ، ولولا أن أفلحك لي الله لظلت محروماً من هذا الجمال ، مشغولاً عن هذه المتعة . فقلت له : إن بالشام أماكن غير هذا المكان تجلو رؤوسها صدأ القلوب ، وتبسط زورتها انقباض المشاعر ، وسنزورها معاً بعد أن أصفي نفسك من أكدار الهم ، وأخلي بالك من شواغل الحزن . فافتح لي صدرك ، واسترح الي بما تكن فيه ، فقال : لا يا نورا ليس الامر سرّاً أكنمه ولا ألماً أكنته ، إنما هو صدمة عاطفية زلزلت حياتي وحطمت وجودي ، وكان لها في الناس من أقرباء وأصدقاء أثر شديد وصدى بعيد .

أحببت ابنة عمي حباً غلب علي عقلي وشعوري ، وكان الذي حببها اليّ جمالها الفائق وخلقه العذب وروحها اللطيف ، وعشرة طويلة متصلة فأصل فيها حبنا وغما نحو النبتة الغضة في الثرى الحصب والجو الملائم ، فاستوت على ساقها ، وتفرعت عن أصلها ، ثم أورقت ، ثم ازدهرت ، ثم رقت علينا بالتدي والظل ، ونفحتنا بالنعيم والعطر ، ثم آن لنا أن نتخذ منها العش الذي نسكن اليه ونطمئن فيه ، فأخذ أبي وعمي يمهدان للبناء ويستعدان للعرس . وعلى فجأة نعب على عشنا غراب ، ودوت على

قالت امرأة عجي لأمي ، وبوادر دمعها تقطر على خدها الشاحب :
إن نبيلة واحسرتاه أخو عقيلة ابنتي ، تذكرت أنني أرضعت نبيلة مراراً
وانت مريضة ، فإذا نصنع يا اختي للخفف وقع هذه الصدمة على
نبيل وعقيلة ؟

شككت أمي أول الامر في سلفتها وأساءت بها الظن ، فلعلها وجدت
لابنتها عريساً آخر فزعمت ما زعمت . ولكن الحزن الشديد الذي بدا
عليها ، والالم المعض الذي نال منها ، والحب المحض الذي تكنه لي منذ
الطفولة ، والسرور الطافي الذي كانت تبديه منذ أعلنت الخطبة ، كل
اولئك كان يبدد كل شك وينفي كل ريبة ، شاع الخبر المشؤوم في بيتنا
شيوخ النار ، فشوى أكباداً وكوى أفئدة . وكان الخبر بالنسبة الى مؤسساً
لا نور للامل فيه ، ولا سبيل إلى الصبر عليه ، فضاقت بي الارض ، وثقلت
علي الحياة ، فذاب جسمي ووهن عظمي ولزمت السرير أياماً لا يأخذني
نوم ولا يهأنني طعام ، حتى خاف علي أهلي فقلبوا علي جسمي ونفسي
ضئولاً من العلاج ، فلم ينجع فيها شيء . وأخذ أبواي يسرياًني عني
بالامل في أن يحدا شهادة تكذب الرضاع ، أو فتوى تجيز الزواج ،
ومنعوا عقيلة من لقائي لعل بعدها يساعد على سكوت الالم واندمال
الجرح ، ثم رأوا أن أبعد عن وهيج النار ومشار الشجن . فقرروا أن
أرحل إلى لبنان وسورية . وها أنذا بعد شهرين قضيتهما في ظهور
الشويز ودمشق لا أزال كما ترين ، مطبق الجفنين على صورتها ، مطوي
الجوانح على حبها ، أرسل اليها كل مساء رسالة وأتلقى منها كل صباح
رسالة ، ولم يزل قلبي اليك الآن فيك مشابه كثيرة منها ، فأنا أراها
في وجهك ، وأسمعها من فمك ، وأثقلها في روحك العذب وطبعك المهذب .
ثم أقبل الخادم بألوان الطعام ، فسكت هو ، واستمرت أنا أصغي

الى أصداء هذا الحديث تتوارد على خيالي وتتردد في نفسي ، فتعتريني الشفقة عليه ، وتساورني الغيرة منها ، الغيرة ؟ نعم يا سيدي شعرت بالغيرة ولا أدري مبعثاً لهذا الشعور ، ولا معنى لهذه الكلمة .

أصبح من همي منذ ذلك اليوم أن أطيل الجلوس اليه في الفندق ، وأكثر الخروج معه الى الحدائق ، ولم تعوزني الوسائل التي كنت ألتذرع بها الى عمي لتعليل الجلوس أو الخروج . وكانت أحاديثنا سقاطاً من أفانين شتى ، منها النجوى والشكوى ، ومنها الطبيعة والناس . فإذا أفضى بنا الحديث الى ذكر عقيلة عطفته برفق الى موضوع آخر ، جئ لا يذكرها فتعاوده لوعة البين وحرقة الذكرى . ولا أكذبك فقد كان في نفسي باعث آخر يحملي على طي الحديث عنها ، ذلك هو الغيرة الحاقدة من أي فتاة تستولي على قلبه ، وتستأثر بحبه . لقد أحبيته منذ رأيت ، ثم أخذ هذا الحب منذ عزفته ينمو على مرور الساعات والدقائق ، بانسكاب روحه الروي في روعي الظمآن . عن طريق النظر والحديث والخلوة ، وكان من أقوى العوامل التي أوقدت صدري بهذا الحب أنه مشغول عني وأنا يائسة منه . هو مشغول القلب منذ صباه بإبنة عمه . ومن الصعب خلو القلب من هوى دخيل شغله على فراغ وتمكثن به عن أصالة . وأنا مقطوعة الرجاء من ثمرة هذا الحب ، لأن الهوى بيني وبينه غير متكافئ ولا متبادل . هو يحب في عقيلة لأنني صورتها في عينه ، وأنا أحب فيه وجودي لأنه حقيقته في نفسي ، وهو مع ذلك قاهرني وأنا بغدادية ، ومسلم وأنا مسيحية ، فافتراني به موقوف على موافاة الظروف وموافقة الأهل . ولو كانت إقامته في دمشق مستطول لكانت من الممكن أن يحمله اليأس من عقيلة على التفكير في غيرها ، ولكانت من الجائز أن تكون هذه الغير هي أنا ، وإذا وقع في حبي كما وقعت في حبه سهل الحب كل صعب ، وأدنى كل بعيد ، ولكن بقاءه بيننا

موقوت مهيا يطل ، وخروج عقيلة من حياته بطيء مهيا يكن ، وليس
للعقل على الهوى سلطان حتى أحكم في حاضر أمري ومستقبله الى
المنطق ، فلم يبق إلا أن أفوض أمري الى الله ، وأترك زمامي في
يد القدر .

أخذت أعب من هوى نبيل عباً متتابعاً لا أتنفس خلاله ولا أكتفي
منه ، كنت أحبه بأذني وعيني وقلبي ، في كل كلمة وفي كل نظرة وفي
كل خفقة ، في جلاوات « الزبداني » و« خلوات » « بلودان » و« مسارب » « الحميدية »
و« مسارح » « الغوطة » ، لأنني كلما فكرت في أن يوم الرحيل آت لا ريب
فيه ، عشت غلوة حتى امتلأ وجودي كله بالهواء ، فلا أفكر إلا فيه ،
ولا أحلم إلا به ، ولا أعيش إلا معه ..

غبتنا معاً ثلاثة أسابيع في نشوة متصلة من رحيق الحب ، لم نفكر
منها إلا على برقية هبطت من القاهرة تدعو نبيلاً الى العودة . فكأننا
وقعنا عليه وقعاً مبهماً ، لا هو سار ولا محزن ، كان مشوباً بالأسى على فراقنا ،
وبالفرح للقاء أهله . أما وقعها عليّ ، بالرغم من توقعي لها ، فقد كانت
أشد من وقع خبر الرضاع على عقيلة ، ذلك لأن عقيلة ستراه بحكم
الجوار والقربة . أما نورا فلن تراه حتى يرى الأعمى النور ، والميت
النشور ، والحالم الحقيقة . قضينا ليلة الفراق ساهدين في الفندق ، يتحدث
هو عما سيلقيه من الكرب إذا لم يجد في القاهرة ما يواسيه ويسلميه ،
وأنا عما سأعانيه من الفراغ الذي سيتركه في حياتي بعد تنائييه
وتناسيه ، ثم تقف وتثبّت أن تتاح لي الوسيلة لأزور مصر ، فنمضي معاً
في طريق هذا الهوى العذري الى الغاية التي كتبها علينا القضاء فيه .

وفي الصباح صحبته الى ميناء بيروت ، وهناك على سبيل الباخرة
جمعنا ما تفرق من عواطفنا وذكرياتنا وأمانينا ، وضغطنا وحفظنا في

قبلة قوية كانت هي الأولى والأخيرة . ثم عدت الى دمشق من غير نور
ولا أنس ولا أمل . غدت كالشكلى شيمت وحيدتها الى المقبرة ، ورجعت
لترى أثره في كل غرفة ، وتجدد ريحه في كل لعبة ، فهي تفر من البيت
الذي يذكرها به الى البيت الذي ترجو أن يسكنها عنده ، وكذلك
فعلت ، فررت من الفندق الى المنزل ، ومن المكتب الى السرير . ثم
اعتراني من الهم والسقم والانقباض ما قصت بعضه عليكم عمي .

وبعد فقد سمعت الصدى ولم تسمع الصوت ، وأحسست الوهج ولم
تس النار ، وعرفت الجملة ولم تعرف التفصيل ، والجمال كما ترى تشدد
ولا تخف ، وتسحكتكم ولا تنفرج ، فهل عندك لقضي مساع ،
ولأزمي فرج ؟

فقلت لها وقد نفست باعترافها عن صدرها المكروب فاستراحت الى
أن تتقبل الخلاص من الكاهن : إن أمرك يا نورا مع نبيل وجاهك لهو
الأمر الذي وصفه الشاعر بقوله :

جننا بليلي ، وهي جننت بغيره وأخرى بنا مجنونة لا نر بدها
وسأحاول أن أعالجك بما عالجت أنت به نبيل . فلهي أصيب من
التجاح فيك أكثر مما أصبت أنت من التجاح فيه .

لا علاج للعاشق إلا السلوان . والسلوان شراب كان الأعراب يتخذونه
من صبيب المطر على خرزة تسمى السلوانة ، ثم يسقونه العاشق ليسلو .
وام يعد في الامكان اليوم العثور على هذه الخرزة السحرية ، فجل محلها
النسيان ، والنسيان بمعونة الزمان والصبر والشغل ، يحو الصورة من الذاكرة
ويطمس الماضي في الذهن ، لذلك كان همي الأول ألا أدع وقتاً فارغاً
تجوز فيه ما اختزنته في صدرها من رقيق العواطف ، وجميل المواقف
مع نبيل .

فجاءت أن أنسخ عاطفة بماطفة ، وأستبدل موقفاً بموقف ، وكانت هي قد وجدت في قلبي جزءاً من عشاها الذاهب ، وأملها الخائب ، للتأمل الذي بيني وبين حبيبها في الجلس والسحنة واللحمة ، فجعلت وقتها كله لي ، وأردت أن يكون قراغي كله لها ، فنحن في البيت نقرأ ونتحدث ونلعب الورق ، وفي الخارج نجلس على (رأس جسر مود) في قهوة ضحيانة ، نرقد على صدر دجلة النابض ، وتستغرق في الضوء والسكون ، فنجعل ظهرينا إلى أحلاس القهوة ، ووجهينا إلى صفحة النهر ، وعينينا إلى ضفة الكرخ ، فنجتلي هذا المشهد الرائع قليلاً ، ثم نرقد إلى أنفسنا فنتذكر كل حديث إلا حديث دمشق ، وكثيراً ما يلهمنا الحديث المشفق عن مائدة البيت ، فنأكل « الأبيض والبيض والعنبا » من البائع الجوال ، ثم نواصل النجوى والحديث إلى المساء . وفي بعض الأصائل من أيام القيظ ، كنا نفر من وقدة البيت إلى « جزيرة دجلة » ، فنجلس حيث يتنفس علينا الماء بالظراوة ، ثم نأكل السمك المسقوف ، ونفككه بالبطيخ المبرد ، ثم نقضي العشية في زورق يهدونا ساعة أو ساعتين على ظهر النهر الخالد الذي ترافق عليه « العنقاب » و « الدافين » بالخليفة الأمين ، وحسانه رقبائه ونداماه .

وفي أيام الجمع والأعياد كنا نخرج من بغداد منفردين إلى منازل العراق ومغانيه وأثاره ، فيوماً في بحالي الرسمية على نهر ديالى نستمتع بالخلوة والسكون ونستغرق في الهوى والشجون ، ويوماً في بساتين بعقوبة ، ذات الظلال والثمر ، نتخذ تحت أشجار التفاح والبرتقال مضاجع على العشب ، أو مقاعد على الجدول ، أو نمائش تحت الكروم ، ثم نتبادل الحديث والنظر ، فتارة نقول وأنظر ، وتارة ننظر وأقول . والقول كان أفانين من شعر العاطفة ، والنظر كان أشعة من نور القلب . ويوماً بالكاظمية أو كربلاء أو النجف ، نزور أضرحتها المقدسة ، ذوات القباب

المذهبة ، وثروح بعبيرها المبارك على النفس العائنة ، والكبد القويحة ،
ويوماً بايوان كسرى أو أطلال بابل أو آثار فينوي ، نجعل منها دروساً
في تأريخ الجبارين من بني الانسان ، نستخدم فيها لغة العقل لا لغة القلب ،
ونستخرج منها ملحمة الماضي لا مأساة الحاضر .

كانت كل هذه الحلاوات والرحلات وما تخللها من فتون وفنون أحجار
اللحد لحب أخذ يموت ، وأعواد المهد حب أخذ يولد . كان قلبها لا
يزال مذبذباً بين جاذبية الحب الذي غزاه على بردي ، وجاذبية الحب
الذي اعتراه على دجلة . وكان قلبي لا يزال مخدوعاً بأنه يمثل عواطف هذا
الحب ومواقفه وأعراضه لينتقد الفتاة من بلاء وقعت فيه ، ولكن الذبذبة
لم تلبث أن اطمأنت الى قرار ، والحداد لم يلبث أن تكشف عن
حقيقة . واستعجل هذه النهاية أن القماء المراهقة أو أي فتاة لا تستطيع
أن تعيش طويلاً على ذكرى حب ، تعيش عليها لأنها تكره الخلو ، فإذا
شغل قلبها حب جديد تركت الأثر وتعلقت بالعين ، وخرجت من الخيال
لتمعيش في الواقع .

وهكذا أصبحنا محبين محبوبين ، لا نتحدث عن ثالث ولا نفكر في أحد ،
وكان من أمري معها ما كان من أمرها مع نبيل ، حاولت أن تسليته عن
« عقيلة » فوقعته في حبه ، وحاولت أن أسليها عن « نبيل » فوقعته
في حبه . ولم يكن الحب الذي بدأ بينها وبين نبيل ثم عاد بينها وبينني
إلا حباً صوفياً ، ليس له عرض ولا غرض إلا حديث القلب للقلب ،
وأنس الروح للروح في الخلوة العفّة والنزهة النزهة . ليس لهذا الحب
مدى من الطبيعة أو الحس حتى يفتر إذا بلغه ، إنما هو كالعشق الإلهي
في عمقه واتساعه وشموله وذهوله وسكوته ، لأنه اتحاد وجود في وجود
وقناء ذات في ذات !

مرت الأيام على هذا الحال مرور الجمل اللذيذ في النوم الهادئ ، لا
يرجعنا كابوس من هم ولا نيتو من قلق . وكانت «نورا» في تلك المدة
قد عاد اليها صفاء نفسها ونضارة صباها ، فتفتح جسمها الغض في حرارة
الحب كما يتفتح الورد الجوري في دفء الربيع ، فهي ترح وتلهو
وتقابل وتشارك . فاعتبطت الأسرة بهذا التغيير ، وتوسعت في اللهو ،
وشططت في الأنس ، وعاد اليهو الرحيب سيرته الأولى من اللعب والرقص
والموسيقى ، وقضينا في هذه الذبوة الصوفية أحد عشر شهراً ، لا يسأل
القدر المقدور متى نقيم منها ، ولا كيف ننصرف عنها ، ولماذا نسأل ؟
أنا أعلم أنها موقوتة ببقائي في بغداد ، وبقائي في بغداد أن يتجاوز أول
هذا الصيف ^(١) ، وهي قد عودت نفسها ألا تفكر في الغد ما دامت مشغولة
الفكر باليوم

ولكن الزمن ينقضي والعمل ينتهي ، واليوم الذي سأغادر فيه بغداد
يتحدد . ولا بد أن أبلغها الخبر ، وأبلغها إياها في أسلوب سائق من

(١) ارتأت سياسة التعليم يومذاك بحجة ضيق الميزانية واعتداد الازمة النقدية ، لما طرأ
على الزراعة من كساد ، أن تغلق دار المعلمين العالية سنة ١٩٣٦ ، وقضى الأستاذ الزيات
بقية السنة الدراسية يدرس طلاب الصف المنتمين من دار المعلمين الابتدائية وهم على مستويات
متنوعة ، وما يدرس فيها من المواد العربية لا يتلاءم مع مستوى دروس الزيات العالي .

كان الزيات في السنة الأولى بصطحب زوجته . وسكن داراً بجوار دار يسكن الهاشمي
القديمة على مقربة من الثانوية المركزية . وكانت حبة بغداد قد استقرت جسد الزوجية
المصونة . فعملت علامتها في مواضع من جسمها . وكانت من حسن حظها أنها
قد تحننت وجهها فلم تشوه جماله . وكانت قد عفت سنوات طويلة فأفادت الرحلة الاخصاب ،
فحسنت حلها بولدها (رجاء) . وكان طلابه المقربون اليه يحالسونه في بعض مقاهي بغداد ،
فيشرهم بالبولد الجديد الذي وصله فباه على جناح البرق . فاعتبط واغضبوا ، وسألهم ماذا
يقترحون له من الاسماء . أمما هو فاقترح اسم عاطف ، فلم يوافقوه لأن لمعني عاطف دلالة
خاصة في العراق ، واقترح ناجي معروف اسم رجاء ، فوافق على التسمية وأبرق لزوجته به .

الكذب . والكذب الأبيض الذي ينفع ربما كان خيراً من الصدق الأسود الذي يضر ، فقلت لها ذات يوم ونحن نتقي بالتوافد المغلقة والستائر المسيلة ، عاصفة التراب التي تثور على العراق من حين الى حين ، فترد نهاره ليلاً ، وسواء أرضاً ، وصفاءه كدورة . إن العطلة الصيفية ستبدأ عما قريب ، وسأقضيها في القاهرة بين أهلي ، وسأعود إن شاء الله مع الخريف .

وجئت أول الامر للخبر المنتظر ، ثم تناولت نفسها وقالت في لهجة المستسلم وهيئة الحزون : لقد شفيتني من داء بداء ، وسأفتقدك في أشهر العطلة الثلاثة ، وأخشى أن يهاجني الهم وأنا وحدي فأنتكس ، وأرى أن أقترح على أبوي أن أضطجبك الى دمشق ، فأقضي الصيف مع عمي ، حتى إذا حانت عودتك الى بغداد مررت بي فأعود معك ...

وفي صباح الغد خرجت فاشتريت لي ذبوان الشرقيات للامرتين ، و « ألبوما » فاحراً ضمته على بعض صورها في أسنان وأوضاع مختلفة ، ثم خاتماً ذهبياً من صنع « الصبة » نقش عليه اسمي بالميناء ، ولا يزال بعد تسع وعشرين سنة في إصبعي ، واتخذنا الإهبة للسفر ، وقطعنا بادية الشام على سيارة من سيارات « نيرن » في ليلة من ليالي الصحراء ، تطلق دجهاها النجوم الزهر ، حتى باتت كيوم الدجن . وكانت نورا قد قضت الهزيع الاول من الليل تتكلم عن السناء والنجوم وحياة الاعراب وقصص الحب حتى قرسها البرد فأستدفأت ببطانتيتها ، ومالت على كتفي ونامت . وفي ثباثير الصباح المشرق المطل ، بلغنا فندق العمة صوفي ، فتركنا نورا تستنشي نسائهم الذكرى وتتعلق بأسباب الامل ، وواصلت السفر الى بيروت .

ومن الفضول الذي لا يزيد في علمك أن أصف لك موقف الوداع فإنه موقف عرفته الخليفة كما عرفت غشية الموت . ذاقته كما ذاق حمر

الحريق . والذي يهملك أن تعرف أنني لم أكد أستجم من عناء السفر الطويل في السيارة والباخرة والقطار حتى زرت « نيملا » في داره بالمعادي ، وكنت قد عرفت عنوانه منها - فقدمت نفسي إليه ، وقضضت خبرها عليه ، وروى لي عفة نفسها ، ورقة قلبها ، وحسن حديثها أكثر مما رويت ، وشكا التي من لوعة البين عنها ، وحرقة اليأس منها ، وحرارة الشوق إليها أكثر مما شكوت ، واجتمع هواي وهواه فالتحدا في صداقة وثيقة ومودة خالصة ، وعشنا معاً ولا نزال نعيش في ذكرى هذه النفس الطيبة التي ظهرت في حياته وحياتي ظهور الأمل الباسم في قطوب اليأس ، والروح المؤنسة في وحشة الغربة . ثم غابت في الأفق البعيد كما تغيب الرؤيا السناوية في حجاب الغيب ثم لا يبقى منها في القلب إلا جلالها ، ولا في العين إلا سناها (١) ..

(١) تزوجت من شاب من ذوي معارف أبيها ، وسعدت بزواجها وانجبت ، وهي ما زالت حية تعيش منعمة مع أفراد أسرهما . ولم يبق من تلك الذكريات إلا رئيس كرسيه الحلم الجميل أو المتعة الخلوقة قصة قرأتها .

تأريخ

هياة الف ليلة وليلة

هذا البحث القيم والتحقيق الدقيق لكتاب ألف ليلة وليلة ، ألقاه الاستاذ الزيات ببغداد في قاعدة الثانوية المركزية ، في محاضرتين اثنتين أحدهما في مساء الخميس الاول من سنة ١٩٣٢ والاخرى في مساء الخميس الذي يليه . وقد حضرت المحاضرتين ، واستمعت - كما استمتع عدد كبير من الاساتذة والمتأدبين - بحلو الحديث وجمال الصوت وسحر الإلقاء . وكانت القاعة ، على سعتها ، مزدحمة بالمستمعين ، ولما كان التحقيق الذي أجراه الزيات في المحاضرتين ممتعا ، وبعد أول تحقيق شامل في العربية لتطور هذا الكتاب الشعبي ، ويمثل أدب الزيات وإنتاجه في العراق ، حرصت أن أفرد له حيزاً في الكتاب ، وأطبعه بنصه كاملاً ضمن ملاحقه فضلاً عن كتابته في أصول الادب . قال :

يخطو الدهر ذائباً في وناء وكبرياء وضمت ، فيعفي الاثر ، ويفري الجحير ، ويبرى الحديد ، وتقال يده العابثة كل شيء في حياة المرء بالتغيير والنقص ، إلا شيئاً واحداً منه يلوذ بسواد القلب فيستقر في قراره ، ويمكن كمن السر في دخيلته . أريد به ذكريات الصبي وأحلام الجذائفة ، فهي باقية والجسم يتغيرونه البلى ، ثابتة والعيش تزعره

الاحداث ، فاضرة والمنى يصوتها الناس ، فشرقة والنفس يغشاها من
الهم ظلام وسحب . فمن منكم يا سادة لا يذكر أول بيت أبصر فيه
الوجود ؟ وأول ملعب عرف فيه الرفيق ؟ وأول مكتب رأى فيه العلم ؟
وأول موعد لاقى فيه الحبيب ؟ ومن منكم لا يذكر ساعات السحر
الليذة الهادئة في غرفة النوم الوفيرة الدافئة حيث كان أطفال الأسرة
يتجمعون حول الجددة الجنون أو الأم الرؤوم أو الظئر الحانية ؟ فينصتون
في سكون وشوق الى ما تقصه عليهم من روائع الأسرار وبدائع القصص ،
وهم من طلاوة الحديث ، وجاذبية الحادث ، وبشاشة المحدث ، في حال
لا يصف الشعور بها غير شاعر . ثم لا يلبث هذا الرحيق العجيب أن
يخدر الاعصاب الطفلية الرقيقة ، فتغفو تحت جناح الكرى وتسمع بقية
الحديث الشهي في الحلم . هذه الافاصيص الشائقة التي كانت لعولنا سحراً ،
ولعواطفنا المشبوهة سكرأ ، ولقلوبنا الغضة فتنة ، هي نوع من الاحلام
والاماني ، تراءت في ليل الحياة الطويل ، ثم تجمعت في ذاكرة الزمن
القديم ، وتنقلت من عهد الى عهد ، ومن مهد الى مهد ، ومن بلد الى
بلد ، تحمل في طواياها نفحات الحكمة المشرقية العالية ، وعطور الأزمن
البعيدة السعيدة . فوجودها أثر لوجود الانسان ، لأنها ظاهرة طبيعية من
ظواهره ، كالغناء والشعر والرقص ، فلا تعرف لها أولية ، ولا تجد في
الغالب لظهورها علة . ولكن علماء الاساطير يزعمون أنها نشأت في
الهند ، وهاجرت منها الى بلاد الفرس ، ثم رحلت الى بلاد العرب ، ثم
استقر بها النوى في أقطار القرب ! وفي كل مرحلة من هذه المراحل كانت
تصطبغ بصبغة البيئة ، وتتأثر بخصائص الجنس ، وتقسم بسجات العقيدة .
وما أبطالها الذين وجدوا على الرغم من قانون الوجود ، ونازعوا أبطال
التأريخ ثوب الخلود ، فقد كان لبعضهم ولا شك حظ من الحياة ،
وشهرة بلازمة الاسفار وملابسة الغير ، فتحدث الناس أولاً بما فعلوا ،

ثم سرجوا حول انتمائهم وأنبيائهم الأكاذيب والأعاجيب حتى أصبحوا
أعلاماً على شخصيات متميزة في البطولة والحرب والحب والحيلة والكرم ،
كدعدن وليلي في الشعر ، وأبي نواس وجحا في التنادير .

أما أكثر الأبطال فممن خلق الخيال ، ابتدعهم رموزاً للمثل الأعلى
أو القدر العايب ، أو الجند العاثر أو السلطان الجائر ، أو الهوى المتسلط
أو الأمل الآسفي أو الحظ السعيد . وعلى ذكر الطفولة ومناعيات الأمومة
أراكم ولا ريب تركتموني أتكلم ، وعدتم بالذاكرة الى تلك العهود الحبيبة
تتخيلون سحرها وتستعيدون ذكرها ، وتصيخون الى ذلك الصوت الجنون
يقبع خافتاً من أعماق الماضي القريب أو البعيد ، مردداً أسماء أولئك
الأبطال الذين طالما اكتبتم لاكتبتم ، وتألمتم لصلابهم ، وشاركتهم وهم
بالعطف في نعماء الحب وبأساء الحرب ولأواء الخطب ، من أمثال حسن
البصري ونور الدين المصري ، والشاطر محمد ، والشاطر حسن ، إلى آخر
ما سجلته الذاكرة .

أنا كذلك ، يا سادتي ، ذكرت حين كتبت هذه السطور ، هاتيك
القبور التي ضمت هواي ، ورفقة صباي ، ونوعاً من الجنان والاخلاص
لم أذق له طعماً منذ غاض في هوة الليل منبعمه ... ثم ذكرت شيئاً آخر :
ذكرت مجلي من مجالي الأنس في القاهرة كان جمعة القلوب وألفسة النفوس
ومستجماً الخواطر ، فعصفت به ريح المذنية الحديثة ، ذلك منظر
المحدث أو القصاص أو المسامر أو الشاعر في مقهى الحي ، وهو في
جلته الشرقية المرفوقة الضافية ، فوق صفته الخشبية البالية العالية .
وقد تجمع بين يديه وعن يمينه وعن شماله أوزاع العامة وشيوخ الحلقة ،
يستجمعون من كلال العمل اليومي برشف القهوة العربية وتدخين الترجيلة
العجمية ، وتبادل العواطف الاخوية ، ثم الاصغاء المشترك الى (أبي درويش)
وهو يقص بصوته المتشد وجرسه الهاديء الموزن ، حروب (عنتره) أو

وقائع (أبي زيد) أو مخاطر (ابن ذي وزن) ، فينقلهم بقوة تثيله أو
بحسن ترتيبه ، على جناح الخيال الى عصور هؤلاء الابطال ، فيشهدهم مجد
البطولة وسيلطان الحب وفلك السحر وبطش المردة . ثم يرى الحديث
أن فورة الحماسة أو الشوق قد طغت في النفوس لوقوع البطل في أمر
أو شدة ، فيسكت ليجمع « النقوط » من الستار والنظار ، فلا يجد
هؤلاء مندوحة عن تعجيله ليمجل هو الى اطلاق البطل من إساره ، وانقاذ
الجمهور من شدة قلقه ومرارة انتظاره .

وفي ليلة من هذه الليالي الساهرة تجدون القهوة ذات الضوء الشاحب
والصمت الحالم والمنظر الكئيب ، قد خفقت فوقها الرايات ، وأشرقت
في جوها الليرات ، وتلألأت في سماها المصابيح ، وأخذت زخرفها
بالسامرين . وقد جلسوا متقابلين على الدكاك العالية ، يطوف عليهم غلمان
بأكواب من ذوب السكر المعطر بماء الورد ، وصاحبنا المحدث قد خرج
الى القوم يتهادى في عتمته المكوّرة وجبهته المعصفرة وقطائمه الأنيق
الأصفر . وقد تدلت من حزامه الحريري دلازل تنوس على بطنه المنتفخ
الضخم ، فإذا استوى على عرشه المنجد توهج البخور من جانبيه ،
وتضوعت العطور من جانب ، ثم خشعت الاصوات ورنت اليه العميون ،
وأنشأ يحدث ، فإذا بدا لأحد الجالسين أن يسأل عن سبب هذا المهرجان
عجب أولاً من أنه لا يعرفه ، ثم أجابه بلهجة الفخور المزهو : هذه
ليلة زفاف « عيلة » الى عنترة . . .

فإذا كانت القصة قصة بني هلال ، وجدتم هذا الهوى الجميع قد استحال
الى عصبية شنيعة ، ورأيتم إخوان الامس قد أصبحوا أعداء اليوم ،
قطائفة تتعصب لبني هلال ، وطائفة تتعصب لبني زناتة ، وهؤلاء يريدون
الشاعر على أن يقص واقعة ، وأولئك يسألونه أن يقص أخرى ، والشاعر

لا يجيب إلا لمن يحزل له العطاء ، فإذا رجحت كفة وشالت كفة ، أخذ يروي من ذاكرته وغيبه على هوى الفتنة الغالبة ما لم يسجله تأريخ ولم يدونه كتاب ، فيزور الغرائب ، ويخلق الوقائع ، ويقمش بما خزنه في حافظته في مختلف الأسفار ورفائق الأشعار ليحوك منها للبطل حلة شه العجيب في قلوب أشياعه ، وتلهب الغيرة في صدور خصومه ، فاما نفحة أخرى تميل به الى الجهة الثانية ، وأما معركة بين الحزبين تكون هي القاضية .

هذا الرجل الذي صورته لكم هذه الصورة المتقاربة ، هذا الرجل الذي ينام النهار ويجلس الليل يحدث أربع ساعات متعاقبة ، هذا الرجل الفكه اللبق الحافظ الواعظ ، هو الأثر التاريخي والنموذج الحقيقي لذلك القصاص البارع الذي خلف لنا كتابنا الغالي الخالد (الف ليلة وليلة) ..

يرجع تاريخ هذا القصاص يا سادة إلى صدر الاسلام ، والفضل في وجوده كان أيضا للقرآن الكريم ، فقد اشتمل كما تعلمون على مجلات من أخبار القرون الخالية والنذر الأولى ، وكان أعلم القوم يومئذ بتفصيلها من أسلم من أهل الكتاب ، كنعم الداري ووهب بن منبه وكتب الاحبار وعبد الله بن سلام . فكان هؤلاء ومن أخذ عنهم يجلسون الى الناس في المساجد ، يفصلون ما في كتاب الله من قصص الانبياء ، ويسرفون في تهويل هذه الانبياء ، ابتغاء للعبرة والتأسي بالموعظة . ووافق هذا الضرب من الوعظ هوى النفوس ، فازداد إقبال الناس عليه ، وكبر إفاك القصاص فيه حتى طردهم أمير المؤمنين علي من المساجد ما خلا الحسن البصري .

ولكن دهاء السياسة رأوا سلطان هذا الفن على العقول ، وقوة أثره

في توجيه المبول ، فالتحذوه لساناً للدعاية وسبيلاً لاختلال الحديث واختلاق الأقاصيص في الأغراض الحزبية المختلفة . بدأ بذلك معاوية ، فولى رجلاً على القصص كان إذا صلى الصبح جلس يذكر الله ورسوله ، ثم دعا للطفيفة وحزبه ، ودعا على أهل خصوصته وحزبه . وكان هو إذا انقضى من صلاة الفجر جلس إلى القاص حتى يفرغ من قصصه . وكان ولاته وقواده يقدمون القصص في بعض حروبهم ليقتصوا على المقاتلة أخبار الشهداء وما وعدوا به من حسن الجزاء . فعل ذلك الحجاج في العراق ، وجاراه فيه من حاربهم من زعماء الفرق . فقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة (٧٧) أن عتابة بن ورقاء سار في أصحابه قبيل المعركة يحضهم على القتال ويقص عليهم . ثم قال : أين القصص ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : أين من يروي شعر عتابة ؟ فلم يجبه أحد ..

وسار الشعر والقصص في ركاب السياسة جنباً إلى جنب ، يشبهان على الناس وجوه الرشيد ، ويوهمان على العقول صور الباطل والقصاص كانوا في ذلك أشد وطأة على الحق ، لأنهم ينسبون ما يفترون إلى التاريخ أو إلى الدين . فلما هدأت ثائرة الأحزاب ، وسكنت طائفة الفتن ، ونضجت العقول ، عاد القصص إلى المسجد ، فوجد الواعظ قد غلبه على مكانه ، والعالم قد فطن إلى كذبه وبهتانه ، والخليفة قد استغنى عنه بروايته وندمائه ، فاقبل إلى العامة بسامرهم في أملاهم وأعراسهم بما أثار من أيام العرب ، ونقل من أساطير المعجم ، وروي من أخبار الفتوح .. وانتشر القصص في العواصم الغربية حتى صاروا ظاهرة من ظواهر اجتماعها وحاجة من حاجات عامتها ورعاها ، واشتدت هذه الحاجة حين انفجرت الدواهي على العالم الإسلامي في أواخر العصر العباسي وبمعه من عنف المصلطين من الألاجنة . وعنف المتغلبين من المغول وغزو المتعصبين من الفرنك فطمعهم العامة بتفريخ الكرب ، والخاصة



الاستاذ احمد حسن الزيات والاستاذ محمد بهجة الأثري
في شهر شباط - سنة ١٩٦٨

تشجيعاً على الحرب ، ولكنهم كانوا في مصر أبرع صناعة وأنفق بضاعة وأرفع مكانة ، لأن طبيعتها إقليمية ونظام اجتماعها وطباع سكانها كانت تعين على ذلك : فهي قطر زراعي مملووم الرقعة متصل العبارة بوجود بالخير الكثير على الجهد القليل . فكان . لذلك أهله قليلي الاسفار ، يؤمنون بكل خبر ، كثيري البطالة ، يميلون الى اللهو والسمر ، وكانوا لا ينفكون بين بسر متدفق طلق ، إذا غم الفيضان وغدل السلطان واقتصد الموت . وعسر متجهم إذا فحش الغلاء وألحّ الوباء وبغى الحاكم . وعلى الحالين كان السامر والمسامر عنصرين من عناصر الحياة ونظمتان بهجة الحياة في الرخاء ، ويسريان كربة النفس في الشدة . وكان أول من تولى القصص الرسمي في مصر سليمان بن عنقرة التنجيني سنة ٣٨ هـ : تولاه مع القضاء ثم أفرد به ، ثم تعاقبت القصاص من بعده في مصر على اختلاف بينهم في القدرة والغرض ، فكانوا أصداء للعقيدة وأبواقاً للسياسة ، تسمعون عنهم في كل عهد لحجة ، ولكل دولة مندأ وحجة . ونزوت ذلك أقوى ظهوراً في عهد الفاطميين . فقد كان يعقوب بن كلس وزير المعز يعتمد على المناظرات في نشر فقه الشيعة ، وعلى القصص في جذب القلوب لأهل البيت . وكان مقتل الإمام (علي) ومأساة الإمام (الحسين) موضوع المنابر والسوامر في شهر رمضان والمحرم

وقيل إن ربيعة حدثت في قصر « العزيز بالله » فتناقلتها الافواه ، وردتها الأندية ، فطلب الى شيخ القصاص يومئذ يوسف بن اسماعيل (١) أن يلهمي الناس عنهما بما هو أروع منها ، فوضع قصة عنقرة تباعاً في

(١) وقيل انه الشاعر الطيّب ابو المؤيد محمد بن الضائع الجوزي . ومن قال بهذا الرأي الأستاذ كزبان دي بريسفال الذي طبع هذه السيرة مائخداً في باريس .

اثنين وسبعين جزءاً ، سميت بها مجالس القاهرة منذ ذلك الحين الى اليوم .
وهي إلياذة العرب ، لا ينازعها هذا الشرف الى الآن عمل في آخر .

وفي القرن الرابع للهجرة كانت فورة هذا الفن ونمضته في بغداد
والقاهرة . ففي عهدي المقتدر بالله العباسي ، والعزير بالله الفاطمي ، كان
القصاص الحكوميين والشعبيين يحتشدون لوضع الاخبار ، ويتنافسون
في جمع الاسماء من الوراقين والرحالين والمامة .

ولكن القصص في العواق كان من عمل الكتاب ، يصورون فيه أنبل
عواطف الناس ، وأجمل مواقف الحياة ، ويلقونه زهوراً وعطوراً في
مجالس الخلفاء وسواهم الملوك . فكانت بلاغة المتحدث وجمالة السامع
ونبالة الموضوع ، تطبع القصة بطابع الجمال والاعتدال والقصر ، وتوزع
بها الى السليقة العربية المجدولة على الإيجاز والقصد في الشر والخطب
والرسائل والقصص . فما جمعه ووضع (الجهمشاري) و (ابن دنان) و (ابن
الغضائري) في القرن الرابع من الاقاصيص في الحب الطروب والتعرف
المسرف ، وما وضعه من قبل هؤلاء (سهل بن هرون) و (علي بن داود)
و (أنان بن عبد الحميد) من الاسماء في الامثال الرمزية والحكمة العالية
والسياسة الرشيدة ، وما صنعه من قبل هؤلاء (عبدالله بن دأب) و (هشام
الكلبي) و (الهيثم ابن عدي)^(١) من الاخبار في الهوى العذري والسخاء
العربي في الاسلام والجاهلية ، كل اولئك موسوم بسمة العقلية العربية
الخالصة من حذف الفضول وترك الاستطراد وقلة المبالغة .

أما القصص في مصر فكان غالباً ، من عمل القصاصين والمسامرين ،
يلقونه من الكتب ، ويلقونه من الإخوان ، ويحدثون به الدهماء في

(١) عيسى بن دأب وهشام الكلبي والهيثم بن عدي من الرواة لا يعتد برواياتهم .

الجالس العامة . ورزق هؤلاء القصص على قدر ما عندهم من القصص فإذا ما انقطع أحدهم عن الحديث انضوب معينه انقطعت به أسباب العيش ، فهم لذلك مضطرون الى تطويل الموضوع بالاستطراد ، وبسط الحداث بالترديد ، وجذب القلوب بالإغراب والمبالغة . ومن ثم اتخذ الادب القصصي في مصر شكلا لا عهد للادب العربي به ، ذلك هو شكل القصة بالمعنى الذي نفهمه من كلمة (رومان) في الاصطلاح الغربي ، فإن المعروف الشائع من قبل إنما كان « Fable » والاقصوصة « Conte » والحكاية « Nouvelle » وهذه الأنواع قد تولد بعضها من بعض على نحو ما يرى الأستاذ (بروتيير) الناقد الفرنسي من تطبيق مذهب (دارون) على الأنواع الأدبية . فالاقصوصة نشأت من المثل ، والحكاية نشأت من الاقصوصة ، ولقصة نشأت من الحكاية باتساع الجبال وفعل المبالغة وحكم الزمن . ولكن القصة العربية قد تأخر نشوؤها إلى القرن الرابع حتى ظهرت بمصر ، لأن عملها يقتضي التطويل والتعطيل والعلم بطبائع الناس وأوصاف الشعوب . والعرب في عهودهم الأولى كانوا أبعد بطبيعتهم ومعيشتهم عن هذه الأمور ، ثم كانوا في عصور النحضر والاستقرار يؤثرون الخاصة بأدبهم فيضطرون في حضرة الملوك أن يراعوا الادب ، فلا يفرقون في الحداث حتى يجانب العقل ، ولا يسهبون في السمر حتى يجاوز المجلس ولا يسفون في القول حتى يصادم الخلق .

أما القصص المصري ، فقد تهيأت له الأسباب اللازمة لخلق القصة . كان سميح الاوزاع والعامية فلم بتقيد معهم بقوانين الخلق ، ولا بقضايا المنطق ولا بوقائع التاريخ . فهو يصطنع اللهجة الصريحة ، ويستعمل الالفاظ القبيحة ، ويبالغ في الحلاط والتلفيق قصداً الى الاغراب والتشويق . ويعتمد غالباً على المفاحآت القوية ، ويستطرد كثيراً إلى الحوادث الفرضية ثم يصادم الوقائع وبشوة الحقائق ، لأنه يحلمها ، والجمهور الذي يستمع

لا يعلمها ، فاستطاع بذلك أن يزور أغرب الحوادث ، ويجمع شتى الأحاديث ، ويترك لنا هذه المجموعة القصصية التي كانت ولا تزال للخاصة مبعث لذة ، وللعمامة مصدر ثقافة .

كان القصص المصري يعتمد في مادته على ما يصدر عن بغداد من الأقاصيص الموضوعة والروايات الصحيحة والمُدخولة ، ثم يضيف الى ذلك ما تنقل في مصر وما تجمع من الأخبار من التجار والرحالين والبخارين . فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة ، يدونون ما رأوا من الأعاجيب ، كما فعل اليعقوبي وابن فضلان ويزرك بن شهريار مثلاً ، ثم يحدثون بها الناس ، كان يقولوا لهم مثل ما حكاه ابن خردادبه من أن في بعض الأمم رجالاً أعراض الوجوه سود الخلود لا تزيد قامة أطولهم على أربعة أشبار ، في جلودهم نقط حمر وصفر وبيض ، وأن فيهم من له أجنحة يطير بها ، ومن رأسه كراس الكلب وجسمه كجسم الثور والاسد . وما جاء في كتاب (المستطرف) من أن في « البلغار » من طولك أكثر من ثلاثين ذراعاً ، يأخذ الفارس تحت إبطه كما تأخذ الطفل الصغير ، ويكسر ساقه بيده كما تقطع حزمة البقل ، وما رأى الرحالون بالطبيع هذه الأشياء ، وإنما رأوا صورها على الآثار التي خلفها البابليون والفراعنة والرومان والفرس ، فظنوها حقيقة .

كان القصص يتناول هذه الاخلاط فيؤلف منها قصة كبيرة الفصول والفصول تدور حوادثها على بطل واحد ، ولكنها تعرض من قبيل الاستطراد الى حوادث شتى لا يصلها بحياة البطل إلا صلة واهية . انظروا مثلاً كيف صنع قصة عنتره : بناها على حادثة أصيلة صحيحة هي (حرب داخس والغبراء) التي شئت لظاها بين عيس وذبيان قبيل الاسلام ، ثم دارت رحاها على قطب من أقطابها وهو عنتره بن شداد العبسي ،

فذكر نشأته في حادثة خرافية جذابة ، ثم وصف رجولته وبطولته وفصاحته وحبه وكرمه ، وما اتصل بذلك من عادات البدو ، كالضيافة والحماسة والاجارة والشعر والغزو والسلب والنار . ولكن حروب عبس وذبيان معها هزل فيها وطول لا تشغل بال السامعين طويلاً ولا تدّر عليه من المال كثيراً ، فهو يوقع الخصومة بين عنزة وبين فرسان العرب ، فيقابلهم ويقاتلهم ويسمهم جميعاً بالشكول والعجز . والقصاص في أثناء ذلك ينقلنا في السهول والادوية ، وينقلنا بين المضارب والახبية ، حتى جلا لنا من الحياة الجاهلية صورة صادقة لا تتمثل في خواطركم عن طريق التاريخ المقتضب المفكك إلا بعد جهد . ثم يرى مع ذلك أن الشوق شديد ، وأن الامد الذي يريد بعيد ، فيخرج البطل من الجزيرة العربية ، ويقدم به الى مصر بلد القصاص ، فيقود بها عنزة حروباً ، ويهلك شعوباً ، ويبتني حصوناً ، لا تزال العامة تعرفها إلى اليوم باسمه .

ثم يذهب به الى القسطنطينية ، ويؤوجه من امرأة رومية ، حتى إذا ظفرت المنون أخيراً بالشجاعة الخارقة ، عاد ابنه من (بيزنطة) الى الحجاز ، فطالب بعرش أبيه ، وحارب معادية ومغتصبية . والمبتسة التي اختارها القصاص لعنزة تدل على قدرة فنية عجيبة .

وكان (لامرتين) لا ينفك بها معجباً ومنها طروباً ، فقد ذكر أن (الاسد الرهيص) أحد خصوم عنزة المقهورين الموتورين رماه غيلة يسهم مراراً مسموم ، فلما أحسن البطل فعل الموت في جسمه الوثيق ، خشي على قومه من بعده شرّ الهزيمة وغار الفشل ، فوقف حيال العدو النائر منطياً جواده متكئاً على رمح ، وأمر جيشه بالتقهقر والنجاة ، فأرتد الجيش ، وبقي هو واقفاً يعالج سكرات الموت ، والعدو متحفز للهجوم ، ولكنه لا يجرؤ عليه خوفاً من عنزة ، حتى فاضت روحه على صخرة

جواده ، وكان الجيش المتقهقر قد بلغ مأمنه . فلما طال وقوفه وجاوز الحد سكونه ، ارتأب الجيش المهاجم ، فدبر حيلة لكشف الأمر ، فأرسلوا إلى جواده حجتراً تهيجه ، فلم يكذب يراها الفرس حتى وثب وثبة خرو لها فارسه على الأرض صريعاً .

والغالب فيما أظن ، أن القصص قد أخذ هذا الختام البارع من مصرع (سليمان بن داود) أمام عماله المسخرين من الجن ، وقد أجملته البلاغة المعجزة في هذه الآية الكريمة ، « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرت تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

ظهرت هذه القصة الحماسية الجميلة في عصر كان وادي النيل فيه منبع الحوزة بامر الجلالة صافي المورد ، لا يكدره والسع ولا واغل ، فكان استقلاله يلهم العزة ، وعزوبته توحى الشهامة . فلما هبت الاعاصير الهوج بالبربرية الجامحة فأطفأت منائر بغداد وزعزعت عرش الخلافة ، وعشت المعجمة الجاهلية بقرات العرب من علم وأدب وخلق ودين ، وعدت ذئاب الغرب باسم الصليب على الشام ومصر تنبح الهلال الآفل وتنهش المجد الطريد . رأينا القصة المصرية تصور هذه الحياة الحزينة الآفلة تصويراً عجيباً ، ورأينا القصص قد اتسع خياله بقدر ما ضاق علمه ، فهو يخلق بلاداً لم توجد ، ويتصور حوادث لم تقع ، ويعتمد في العمل على الجن والسحر والخوارق .

فبين القرنين السادس والثامن من الهجرة ، ظهرت في مصر سلسلة من القصص الطويلة الجذابة عُفلا عن أسماء مؤلفيها ، لأن القصص المحترفين إنما كتبوها لأنفسهم فيما أرجح ، ثم توارثوها خلفاً عن سلف حتى بلغت عهد المطبعة ، فنشرت على شكلها دون اسم ولا رسم ولا تعريف .

وأشهر قصص هذا الدور سيف بن ذي يزن والاميرة ذات الهمة
وفيروز شاه . فأما أنها كتبت في هذي العهود ، فذلك واضح لأدنى نظر
من لغتها وأسلوبها وما تدور عليه من عادات واعتقادات وضور . وأما
أنها كتبت بمصر ، فذلك ثابت من أماكن وقائعها وأسماء أشخاصها .
فأبطالها جميعاً عاشوا بمصر حتى الذين لم يروها أقدموهم اليها . . .
فالمهمل بن ربيعة كان الوجه البحري مبدان حزويه ، وسيف بن ذي
يزن هو الذي أجرى النيل من جبال القمر بكتابه السجري الذي دفعه
في جزيرة الروضة بالقاهرة ، وهو الذي خطط مدن مصر ، فالجزيرة اسم
من أسماء زوجاته . وسيفك الثلاث ودمهور الوحش قائدان من قواده ،
والنيل تفرع الى قرعي رشيد ودمياط لان الملك (سيفسا) وقت وهو
قادم به من السودان يقاتل الكفار الذين اعترضوه في رأس الدلتا فوقف
النيل بوقوفه ، ولكن الماء وراءه قد عبّ عبابه وطفحت أراذيله ،
فاندفق شطر منه الى الشمال ، واتجه الملك بالشطر الآخر الى اليمين .
ومدينة (سمبود) أصلها سماء نود ، لان الحكيم (نودا) صاحبها قد
عقد عليها سماء بالسحر توقعا لغارات الملك سيف وهو ذاهب بالنيل
الى مصبه ، ثم دفنه المؤلف أخيراً فوق جبل المقطم - وقال إن قبره
هو الذي يعرف الآن (بالجيوشي) .

وقد كان للحروب الصليبية أثر ظاهر في نسج هذه القصص في هذا
الدور ، فان العواطف الدينية والحاسة القومية التي يهتمها في قلوب
المسلمين هذه الغارات قد حملت القصص على أن يتعلق هذه العواطف
ويغذيها بما يلقى من الاشعار والاخبار في فضائل الجهاد والاستشهاد
والصدق والصبر . فسيف بن ذي يزن كان حنيفاً مسلماً ، يقتحم المعادل
والارصاد على الوثنية والشرك في معالم الارض ومجاهلها وهو يقول :
لا آله إلا الله ابراهيم خليل الله ، وكذلك سائر الابطال في القصص ،

إلا أنهم كانوا قبل الإسلام لا يبعده .

وبين القرنين الثامن والعاشر للهجرة كان حكم المماليك بفساده وحكم الأتراك باستبداده ، قد أتيا على ما بقي من أركان الاجتماع ، وحلوا أواصر الاخلاق والطباع ، ومنى الناس بالحاج الأوباء وشراة الجنبسة والرؤساء ، واستشمرت نفوسهم ذل الحرمان والقهر ، فأخذوا إلى التصوف أو إلى المجون ، وعالجوا همومهم بالحشيش والافيون ، وحارب بعضهم بعضاً بالشطارة والحيلة ، وقتلوا على حطام الدنيا بالحديعة والغيلة ، وحال نظام الفتوة في مصر إلى مناسر من اللصوص والعيارين يقطعون متون السبل ويعيثون بالآمن . والناس من ضعف السلطان يخضعون لهؤلاء ويجلونهم لإجلال الزعماء ، ويتناقلون حوادثهم وأحاديثهم بالاعجاب والمبالغة ، فظهر حينئذ ذلك القصص الوضيع الذي يمثل هذه الحال بحقارتها وسفالتها ، وبصور تلك البيئة بخرافاتها وجهالتها ، كالقصص الذي يدور على (علي الزبيقي) و (أحمد الدنف) و (حسن شومان) و (دليمة المحتالة) و (دالة المحتالة) كما يسميها المسعودي . وأصبح أسلوب القصص في هذا الدور دائراً بين الجهالة والقحة ، فهو يستعمل في قصصه لغة مبتذلة وتراكيب فاحشة وجملاً محفوظة ووقائع واحدة يرددها في كل قصة ويكررها في كل مناسبة . وكانت شهوة السهر والسمر قد بلغت مداها في ذلك الحين لتغلب البطالة على أهل القاهرة ، واعتاد الناس في الثروة على الحيلة والشعوذة والسحر والقدر ، فتكدسوا في السواجر حول القصص . وقد تجمع هؤلاء من خلال القرون ذخيرة وافرة من الأساطير والاسمار فهمتوا يدونونها ، كما دونت تلك السير من قبل ، فكان مما دون في تلك الحقبة العربية كتابنا وموضوع محاضرتنا (ألف ليلة وليلة) .

(ألف ليلة وليلة) يا سادة ، كتاب شعبي ، تمثل فيه طوائف الشعب وطبقاته ، وقراءات من خلاله ميوله ونزعاته ، وتكلمت فيه أساليبه وأهجاؤه ، فهو

كالشعب . وكل شيء للشعب قد لقي من جفوة الخاصة وترفع العلية أذى
طويلاً ، أغفله الأدب فلم يتحدث عنه ، واختقره الأدباء فلم يبحثوا فيه ،
ورآه محمد بن اسحق المعروف بابن التديم فقال إنه غث بارد ، لأنه نظر
إليه نظره . إلى الأدب الأرستقراطي الذي يصور الترف ، ترف البخيل
وجمال الصنعة . فلما حقق العصر الحديث تغلب الديمقراطية وسيادة الشعوب ؛
واستتبع ذلك عناية أصحاب المذهب الإبداعي (الرومانتيكي) في
الغرب بحياة السوق والدعائم غنايتهم بحياة الملوك والنبلاء ، وهب رواد
الاستعمار وعشاق الآثار ينقبون عن (فولكلور) (١) الشرق ، أخذ أدباؤنا
بحكم التقليد والعدوى يعطفون على أدب السواد ، فدرنوا اللغة العامية ،
وجمعوا الأغاني الشعبية ، ونظروا بعض النظر في فن القصص ، وسمعوا
في رجفة من الدهش إلى قول الأوربيين : إن في أدبنا الموروث كنزاً
دقيقاً من هذا النوع ، له في أدبهم أثر قوي وشأن ثابته . ولكنهم لم
يخلدوا بدياً إلى هذا القول بثقة ، واستكثروا على هذا الكتاب الخرافي
السوقي أن يذكر في الكتب ، ويوضع في المكتاب ، ويثبت في الناس إلى
فضله ، وحينئذ العرب باقتناجه ، حتى رأينا بعيوننا أنه نقل منذ أوائل
القرن الثامن عشر إلى كل لغة ، وحلّ الموقع الأول من كل أدب ، وظفر
بأعجاب النواصب من كل أمة ، حتى قال فولتير إنه لم يزاوِل فن القصص
إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشر مرة . وكتب القصص الفرنسي
(استندال) أن يحوا الله من ذاكرته « ألف ليلة وليلة » حتى يعيد قراءته
فيستعيد لذته .

ثم قرأنا أن أقلام المستشرقين أخذت تتجادل منذ أوائل القرن التاسع
عشر في أصله ، وتكشف عن مناحي جماله وفضله ، وأن دوائر المعارف

(١) جمع التقاليد والأساطير الشعبية لأنه من الأمم .

الكبرى سجلته في حقولها وخصته بالطريف الممتع من فصولها ، وأن
 الأستاذ (فكتور شوفان) أفرد له في كتابه « تاريخ المؤلفات العربية » جزءين
 سرد فيهما مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته وجزءين آخرين لخص فيهما
 طائفة كبيرة من حكاياته . وأن الكتاب الروائيين قد استغلوه للسينما
 والمسرح ، فاستخرجوا للاول رواية « لص بغداد » والثاني « قسمت »
 أو القضاء والقدر ، وأن رجال التربية والتعليم في فرنسا والمانيا وانكلترا
 قد اقتبسوا منه أدباً للاطفال فاخترصوه وصوروه ، ولقيت أنا منذ
 عامين في القاهرة مستشرقاً اسبانياً وآخر أمريكياً ، قد ارسلت الاول
 جامعيته والثاني جمعيته لينقبا في مدن الشرق عن مخطوطات ألف ليلة وليلة .

حينئذ أخذت خاصتنا تقرؤه وتسمعه . ومطايعتنا الراقية تصحيحه
 وتطعيمه ، وأدباؤنا المترفعون يشيرون اليه في تاريخ الأدب . ولكنهم الى
 اليوم لم يدرسوه دراسة علمية تكشف عن لبابه ، وتستقطر النطف
 العذاب من عيابه ، وهو على الرغم من جميع ما فيه قد سجل على ثوالي
 القرون أطوار اجتماعنا ، وصور بالألوان الزاهية مختلف أخلاقنا وطباعنا ،
 ونشر في الشرق والغرب أنوار حضارتنا وازدهار ثقافتنا وجمال تقاليدنا ،
 وأتم نقص التاريخ الذي تجاهل الشعب ، والأدب الذي احتقر العامة ، فكانت
 منه للناسد الاجتماعي والمؤرخ والفيلسوف والأديب الباحث والكاتب
 القصصي منهل ثم الثينابيع صافي المورد ، ثم كانت - فضلاً عن ذلك -
 للشعب العربي في زمن انحلاله وضياح استقلاله وصعوبة اتصاله قبس ينبعث
 الحرارة في النفوس الخاملة ، وذكرى تلوع القلوب أسى على المجد المذهب ،
 وصلة ثقافية تجمع المنازع المتفرقة على الوحدة .

يكاد يكون « ألف ليلة وليلة » علمياً ثانياً على بغداد ، بل ربما كان
 أدل عليها اليوم في نظر الشعوب الحديثة من شأنها الرفيع في الحضارة

ومكانها البارز في التأريخ ، ذلك لأن آثارها المادية قد ألحّ عليها طغيان الدهر وقيضان النهر حتى محوها . أما هي في هذا الكتاب فلا يزال سناها باهياً لم يخب ، وضدائها مدوياً لم ينقطع ، فهو للحضارة العربية في بغداد متحف زاخر بالأعاجيب ، دونه مسا للحضارة الفرعونية في مصر من معابد ومقابر وكنوز ، لأنه يسير في البلاد وهي ثابتة ، ويتحدث إلى جميع الشعوب وهي صامتة ، حتى أصبح لفظ بغداد في جميع اللغات مردافاً للعمران الزاهر والترف العجيب ، واسم الرشيد رمزاً للعبد الشامل والزمن الخصيب . ذكر أحد كتاب الانكيز فترة من الزمن الرخي فقال : « كان ذلك في العصر الذهبي » ، إذ كان يحكم الخليفة العادل هارون الرشيد ..

ذلك بعض فضل الكتاب على بغداد . وقد ذكرت من قبل ، أنه لم يؤلف على هذه الصورة فيها ، ولم يؤلفه أحد من بينها ، وإنما جمع في مجالس القصص في القاهرة ، ودون على هذا الشكل في القاهرة . وطبع أول طبعة كاملة في مطبعة الحكومة في القاهرة ، ثم كان حظ القاهرة من « كتاب ألف ليلة وليلة » أن صورها للناس مثابة للاحتيال والسطارة والجهل . بينما يصور بغداد مهبطاً للفضل ، وموطناً للنبل ، ومعدناً للكرم ، وعشاً للحب ، ومظهرأ للترف . حتى كان من جراء ذلك أن أهل بغداد لا يزالون يقولون (غياق مصر وحيال مصر) ونحن ما زلنا نقول في القاهرة : تبغدد فلان إذا أظهر البغدة . وهي كلمة مشتقة من « بغداد » على ما أرجح تدل على السرف والترف والبطر والنبل ^(١) .

(١) كان هذا الاشتقاق في الماضي السعيد لعمد السعيد . أما في العهد الحديث ، فقد راح خواننا المصريون يطلقون لفظة تبغدد الرجل إذا كثرت لحيته وسحق سيوفه حتى العظام . حدث للوفد الحقوقي العراقي برئاسة الأستاذ منير القاضي في الحفل الجامعي الذي أقامته الجامعة في القاهرة إن عثمان الشيخ سعيد شرع يثشد قصيدة الزهاوي التي حيا بها مصر : —

وسبب اختلاف حفظ البلدين من الكتاب أن القضاة المصري إذا تحدث عن مصر - وهو منها وفيها - تحدث عما يرى وعبر عما يسمع ، وقد علمنا في أي عهد من عهود الضعف والانحلال ظهر هذا الكتاب بمصر . أما إذا تكلم عن بغداد فأنما يتأثر بعموم أربعة : يتأثر بما وضع من الأقاصيص الجميلة في بغداد ، ويتأثر بما ملا الأذان وشغل الأذهان من عظمة بغداد واهبة الخلافة ، ويتأثر بما ركب الله في طباع الناس من تقديس الماضي وتعميم البعيد ، ويتأثر بجهل أحداث التاريخ وتطور الأمم ، فأبى وهو في القرن العاشر من الهجرة أن يعترف بموت الرشيد ومصرع بغداد ونكبة المجد الأثيل .

أما بعد ، فأني أحاول الآن ، يا سادتي أن أكشف عن حقيقة « ألف ليلة وليلة » بمقدار ما تهيأت لي المراجع في بغداد ، بعد أن توفرت على قراءته ودراسته في مختلف الطباعات ، ووقفت على ما نشر عنه من الأبحاث في بعض اللغات ، وما أريد بالطبع أن ادفع للسأم في نفوسكم بذكر ما لا يحتمله المقام من التحليل المفصل ، وإنما اجتريء بذكر ما لا يسع الرجل المثقف جهله من هذا الكتاب .

وهنا يدركنا مساء كما يدرك شهرزاد الصباح ، فنرجي البقية الى الأسبوع المقبل إذا تفضلتم بالسماح ^(١) .

— فأكثر من اللحن وأساء تقطيعها وتقدم ثان وثالث وأراد الاستعاذ ، وهو نحوي كبير ولغوي أن يخفف الحال فوقع في بعض الخطأ ، فلما أخذ بعض المحتفين يلقون كلماتهم ، صار ينعنون الطلاب من يقع في اللحن بقولهم تبغده الرجل .

(٢) كنت بين شهود هذه المحاضرة وكنت في يوم من أيام شهر رمضان ، وبالرغم من أن أكثرنا كان صائماً رددنا أو استمر الزيات في محاضراته ، فقد خطب البابنا وسخرنا بالقائه الجميل وتقطيعه الحسن وبهرته العذبة .

المحاضرة الثانية عن تأريخ ألف ليلة وليلة :

ألقى الأستاذ الزيات محاضرته الثانية في قاعة المدرسة الثانوية ببغداد بعد أسبوع من محاضراته الأولى ، وذلك في كانون الثاني سنة ١٩٣٣ م . وقد غصت القاعة بالمستمعين حتى ان الكثيرين قد اضطروا الى الوقوف لاستماعها . وقد وفي الأستاذ الموضوع تحقيقاً وبحشاً ، وأوضح تأريخ هذه القصة وما دخل عليها من زيادات ، وذكر من عني بدراستها من الغربيين ، فجاء تحقيقه كافياً شافياً لم يبق مستزيد طلباً في زيادة . وهذا نصها :

« ليس من اليسير على الباحث الكشف عن حقيقة كتاب كآلف ليلة وليلة ، أصله مفقود ، ومؤلفه مجهول ، وزمان وضعه مبهم ، ومكان حوادثه مشكك به ، لأننا إذا فزعنا الى التأريخ نسأله قال : إن ما يتصل بالأقاصيص والأساطير كان خارجاً بطبيعته عن اختصاص الأديب ومنهاج المؤرخ . وإذا رجعنا الى نص الكتاب ندرسه لننتبين من لغته وأسلوبه وأسماؤه أبطاله ومواطن رجالة وعقائده أهله نصيب كل جنس وجيل في تكوينه ، وجدناه من هذه الجهة ضعيف الحجة خادع الرأي قليل الغناء ، لأن كثيراً من النساخين والقصاصين في البلاد المختلفة قد اغتصروا فتنقوه على وفق لهجاتهم ، وعبثوا به على مقتضى شهواتهم ، حتى لا تجد نسختين منه تتفقان ، لا في الترتيب ولا في النص . ففي حكاية البنات مع الجمال والصعاليك الثلاثة مثلاً يقول : الصعلوك الثاني إنه قرأ القرآت بالروايات السبع وحفظ الشاطبية ، والشاطبية في علم القراءات كالألفية في علم النحو . وفي بعض النسخ لا يذكر الشاطبية ، ويكتفي بذكر الروايات السبع ، فلو أن ذكر الشاطبية كان عاماً في جميع النسخ لحكمنا بأن هذه الحكاية كتبت بعد سنة ٥٩٠ هـ وهي السنة التي توفي فيها الشاطبي . وفي حكاية مزين بغداد يذكر المزين الفيلسوف سنة ٧٦٣ في نسخة

وسنة ٦٥٣ في نسخة أخرى ، فعلى أي الرقعين نعتد في تأريخ هذه الحكاية ؟

إذن لم يبقَ للباحث غير الاعتماد على النقد المبني على تأريخ الحضارات المقارن ، وعلى ما بقي في الكتاب من صور الأساليب ورسوم التقاليد التي لم يشوهها النسخ ، ولم يعفَ عليها الزمن .

كان أول من ذكر ألف ليلة وليلة من المؤرخين على بن الحسين المسعودي المتوفي سنة ٣٤٦ في كتابه (مروج الذهب) ، فقد قال حين عرض لأخبار إرم ذات العماد : « إن هذه الأخبار موضوعة من خرافات مصنوعة ، نظمها من تقرب من الملوك برواياتها ، وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة اليها والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية . (وفي رواية أخرى الفهلوية بسند الهندية) مثل كتاب هزار أفسانه وتفسير ذلك بالفارسية ألف خرافة ، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتهما شهرآزاد ودنيا زاد .

ثم جاء بعده محمد بن اسحق المعروف بابن النديم المتوفي سنة ٣٧٥ هـ فقال في كتابه الفهرست : « أول من صنف الخرافات ، وجعل لها كتباً ، وأردعها الخزائن الفرس الأول ، ثم أغرق في ذلك ملوك الاشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ونقلته العرب الى اللغة العربية ، وتناولوه الفصحاء والبلغاء فهذبوه وثقفوه وصنفوا في معناه ما يشبهه ، فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب هزار أفسانه ، ومعناه ألف خرافة .

وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان إذا تزوج امرأة

وبات معها ليلة قتلها من الغد . فتزوج بجارية من أولاد الملوك ، لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد . فلما حصلت معه ابتدأت تحدثه ، وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها ألف ليلة . . . رزقت في اثنتائها منه ولداً أظهرته وأوقفت الملك على حيلتها عليه ، فاستعقلها ومال اليها واستبقاها ، وكان الملك قهرمانة يقال لها دنيا زاد ، فكانت موافقة لها على ذلك . وقد قيل ان هذا الكتاب ألف لجيا ابنة بهمن .

ثم قال ابن النديم في موضع آخر : (والصحيح إن شاء الله أن أول من سمر بالليل الاسكندر ، وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه لا يريد بذلك اللذة ، وإنما كان يريد الحفظ والحرس ، واستعمل لذلك بعده الملوك هزاز أفسانه ، ويحتوي على ألف ليلة ، وعلى دون المائتي سمر ، لأن السمر ربما حدث به في عدة ليال . وقد رأيت به تمامه دفعات ، وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث) .

قالرجلان كما ترون متفقان على أن الكتاب منقول عن هزاز أفسانه الفارسي . وأنه موضوع في خبر الملك والجاريتين : شهرزاد ودنيا زاد ، وأن اسمه في عصرها كان ألف ليلة ، لا ألف ليلة وليسلة ، ولا غبرة بمجيء الكتاب في الطبعة الحديثة المصرية لمروج الذهب ، فبان ذلك من زيادة المصحح . ويختلفان في نسب البنات والجارية . فيقول ابن النديم إن شهرزاد من أولاد الملوك ، وان دنيا زاد قهرمانة الملك ، ويزيد أن الكتاب يحتوي على ألف ليلة ، وعلى دون المائتي سمر ، وأنه ألف لجيا أو هميا أو حماني أو جمانة أو خماني على اختلاف الروايات ، وهي بنت الملك بهمن بن اسفنديار .

هاتان هما الوثيقتان الخطيرتان في تاريخ هذا الكتاب ، ولا يوجد غيرها

فيما نشر علينا من كتب مؤرخينا القدماء ، اللهم إلا إشارة الى وثيقة
 ثالثة مفقودة نقل عنها المقرئ في الخطط ، والمفسري في نفع الطيب
 وعزواها الى مؤرخ مصري اسمه القرطبي ألف كتاباً في تاريخ مصر على
 عهد الخليفة العاضد الفاطمي ذكر فيه ألف ليلة وليلة ، وقايس بين
 قصصه وبين ما يتداوله الناس في عصره من الحكايات المشهورة . وفي هذا
 دليل على أن الكتاب على أي صورة من الصور ، كان معروفاً في مصر
 على عهد الفاطميين ، وأن اسمه كان اذ ذاك ألف ليلة وليلة ، وأن
 عنصراً من القصص العربي قد دخل في هيكله ، ثم تجاهله بعدئذ أدباؤنا
 ومؤرخونا فلم يحققوا مصدره ولم يسجلوا نموه وتطوره ، حتى جاء رأس
 المستشرقين (البارون سلفسترد ساسي) فبدأ البحث العلمي في أصله
 بمقالين نشرهما في جريدة العلماء ، أولهما في سنة ١٨١٧ والآخر بعنده
 بإحدى عشرة سنة . وجملة رأيه أن الكتاب تأليف جماعة لا تأليف واحد
 وأنه مؤلف في العهد الأخير ، وأنه عربي الوضع من فائقته الى خاتمة .
 ودفع قول المسعودي أن فيه عناصر أجنبية من الهندية أو الفارسية .
 فناقش أدلته قوم آخرون أشهرهم (يوسف فون هامر الألماني) ، فقص
 نشر في سنة ١٨١٩ مقالا في إحدى المجلات الألمانية ، وفي سنة ١٨٢٣
 مقالا آخر في المجلة الآسيوية ، أيد فيها رأي المسعودي تأييداً لا سبيل
 عليه لأخذ . وفي سنة ١٨٣٩ ترجم الأستاذ (وليم لين الانكليزي)
 قسماً من ألف ليلة وليلة ، وقدم له مقدمة حاول أن يثبت فيها أن
 الكتاب تأليف رجل واحد ، وأنه ألف بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٢٥ للميلاد .
 ثم استأنف هذا البحث في هذا العصر طائفة من الثقات ، أشهرهم :
 كوجي ومولر ونولدي واوستروب وكريمسكي وشوفات وكارادفو ،
 فاستجلوا على قدر امكانهم ما غرض من أصل هذا الكتاب ، حتى أصبح
 من الممكن بعد تمحيص ما قالوه وتصحيح ما جهلوه ان ثبت في هذا
 الأصل رأياً يقارب الصواب إن لم يكنه .

أصل الكتاب وطبقاته :

أصل هذا الكتاب نواة من الأفاصيص الهنديه والفارسيه تسمى (هزار أفسانه) ترجم الى العربيه من القهلويه في أواخر القرن الثالث للهجرة بعنوان (ألف ليلة) وهو الذي رآه المسعودي وانتقده ابن النديم . ثم تجمع حول هذه النواة في الأزمنة الواقعة بين القرن الرابع والقرن العاشر من الهجرة طبقتان : طبقة بغدادية صغيرة وطبقة مصرية كبيرة . فأما النواة أو الأصل أو الإطار كما يسميه الباحثون ، فمؤلف من الحكايات الباقية الآتية : حكاية الملك شهریار وأخيه شاه زمان ، وهي مقدمة الكتاب ، وحكاية التاجر والجن ، وحكاية الصياد والجن ، وحكاية حسن البصري ، وحكاية الحصان الأبنوس ، وحكاية الأمير باسم وجوهرة السمندييه ، وحكاية أردشير وحياة النفوس ، وحكاية قمر الزمان ابن الملك شهرمان والأميرة بندور ، وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال ..

وقد اختلفت كلمة الباحثين في أصل هذا الأصل كما ألعنا الى ذلك من قبل ، فقريق يرى - ورأيه الأرجح - أن المقدمة وبعض حكايات الأصل هنديه ، ويبني هذا الرأي على المشابهة في الموضوع والطريقة والأسلوب . فأما المشابهة في الموضوع فإن في حكاية الملك شهریار وأخيه مشابهة من (كافات ساجارا) الهندية ، وأما المشابهة في الطريقة فإن ادماج حكاية وتوليد قصة من أخرى ، إحدى خصائص الأدب القصصي الهندي ، وهي ملحوظة في ملحمة (مهابهارامه) وقصة (بنجة تنترى) أصل كليلة ودمنة ، لأن الباعث الأول على القصص في الأدب الهندي كان بناء الفرصة واكتساب الوقت حتى يؤفك المتهور من عزمه ويحجز المتسرع عن وجهه ، كما فعل البيغم مثلاً مع زوجة صاحبه في حكاية (سوكا سابتاني) ، فقد كان يقص عليها كل يوم أحسن القصص ليعوقها بملهو

الحديث عن زيارة خليلها في غيبة خليلها ، ويقطع حديثه دائماً بقوله : سأقص عليك البقية غداً إذا بقيت في البيت . وهذه الطريقة وذلك الباعث نجدهما في كثير من حكايات ألف ليلة وليلة . فلا نزاع إذن في أنها هندية . وأما المشابهة بالأسلوب فإن لوازم القاص الهندي أنت يقول : لا تفعل ذلك وإلا أصابك ما أصاب فلاناً ، فيسأله السامع . وكيف ذلك ؟ فيجيب القاص على هذا السؤال برواية القصة . وهذا الأسلوب نفسه مستعمل في تلك الحكايات من ألف ليلة وليلة ، وقولهم فيها : وكيف ذلك ؟ ترجمة حرفية لهذه الجملة السنسكريتية : (كانت اثاث) . ثم يمضي هذا الفريق في تطبيق نظريته على بعض الحكايات ، وينتهي إلى أن هناك طائفة من الأقاصيص لا شك في أنها فارسية ، وهي حكايات الحصان الأبنوس وحكاية حسن البصري وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال ، وحكاية قمر الزمان والأميرة بدور وحكاية بدر باسم والأميرة جوهرة السمنديلية وحكاية اردشير وحياة النفوس .

وفريق آخر يرى أن الأصل كله فارسي ، تأثر بالعقائد اليهودية والاعريقية والإسلامية ، ويريد أحدهم وهو الأستاذ (كوجي) أن يجعل بين هيكمل (ألف ليلة وليلة) وبين قصة (استر) اليهودية صلة ونسبة ، ذلك لأن ابن النديم في الفهرست يقول إن هزاز إفسانه ألفت لحميا بنت بهمن ، والطبري يقول إن استر هي زوج بهمن ، والمسعودي يجعل استر زوجة لمختنصر ويسمها دنيا زاد ، ثم يطلق اسم شهرزاد أيضاً على أم حميا بنت بهمن أي على زوجة بهمن ، وهي التي سماها الطبري استر .

ويقول المسعودي أيضاً في موضع آخر : إن أم حميا يهودية ، ويعود الفردوسي والطبري والمسعودي فيطلقون اسم شهرزاد على حميا نفسها ، وهي بنت الملك بهمن وزوجه على عادة الفرس الأولين . أما وجه الشبه

بين قصة اسير المذكورة في التوراة وبين مقدمة ألف ليلة ، فهو أثر
المملك اسيروس كان كالمملك شهريار ، لا يرى المرأة إلا ليلة واحدة فتتزوج
اليه البكر مساء ليطردها من قصره في الصباح دون أن يقتلها كما يفعل
شهريار ، واسير كانت كشهريار تستهوي الملك وتحلب له ، فيستيقظها
الوزير ، وشهريار بنت الوزير وهي تقرر بنفسها لتتخذ بنات جلسها من
شر الفضيحة والذل ، وشهريار تفعل ذلك الفعل لتدأ عن بنات قومها
خضرت السباء والقمل .

أما علة هذه الآراء المتناكرة التي تجعل هذا الأصل عربياً بحتاً ، أو
فارسياً بحتاً ، أو هندياً مشوباً ، فهي أن القصص العرب قد عيشوا به
عيشاً شديداً ، قبلوا أسماءه ، وغيروا أسلوبه ، وموهوا لونه ، واخترعوا
بعضه ، وطبعوه بطابع إسلامي محض . ثم بعثوه في جوارب الكتاب
وثنايا القصص حتى التأت على المقابيس الفنية فزره وتحديده . وأما الطبقة
البغدادية فتألف من أقاصيص غرامية صغيرة انتزعت من حياة العرب
واتسمت بسمة الاسلام وفاضت بنعيم الحب والتزلف ، تمثل حياة الطبقة
الوسطى بأسلوب صحيح عذب ، وتصور حضارة بغداد في أيام العروس
بخيال قوي خصب ، وتشهدكم سورة الفنى في الاسواق ، وضجة الغلمان
في الافنية ، ونصف الجواري في المقاصير ، ومداعبة الزوارق الالهية في
دجلة ، وتجعل من الخليفة الرشيد ملك رحمة ورسول عناية ، يحى متذكراً
وظاهراً في كل مكان بالثرة للمحروم ، والعدل للظالم ، والوصل للعاشق
البائس . ولا أقصد بذلك إلى أن كل حكاية يتدخل فيها الرشيد تكون
بغدادية ، فإن افتتان الناس بمجده ، وازدهار العراق في عهده ، جعله
رمزاً للمرجاء والعدل ، حتى في زمن غير زمنه ووطن غير وطنه .

تجمعت هذه الطبقة في مدى القرنين الرابع والخامس مما أثر عن

الرواة ودون في الكتب مستقلاً وغير مستقل ، فهي على ما أرجح بقايا القصص التي نشرها الأدباء البغداديون ، ثم طواها الزمن . وقد عد ابن النديم في الفهرست عشرات منها كقصة علي ابن أديم ومنهله وقصة عمرو بن صالح وقصاف وقصة أبي العتاهية وعتب ، وقصة وضاح وأم البنين ، وقصة أحمد بن قتببة وبانوجة ، وقصة ربحانة وقرنفل ، وقصة سكيمة والرباب الخ .

وأشهر حكايات هذه الطبقة حكايات علي بن بكار وشمس النهار ، وهي قصة شهيدين من شهداء الحب تشعر النفوس حرقه الأسى على جدتها العاثر ونهايتهما المحزنة ، وقد صيغت في أسلوب رقيق وعبارة مهذبة ، واشتملت على نوع من الأدب يكاد يخلو منه أدب الخاصة ، وهو الرسائل الغرامية التي تجري بين العاشقين إذا عزّ اللقاء وعيل الصبر ، ثم حكاية انس الوجود وورد الاكمام وهي قطعة حب وشعر وغزل ، تجدون من فيها محباً أو حبيباً أو واصلاً بينهما ، والشعر الذي تضمنته إنما أنشئ لها خاصة ، فهو مطابق لمقتضى أحوالها مشتمل على أسماء إيظاها ، وذلك قليل في سائر الكتاب كقوله من أبيات :

ما خاب من سمالك أنس الوجود يا جامعاً ما بين انس وجود
يا طلعة البدر الذي وجهه قد نور الدنيا وعمّ الوجود

ثم حكاية البنات الثلاث مع الحمال والصماليك الثلاثة ، ثم حكاية النائم اليقظان أو أبي الحسن الخليص ، ثم حكاية بدور وجبير بن عمير الشيباني ، ثم حكاية الرشيد مع الخليفة الثاني محمد بن علي الجوهري ، ثم حكاية المعتضد مع أبي الحسن الخراساني وهي تسدور على السرف والترف والحب وتقص علينا مصرع المتوكل ، ثم حكاية الشاب البغدادى مع جاريتة ، ثم حكاية الجوارى الضرائر ، ثم حكاية السندباد البحري

وهي وصف جذاب شائق لسبع سفرات مخاطر في مياه الهند والصين
 قام بهن السندباد في عهد بلغت فيه بغداد والبصرة غاية لم تدرك يومئذ
 في العمران والعظمة . ومما لا جدال فيه أنها كانت في الأصل رحلة حقيقية ،
 شوهاها الناس بالمبالغة وزيفها القصاص بالافتعال والتزويد ، ولعل صاحبها
 هو الذي تخاها هذا المنحى من الاغراب كما فعل بزرك بن شهريار في
 كتابه عجائب الهند ، فلو صفيناها من سخف الاساطير وصرف الحديث
 كالسمكة العملاق التي يظنها الملاحون جزيرة ، وبضعة الرخ التي يحسبها
 الراؤن قبة ، إذن لتكشفت عن تفاصيل دقيقة تطابق ما كتبه الرحالون
 في هذا الموضوع ، كوضع جزر المهرجا أو المهرجان كما يسميه السندباد
 والبحث عن الماس بواسطة النسور في سيلان وما ذكر عن الفيل والكركدن
 وشجر الكافور وتجارة القرنفل الخ .

وأصدق ما في حكايات السندباد تصويرها لنفسية الرحالة الذي يشغف
 قلبه حب الاسفار ومصارعة الاخطار وجملاً لوجه ، فهو في كل سفرة يخوض
 غمرات الحول ويكابد غصص الفرق ويأخذ على نفسه الموثق الغليظ ألا
 يزعم رحلة بعد هذه المرة ، فاذا ما عاد سالماً غاماً الى دياره ، وتعم
 حيناً بالعيش الرخي بين نداماء وساره ، عاده الوله الشديد الى البحر
 الغادر ، وتزرعته نفسه الطلعة الى الافق البعيد ، فيجتوى الراحة ويعاف
 النعم ويبتاع البضائع ويكتري السفينة ثم يقلع عن البصرة .

واما الطبعة المصرية :

فهي اوسع الطبعت وأجمعها وأصلحها للبحث وأصدقها في اللمحة
 وأقلها في البلاغة ، تألفت في مدى خمسة قرون بين القرن الخامس
 والقرن العاشر من القصص العربية والتقاليد الاسلامية والسير اليهودية

والأساطير الفرعونية . وقد قسمتها حسين حاتمها الى طبقتين :

قديمة تنتهي بالقرن الثامن ، وحديثة تنتهي بالقرن العاشر . فالطبقة القديمة حسنة الأسلوب مطردة السياق شريفة الغرض تسدور على المغامرة والحرب ، وتعارض الأخلاق وتضارب العواطف ، وتعتمد على الطلاسم والأرصاء والجن والسحر والقسدر ، كحكاية مسرور وزين العواطف ، وحكاية الوزيرين نور الدين وشمس الدين ، وحكاية قمر الزمان الثانية ، وحكاية الخياط والاحدب ، وحكاية مزين بغداد ، وهي قطعة فنية رائعة . ثم حكاية علي شار أو بشار مع زمرد ، والطبعة الحديثة على الجملة عامية اللغة ركيكة الأسلوب جريئة العبارة ، تدور ثورة على حيل المحتالين ومكايد العيارين ومخاطر اللصوص ، وثارة على تصوير الأخلاق وتذكير النفوس الغافلة بالعبث . وظهور القصص المحتسالة الداعر بجانب القصص المتصوف الزاهد في هذه الطبقة — إنما اقتضته طبيعة المجتمع المصري يومئذ من التجاء فريق من الناس الى الله ، وانصراف فريق آخر الى الشيطان . وقد كان من الممكن أن تبدو هذه الظاهرة ايضاً في قصص بغداد لولا أن مقامرات اللهو والحب فيها قد غلبت في نفوس القضاة على كل شيء به ، وهم الى ذلك كتابون يتأهون عن حياة العامة ، فقد كان في بغداد على عهد الخليفة المعتضد بالله رجل اسمه العقاب وكنيته أبو الباز ، شهر بالكيد والحيلة حتى قال فيه المسعودي في الجزء الثاني من مروج الذهب ص ٤٧٩ من طبعة مصر : « إنه يبرز في مكائده وما أورده من حيلة على « دالة المحتالة » وغيرها من سائر المكارين والمحتالين من سلف وخلف منهم » . ثم ذكر بعض حوادثه وهي غريبة . وكانت في بغداد كما كان في القاهرة نظام « التوابين » وهم اللصوص ، فإذا حدثت حادثة عارفوا فعل من هي ، ذكر ذلك المسعودي ايضاً في ص ٤٧٣ من الجزء نفسه ، وكانت بغداد والقاهرة تتبادلان هذا الصنف من الزعماء

والشيوخ كما يقصه (ألف ليلة وليلة) .

تأثر القصاصون المصريون في حكايات الحبل إذن بطبيعة العمران ، فضلاً عن تأثرهم بها بقي مذكوراً على بعض الألسنة من أساطير العهود الفرعونية ، فإن قصة علي بابا والصوص الأربعين مثلاً تشبه قصة وردت في (كتاب الأفاصيص الشعبية القديمة) لكبير الأثريين الاستاذ (ماسبيرو) ، ثم تأثروا في أفاصيص العبر والمغارات بالاسرائيليات كحكاية مدينة النحاس ، وقصة حاسب كريم الدين وبلوقيا وجان شاه ، وذلك مما دعا الاستاذ (فكتور شوفان) الى أن يقول إن القصص المصرية الأخيرة ، إنما وضعها يهودي مصري أسلم ، وذلك بالطبع وهم من الاستاذ ، لأن علم العرب بالاسرائيليات منذ ظهور الاسلام لا يقل عن علم اليهود بها ، وأشهر أفاصيص هذه الطبعة حكاية علي بابا والأربعين حرامي ، وحكاية علاء الدين ابي الشامات والمصباح العجيب ، وهي التي اقتبسوا منها لص بغداد للسينا ، ثم حكاية معروف الاسكافي ، وحكاية أبي قير وأبي صير ، وقصة حاسب كريم الدين وماكة الحيات ، وقصة مدينة النحاس ، وحكايات أحمد الدنف وحسن شومان وعلي الزبيق ودليلة المحتالة وزينب النصابة ، وحكاية الملك الناصر والولة الثلاثة وحكاية الرجل الصمدي وأمراته الافرنجية .

وفوق هذه الطبقات الثلاث أو الأربع تراكم في العصور الحديثة عدد من القصص الكبيرة والأفاصيص الصغيرة ، ليبلغ الكتاب الغاية التي حددها له اسمه . وفي هذه الزيادة تختلف النسخ اختلافاً شديداً . من تلك القصص طائفة حائلة اللون من أثر التقليد ، كقصة عجيب وغريب وسيم الليل ، وهي من قصص البطولة والحرب ، تستعر وقائعها في العراق بين العرب والمعجم أو بين دين الحنيفة والمجوسية ، وتستعير

صورها من قصة عنقرة وسيرة ابن ذي نزن . ثم قصة عمر النعمان وأولاده وهي مضروبة على قالب أردشير ، وحياة النفوس ، ثم قصة تاج الملوك والاميرة دنيا ، وهي كسابقتها تقليد لقصة أردشير ، ثم حكاية جان شاه وهي تقليد سخيف لحكاية حسن البصري ، ثم حكاية وردخسان والملك جليعاد وهي ملفقة من أمثال كليلة ودمنية ، وطائفة أخرى يغلب فيها أثر التجديد كحكاية هكتار الحكيم وأقصوصة شول وشمول ، وحكاية الجارية تودد . وهي حكاية ثقافية تعليمية كتبها فقيه مصري في العهد الأحدث على الرغم من وقوع الحادثة ببغداد وقيام المناظرة برياسة النظام المتكلم في مجالس الرشيد ، فإن الجارية كانت تجيب السائل في الفقه على المذهب الشافعي وتصرح بذلك ، وتفكر في التقوم الزراعي للشهور القبطية كهميك وبرمودة وبشخص ومصري وأمشير ، ثم تقول في حضرة الرشيد ، الويل ثم الويل لمصر والشام من جور السلطان ، ومن الغريب أن الأستاذ (أوستروب) يقول في (دائرة المعارف الإسلامية) إن هذه القصة نشرت في إسبانيا بعنوان (لادون لا تيودور) أو تودور ، ويظن تودد تصحيف تودور ، ولم يتح لي الاطلاع على هذه القصة لأرى كيف تتفق مع قصة كل ما فيها مناظرة في علوم الثقافة الإسلامية البحتة ..

وهناك عدا ما ذكرت مجموعة من أقاصيص الفرسان والأجواد ونوادير الأولياء والزهاد نقلت من العقد الفريد والمستطرف وعروس المجالس ومناقب الصالحين ، لم يقصد بها إلا توسيع الكتاب .

مؤلف الكتاب وزمن تأليفه وسبب تسميته :

ذهبت جهود الباحثين باطلا في تحقيق هوية المؤلف ، لأن (هزار أفسانه) نقل الى العربية 'عقلا لم 'يسم' واضعه ، ثم غشيت الطبعات

البغدادية والمصرية على التدريس ، فكان كل قصاص يكتب لنفسه ما سمع وجمع في عصره من ثمرات القرائح وقطرات الأقلام دون أن يسندوها الى راو أو يعزوها الى مؤلف ، ولماذا يفعل ذلك وهو يريد أن يحفظ ويقتص لان يروي وينشر ؟ فلما هيأت الاحوال أسباب تدوينها في العهد الذي ذكرته ، قبض الله لها من ضم شتات ألفتها ، ونسق نظام وحدتها ، ثم دوّنها على هذه الصورة ، ولم يستطع ذلك الجندي المجهول أن يملئ اسمه على الخلود . إما لتواضع حمله على إنكار ذاته ، وأما لتواطؤ من الشكران والنسيان ألمات اسمه بعد مماته . ومن التوافق الغريب أن أسماء الكتّاب الذين وضعوا القصص الفرنسية الكبيرة في العهد الذي دوّن فيه (ألف ليلة وليلة) ، قد سحِب النسيان عليها ذيل كذلك كأغاني رولان وقصص المائدة المستديرة وقصص الحكماء السبعة مثلاً .

وقد اختلف العلماء في أن يكون المؤلف واحداً أو جماعة ، ولست أرى لهذا الخلاف وجهاً ، فان الكتّاب تكونون على اليقين من أعمال مستقلة ، ثم تما بالاتفاق على توالي الحجب ، فوضعه وتكوينه إذن عمل جماع ، وجمعه وتدوينه عمل فرد ، وتحليله الى الأعمال الفردية المتعاقبة أمر فوق القدرة ومن وراء الامكان . أما التاريخ الذي قرّ فيه على هذا الوضع الأخير فهو النصف الاول من القرن العاشر من تاريخنا ، ومن الممكن أن نحصره منه في السنوات العشر الواقعة بين سنتي ٩٢٣ و ٩٣٣ ، وهما توافقان سنتي ١٥١٧ و ١٥٢٦ من التاريخ المسيحي . وقد حصّره الاستاذ (وليم لين) الانكليزي بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٣٥ للميلاد أي في مئتي وخمسين سنة ، فوافقناه في الغاية وخالفناه في البدء ، ولم نرَ هذا الرأي اعتباراً من جهة ، ولا استنباطاً من جهة أخرى ، وإنما اعتمدنا في تحقيقه على دليل مادي ، وهو أن الاستاذ الفرنسي (جلان) . قد أخذ ينشر ترجمة الكتاب لبلاط الملك (لويس الرابع عشر) سنة ١٧٠٤ . وقد نقله

من نسخة عربية مخطوطة في ثلاثة مجلدات أرسلت إليه من سورية بعد سنة ١٧٠٠ وهي مكتوبة بمصر 'غفلا من التاريخ' ، ولكن الذي نقلها إلى الشام وهو من طرابلس كتب عليها بخطه أنه امتلكها سنة ٩٤٣ للهجرة ، ثم انتقلت من يده إلى يد آخر من حلب ، فكتب عليها أيضاً تاريخ هذا الانتقال وهو سنة ١٠٠١ ، فيكون تأليف الكتاب إذن قد تم قبل ٩٤٣ بزمان نقدره كما قدره (لين) بعشر سنين .

هذا من جهة الطرف الأعلى . أما من جهة الطرف الأدنى ، فإننا نجد ذكر (القهوة) المعروفة يتكرر في بعض الحكايات كحكاية أبي صير وأبي قير حكاية علي نور الدين ومرج الزنارية مثلاً ، وذلك لا يكون قبل العقد الأول من القرن العاشر ، لأن القهوة لم تنتشر في الشرق إلا في هذه المدة ، ثم نجد لفظ (الباب العالي) وبعض النظم العثمانية تذكر في حكايات أخرى كحكاية معروف الاسكافى وهي مصرية قطعاً ، والعثمانيون لم يستولوا على مصر قبل سنة ٩٢٣ فيكون الكتاب إذن قد دوت بعد هذه السنة وقبل سنة ٩٣٣ ..

ذلك تحقيق الزمن الذي صنف فيه الكتاب جملة ، أما تحديد التاريخ لكل حكاية وكل طبقة فذلك عمل إن تيسر في حكاية تعذر في أخرى وبعض الباحثين قد حاول ذلك في شيء من التوفيق كالاستاذ وليم بوير الأمريكي ، فإنه نشر سنة ١٩٢٤ بحثاً في ٤٤ صفحة من المجلة الاسوية جزم فيه بأن حكاية الوزيرين شمس الدين ونور الدين قد كتبت بعد حكم الظاهر بيبرس أي بعد سنة ٦٧٦ ، وبرجح أنها كتبت سنة ٧٠٦ ، وأن قصة الخطاط والأحدب بما تشتمل عليه من الحكايات الأخرى كمزين بغداد ، قد ألفت سنة ٨١٩ للهجرة ، والدخول في هذا الموضوع يخرج بنا إلى التفصيل الذي يحل في الروح ويحمد نشاط الحديث .

سمى العرب « هزار أفسانه » (ألف ليلة) ولو أرادوا الترجمة الأمينة لقالوا (ألف خرافة) أو أسطورة ، فعُدولهم عن العنوان الصحيح يدلنا على أحد أمرين : إما أن الليلة كانت في اصطلاحهم ترادف الأسطورة باعتبارها زعمًا لها ، وذلك ما نستطيع استنباطه من قول محمد بن اسحق الوراق : (ابتدأ أبو عبدالله الجهمشداري صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسفار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يتعلق بغيره . واحضر المسامرين فأخذ منهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسفار والخرافات ما يحلى بنفسه ، فاجتمع له من ذلك أربع مئة ليلة وثمانون ليلة سمر تام ، يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنيعة قبل استيفاء ما في نفسه من تسمية ألف سمر) . وأما أن يكون عدد الألف في الأصل إنما أريد به التكثير لا التحديد ، على حد قوله تعالى (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ، وآخر به أن يكون كذلك ، فإن ابن النديم قد رآه بتمامه مراراً ، وقال : إن فيه دون المئتي سحر ، وهو اليوم بظبقائه وزياداته واستطراداته لا يتجاوز ٢٢٤ حكاية ، قسمها المؤلف على ألف ليلة وليلة تقسيماً فيه عيب الهزل أو سخف الصناعة ، فإن (شهرزاد) يدركها الصباح دائماً ولما يضطر على حديثها غير يضع دقائق ، على أنه لم يبق مما رآه ابن النديم إلا تلك الحكايات التي سردناها عندما تحدثنا عن الأصل .

أما زيادة الليلة على الألف ، فمن عمل القرن السادس ، لأن النسخة التي رآها القرطبي بمصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي كانت تحمل اسم (ألف ليلة وليلة) ، ويقول (جلد مستر) في تعليل زيادة الليلة إن العرب يطيدون بالأعداد الزوجية ، وهو زعم غريب ما رأيت في تاريخنا ولا في أدبنا ما يؤيده . ولقد ظل الكتاب أكثر من قرنين يسمى (ألف



الجالسون من اليمين : الشمالي ، الرضائي ، الزهاوي ، عطا الخطيب .
 الواقفون : علي محمود الشيخ علي ، بهاء الدين النقشبندي ، جميل المدفعي ، طه الراوي ، موفق
 الألوسي ، رؤف الكبيسي ، عبد المسيح وزير ، إبراهيم كمال ، محمود صبحي الدفتر ، أحمد
 حامد الصراف ، طه الهاشمي ، مزاحم الباججي ، علي ممتاز ، عبد العزيز المظفر ،
 عبد الله الشواف ، محمد بهجة الأثري ، رفاقيل بطي ، وتوفيق السمعاني .

ليلة) ، وكان الجهمشيارى يريد أن يسمى كتابه (ألف سحر) ، وعندنا ألفية ابن معطي وألفية ابن مالك . وأعرب من هذا الزعم أن يؤيده (أوستروب) في (دائرة المعارف) ويزيد عليه أن ميل الناس في تلك العصور إلى التسجيع في عناوين الكتب كان من البواعث أيضاً في هذه التسمية ، وليس في قولنا ألف ليلة وليلة كما تعلمون تسجيع ولا مزاجعة والغالب في رأيي أن الليلة إنما زيدت فوق الألف لإفسادة الكمال ، كطبعة الآباء وسقطة الميزان ، لأن الألف عدد تام بالنسبة إلى هذا الكتاب ، فإذا زيد عليه الواحد كان كاملاً ، والكمال درجة فوق التام ، وإن في لغة التخاطب ما يشبه ذلك ، فقد يقال في المن : قضيت لك ألف حاجة وحاجة ، وفي المبالغة زرتك ألف مرة ومرة ، وهلم جرا .

طريقة الكتاب واسلوبه :

كانت طريقة العرب في القصص أن يسردوا الاسمار والاحاديث على نط يجعل كل حكاية قائمة بذاتها لا يربطها بما سبقها ولا بما يلحقها علاقة ، وترون ذلك واضحاً في أمثال لقمان وكتب النوادر ، فلما نقلت الأقاصيص الهندية إلى العربية في القرن الثالث عن طريق الفارسية ، أدخلت في أدبنا القصصي طريقة طريفة تجعل الحكايات سلسلة متسكة الحلقات متعاقبة الخطوات ، متتابعة النسق ، وذلك على ضربين : الأول أن تتعلق جميع الحكايات بحكاية أصلية تكون فاتحة لبدايتها ، وسبباً لروايتها ، ابتغاء التعويذ عن فعل ما لا يحل ، وذلك في العربية مذهب كتاب الوزراء السبعة ، وكتاب كليله ودمثة ، وأغلب كتاب ألف ليلة وليلة ، وهو في الفارسية مذهب بختيارنامه ، وقصة جهمشيار درويش ، وقصة نوروز شاه ، وكتاب طوطي نامه ، وأنوار سبيلي مثلاً .

والضرب الثاني أن تروي الحكايات موزعة في الكتاب على عدة أبواب

بحيث تكون الحكاية في أي باب من هذه الأبواب مقدمة لحكاية الباب الذي يليه ، ومن هذا الضرب في أدبنا (كتاب سلوان المطاع في عدوان الاتباع) لابن ظفر الصقلي المتوفي سنة ٥٦٥ ، وكتاب (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء) لأحمد بن عربشاه الدمشقي المتوفي سنة ٨٥٤ ، وفي أدب الفرس كتاب (مرزبان نامه) لمرزبان بن رستم بن شروان ، وقد ترجمه ابن عربشاه واستمد منه ذلك ، فضلا عن الطريقة الفارسية التي احتدیناها في الأقاصيص الغرامية المطولة ، فألف ليلة وليلة إذن يجري على ثلاث طرق : يجري على الطريقة الهندية في الحكايات المتداخلة المتسلسلة كحكايات الاصل ، وحكاية البنات الثلاث والصعاليك الثلاثة ، وحكاية الخياط والاحدب والطبيب ، وحكاية جان ، شاه وحكاية وردخان . الخ . . . ويجري على الطريقة الفارسية في الحكايات المفردة المجردة ، كحكايات العشاق في بعض أقاصيص الاصل وما جرى مجراها من حكايات الطبعة البغدادية ، فانها مضروبة على قالب القصص الفارسي في الاعتماد على الحب اللوهمي الذي يصيب ظرفاء الشباب على أثر طيف يزور في الكرى ، أو صورة تعرض في الطريق ، أو حكايات تلقى في المجلس ، ثم يجري على الطريقة العربية الخالصة في الأقاصيص الصغيرة المقتبسة من كتب الادب ، كحكاية حاتم الطائي ، وحكاية معن بن زائدة ، وحكاية ابراهيم بن المهدي ، وحكاية خالدة بن عبدالله القسري مثلا . . .

فيختلف باختلاف الزمان والمكان والجنس والشخص ، فإذا حكىنا عليه فأثما نحكم على جملة لا تفصيله ، ونتوخى الصفات العامة في نقده وتحليله ، فهو في عمومه أسلوب سهل المأخذ ، مطرد السياق ، سوقي اللفظ ، مبسوط العبارة ، كثير الفضول ، كثير التضمن ، جريء الإشارة ، لا يعرف الكناية ولا يقنئ الحياء ، ولا يصطنع التحفظ ، لأن سبيله سبيل العامة ، فهو يسائرهم في ثورتهم وقضولهم ومذاجتهم وصراحتهم وبلادتهم ، ولا يستطيع أن يكون إلا كذلك ، يسير سير الأعرج المفلوج وراء المذهبيين الكتابيين اللذين راجعا على التعاقب في عهده ، وهما مذهب ابن العميد في العراق ، ومذهب القاصي الفاضل في مصر ، فهو يسرف في السجع ، ويكثر من اقتباس الأمثال وتضمن المالح ، أحيانا يذكر مصطلحات النحو على سبيل التشبيه أو التورية كقوله في قصة قمر الزمان (بانأ على ضم وعناق وإعمال حرف الجز باتفاق ، واتصال الصلة بالموصول ، وزوجها كتنوين الاضافة معزول) وهو يغالي في تضمين الابيات في خلال الحكايات ، ويمعن في ذلك غالبا حتى يمل ، وترصيع النثر بالشعر أسلوب لا يألفه الادب العربي ولا الادب الفارسي ، وأما هو ميزة من مزايا الادب الهندي أيضا . اقتبس الفرس ، ثم نقله كتاب اليمنا في منتصف العصر العباسي ، وروجه في عهد بني بويه مؤلفو القصص ومنشئو الرسائل والمقامات كأبن العميد والصاحب والبديع والخوارزمي ومن ترسم خطاهم أو سار على هدايتهم ، وموضع هذه الاشعار يكون عادة في مواقف السرور والحزن والوصف وثوران العواطف ، ولكن القصص يسيء في الغالب استعمال التضمن ، فيخطئ مواضع الاشعار ، أو يجعل محل المناسبة ، أو يردد الابيات نفسها في كل موقف ، وقد تدفع السجاجة الى الاستطراد القث فيقول : وقال الشاعر أيضا في المعنى ، ثم يورد أبياتا لا يصلحها بالموضوع سبب .

كما فعل في مقدمة علي نور الدين ومريم الزنارية مثلاً ، فإنه حين وصف
البستان لم يترك نوعاً من أنواع الفاكهة إلا ذكره وروى ما قيل فيه
من الشعر حتى استغرق في ذلك خمس صفحات من الكتاب .

إن خير ما يمتاز به أسلوب ألف ليلة وليلة ، هو الوضوح والصدق
والصراحة والجاذبية ، فالمعاني تسبق الألفاظ إلى الذهن ، والصور تسبق
الوصف إلى الحاظ ، والشوق يبعث اللذة ويشير الاهتمام ويحرك الانتباه
ويربط السامع والقاريء بموضوع القصة ، على أن القصص يعالج التصوير
والحوار بدقة وبراعة في كل ما يتصل بأحوال الشعب وأخلاق العامة ،
غذاً سما إلى مقام الملوك والخاصة خاتمة قدرته ، وغلبت عليه بيئته
وطبيعته ، فيفقد ما يسمى في الفن الكتابي بالضيعة المحلية ، وهي أن
يسند إلى الشخص ما يلائم طبيعته وطبقته وبيئته من قول أو فعل ،
فالأفانصيص الهندية والفارسية تشوبها روح القصص الإسلامية ، كحكايات
قمر الزمان بن الملك شهرمان ، والحكايات البغدادية تظهر فيها اللهجة
المصرية ، كحكاية ابن الحسن الخليع ، ثم نراه يجري على لسان الخليفة
الرشيد ما يابى عليه جلاله وكأله أن يقوله ، ويجعله يفعل ما لا يجوز
في العقل أن يفعله ، كان ينادي وزيره جعفرأ بقوله : يا كلب الوزراء ،
ويكلفه في قصة الفتاة المقطعة بالعثور على القاتل في مدى ثلاثة أيام
وإلا شققه هو وأربعين من بني برمك ، وكان يخلع في حكاية علي نور
الدين مع أنيس الجليس حلة الملك ليرتدي مرقعة بالية قلدة لكريم
الصيد ، فيفيض قملها على أطرافه ، ويسيل قدرها على منكبيه وأعطافه .
ولو أن ما كلف به الرشيد من التعب المزري كان لضرورة ملجئة لوجدنا
له مساعداً من الفن ، ولكنه جشمة ما جشمة ليمسنى للخليفة أن يسمع
غناء أنيس الجليس ، وهي في قصر من قصوره ، وفي ضيافة خادم من
خدمته . فهو يدخله في هذا الزي المزري على الحبيبين والبستاني ليقدم

اليهم ما معه من السمك فيكافوه شئته في المطبخ فيشويه .

وكثيراً ما تدفع القصص شهوة الأغراب إلى تجاوز المبالغة المعقولة ، فتفوقه من الفن صفة الامكانية ، وهي أن يلبس القصصي الحوادث الخيالية ثوب الحقيقة فيقرب ما بينها من الظروف ويمهد أسباب الوقوع حتى لا تتنافر مع العقل والعلم والعرف والتقاليد ، والأمثلة على هذا العيب مستفيضة في كل قصة .

وفي الكتاب طائفة من الحكايات قد استوفت شروط الفن القصصي كلها كقصة الصياد والجني ، وقصة مزين بغداد ، ومقدمة حكايات السندباد ، وقصة علي بن بكار وشمس النهار ، هذا إذا نظرنا إلى الاسلوب في جملته وعمومه . أما إذا تتبعناه باللمح الخاطف في نواحي الكتاب ، وجدناه فيها بقي من الأفاصيص الهندية والفارسية وما يجري مجراها من الحكايات الحديثة المقلدة بين السذاجة ، أبلة الإشارة ، لأنها من نوع الخوارق التي تدخل على القلوب الغريبة ، ولا تظفر إلا بتصديق العقل البسيط ، فهو جارر مع طبيعتها ، متفق اللون مع صورتها ، وفي الطبعة البغدادية نراه متين العبارة ، غفيف اللفظ ، حسن السلوك ، دقيق الوصف ، كثير السجع ، قليل الفضول ، لأنه في الغالب مكتوب يحذى على المثل العليا من قصص الفرس وتاريخ العرب ، وقد يسف في بعض الأفاصيص إسفافاً قبيحاً ، فيثقل بسخفه على الطبع ، ويمتدي بضعفه على الذوق ، كما نراه في قصة الخليفة مع النائم اليقظان مثلاً . أما الاسلوب في الطبعة المصرية ، فهو في قسمها الأول وخاصة الأفاصيص المكتوبة عنه أشبه شيء بأسلوب الطبعة البغدادية مع اتساع في السجع وجراًة على الحشمة ، والغالب عليه التقليد فتارة يجري على منهاج الطريقة الهندية كما ترى في حكاية وردخان والملك جليعاد ، وتارة ينسج على منوال الطريقة الفارسية كفعله في قصة قمر الزمان الثانية ، وحكاية مسرور وزين الموصف ، وقد يجري في مجراه الخاص

من التهمك الساخر والمزاح المضحك ، فيكون رقيقاً كما نراه في قصة الاحدب وخاصة في مزين بغداد ، ولكنه في القسم الثاني وفي سائر القصص الالفائية التي ألفها القصاص ليلقوها في السوامر مهمل التسيج ، غامى اللفظ ، مردول المبالغة ، سيء التلفيق ، شديد الوطأة على الحياة والمروءة لصدوره من قصاص محترفين جهلاء ، يتملقون فيه شموات العامة بالافحاش ، ويستفزون فضول الجمهور بالمبالغة ، ثم يكثر فيه ترداد الجمل المحفوظة الملتزمة ، فيقال دائماً في وصف القينة العازفة « فعملت على العود من غرائب الموجود إلى ان طرب الحجر الجمود ، وصاح العود في الحضرة ، يا داود . » وفي إشار البعد : « بعدك عن الحبيب أجمل وأحسن ، عين لا تنظر ، وقلب لا يحزن . »

وفي غرابة الحادثة : « لو كتبت على آفاق البصر لكائنات عيرة لمن يعتبر . »

وفي غرابة الحادثة : لو كتبت بالأبر على آفاق البصر لكائنات عيرة لمن اعتبر . وفي وصف الشيخ الفاني : « وقد أبقى ما أبقى ، وعركه الدهر فما استبقى » ، كأنه مفنى ملقى في خرقة زرقاء ، تمر بها الأرياح غرباً وشرقاً كما قال الشاعر :

أرعشي الدهر أيّ رعش والدهر ذو قوة وبطش
قد كنت أمشي ولست أعبأ واليوم أعبأ ولست أمشي

وفي وصفه ساحة الحرب ومجالس الأنس ورياض الأرض وأثاث البيت ، لا يكاد يغير شيئاً من الاسجاع والاوزاع ومقطوعات الشعر .

ذلكم يا سادتي ما استطعت استشفافه من صور الأساليب الأثرية في الكتاب ، وسترون حين تعيدون قراءته أن القصاص المصنفين والمصححين في مصر قد اخضعوه إخضاعاً شديداً للهجاتهم وأساليبهم وأمثالهم حتى جعلوا البحث اللغوي الفني من البعد بحيث لا تبلغ اليه وسبلاً ؟

ان من يطلب من ألف ليلة وليلة فلسفة خاصة وفكرة عامة ووجهة مشتركة ، كن يطلب من كافة الناس عقيدة واحدة ، وطبيعة ثابتة ، واغراضاً متفقة ، فهو كما قلنا من قبل كتاب شعبي ، يصور الحياة الدنيا كما هي لا كما ينبغي أن تكون ، فاذا رأينا مذاهب تتناقض ، وهراميه تتعارض ، وآراء تختلف ، فذلك لأن المجتمع الذي يصوره كذلك ، ولم يكن الكتاب نتاج قريحة معلومة ولا نتيجة خطة مرسومة حتى نتلمس في جوانبه الدوافع والنوازع والغاية ، إن هو الا صدى يتردد خافتاً لعقائد الشرق القديم وعقلياته وعاداته ، ففي الفلسفة نراه يتأثر بالافلاطونية الحديثة والاخلاق الاسلامية ، فيدعو الى القناعة باليسير والعزوف عن الدنيا والاعتدال في اللذة والمبالغة في الحذر ، والتفويض المطلق للقدر ، فروجه من هذه الجهة تتنافر مع صورة البراقة وسائله الطهاة وحوادثه المغامرة ، ثم نراه في أقاصيص أخرى ولا سيما الحديثة يزين الانانية ، ويرضي القسوة ، ويتشوف الى المكاسب الدنيئة ، ويشره الى اللذة الحسية ، ولا يكاد يعتقد بالعواطف الكريمة . وقد يصور المتاع الحسي واللهو الجورح بما لا يتمثل في الذهن إلا على سبيل الخيال ، كالذي يحكيه عن فتى من أبناء الملوك أرسى الى جزيرة كل من فيها من تجار وصناع نساء كأنهن اللؤلؤ المكنون ، فقصى بينهم في هذا النعيم أياماً أقبل ما أصاب فيها من اللذة أنه كان يلقي الشبكة في الماء على سبيل اللهو ، فتخرج اليه من الاصداف خريصة من بنات الجان ، كأنها حورية من حور الجن الخ ..

فاذا اختبرناه في السياسة والاجتماع رأيناه ملكياً يقيم في كل مدينة عرشاً ، وينصب على كل مجمع من الاحياء ملكاً ، حتى الحيات والحشرات والطيور والوحوش والقرود ، ديمقراطياً يشرك الملك والصعلوك في متع الحياة ومجالي الانس ، عائلياً يبني نظام البيت وتأثيل المجد على الزوجة

والولد ، لذلك تجردونه يستهل معظم أفاصيصة بجنين الوالدين الى النسل ،
وفزعها الى الله أو الى المنجم من داء العقم ، وقد يسمو مغزاه الى
الفلسفة الاجتماعية العالية ، مثال ذلك حكاية السندباد والجمال ، فالجمال
يؤده الحمل الفادح ، وينهكه الحر اللاقح ، فيلقي حمله على مصطبة امام
بيت من بيوت التجار يتردد اليه النسيم الرطب ، وتفوح منه روائح
الطر والطيب ، ثم يرى عظمة ذلك التاجر في كثرة خدمه وعلمانه ،
ويسمع تغريد البلابل والفواخت في بستانه ، ويصغي الى رنين اوتاره
وغناء قبانه ، وينشق أفوايه الطعام الشهي من صحافه وألوانه ، فيرفع
حرقه الحائر الى السماء ويقول : سبحانك يا رب لا اعتراض على حكمك
ولا معقب لأمرك ، أين حالي من حال هذا التاجر ؟ أنا مثله وهو مثلي ،
ولكن حمله غير حلي .

على أن أسوأ ما سجله ألف ليلة وليلة من ظلم الانسان وجور النظم
هو الفوة الجائرة على المرأة فان حظها منه مكثود وصورتها فيه بشعة ،
وكيف نلتظر من كتاب بني على خيانة المرأة أن ينصف المرأة ؟ إن
شهرزاد المسكينة إنما تسهر جفنها وتكد ذهنها لتقص على الملك شهریار
أعجب القصص ابتغاء الخطوة لديه حتى تدرأ القتل عن نفسها والخطر
عن بنات جنسها ، ومن الخطل الأليم أن يسند القصص كل هذه النقائص
الى النساء على لسان واحدة منهن في مقام الدفاع عنهن ، وأن يحرجني على
قهما في حضرة الملك تلك الكلمات المخزية في وصف بهيمية الرجل .

ألف ليلة وليلة يصور لنا المرأة في القسم الهندى الفارسى خطيئة
خائنة تبسيع عرض الملك للعبد في قصة شهریار وأخيه ، لجوجة جموحة
أنانية في قصة الحمار والثور تصر على أن يروح لها زوجها بسرته ، وهي
تعلم أن في افشائه ضياع أمره ، حاقدة كائدة منتقمة في قصة الوزراء

السبعة : قاسية عاتية مرهوبة في حكاية قمر الزمان الأولى ، وهي في بغداد سجنينة في قصرها مغلوبة على أمرها قد انتبذها زوجها وألقى زمامه في أيدي الجوارى والقيان ، وعلى كلتا الحالتين من حرية ورق نراها وسيلة لذة وغرض شهوة وأداة لخدمة ، أما هي في مصر والشام فوجودها عدم ، لا تسمع لها صوتاً في بيت ، ولا ترى لها أثراً في سوق . فإذا خرجت من ظلام السشار الى ضوء النهار ، كانت طاغية جاهلة ، كزوجة معروف الاسكافي ، أو لصة حيالة ، كدليلة وبلتها زينب ، أو قوادة مرتادة ، كأولئك العجائز اللاتي ينقلن الفتنة من مكان الى مكان ، ويصلن المنكر بين فلانة وفلان .

أما تصوير الكتاب لمظاهر الاجتماع الشرقي في القرون الوسيطة من العادات والاخلاق والمواضع في السوامر والولائم والاعراس والمساكن والاسواق والمحاكم ، فقد بلغ الغاية من ذلك كله ، إلا أن الطبعة المصرية في هذا الباب كما قلنا أصدق وأجمع ، لأن القصص وهم مصريون تكلموا عن علم ووصفوا عن رؤية ونقلوا عن سماع ، فإذا قرأتم مثلاً حكاية نور الدين وثمس الدين ، وجدتم المصريين كانوا في حفلة العقد يطلقون البخور ويشربون السكر وينضحون الوجوه بماء الورد ، وفي زفاف العروس ينطقون المواشط وألقبان بالقاء النقود في الدف أو (الإطار) ، كما يسميه ألف ليلة وليلة ، أو (الطار) كما يسمى الآن في مصر ، وفي جلوسها على المنصة يجلسونها بين صفيين من كرائم السيدات في يد كل منهن شمة موقدة ، ثم يلبسونها حلة بعد حلة في فترة بعد فترة حتى يخضع عليها سبع حلال ، ومع كل سيدة من المدعوات الى الحفل حصة من الثياب المعدة لذلك الزفاف يحملها خادم ، فكلما خلعت العروس حلة خلع المدعوات كذلك حلة الى تمام السبع ، ولا تزال هذه العادات باقية في بعض البلاد وبعض الأسر في مصر .

وإذا قرأتم حكاية علاء الدين أبي الشامات ، وجدتموهم كانوا يستعملون الحشايش قوة للزوج ، ويتخذون المحال خلاصاً من الطلقة الثالثة ، وهما خلتان شاعرتان في الطبقة الدنيا ، إقرأوا حكاية معروف الاسكافي ، تجدوه مثالا صادقا لبعض الناس هناك في ضعف الارادة وسلامة الصدر وحب الالهة وتبذير ما في الجيب اتكالا على الغيب واهتماماً للحق ، وتجسّدوا زوجه فاطمة العرة التي قرّت من جبروتها وجفوتها وقسوتها وعنادها الى أقصى مجاهل الأرض فتبعته ، لا يزال لها شبه في الباقيات الصالحات بمصر من عهد الجاهلية .

أما الطبعة البغدادية ، فقد عثت بها القصاص وشابوها بلهجاتهم وعاداتهم ولكنها مع ذلك حرة بثقة الباحث إذا استطاع تنقيتها من شوائب البهرج والدخيل .

بقي علينا أن نعرف وجهة كتابنا في الدين ، وليس من العسير على القارئ أن يتبين تلك الوجهة ، فإن في كل صفحة من صفحاته دليلا على أنه مسلم صادق الإيمان قوى العقيدة ، يأخذ تقاليد الدين صحيحة أو مشوبة مأخذ العامي الواقف المطمئن ، فلا يبعث ولا يستنبط ولا يطبق ، حتى في مقام الحكمة والموعظة لا يسكاذ يذكر حديثا أو آية ، وإنما يستند في ذلك إلى مأثور الشعر ومأثور الحكم ، فسيبيله في الدين أن يدعو اليه ويهتف به ويتعصب له ، لذلك نراه لا يتحدّث إلا عن المسلمين ولا يتخذ اشخاصا لقصصه حتى الأجنبية منها إلا من المسلمين ، فإذا كان أحد الجنة أو الناس غير مسلم واضطر الى الحديث عنه انتهى به الى الاسلام أو دبر له عقبي سيئة ، وذلك نادر ، كما فعل في حكاية مسرور المسيحي وزين الموصف وزوجها اليهوديين ، فالحييب والحييبة أسما فورفت عليها ظلال النعم والحب ، وظل الزوج يهوديا قد فتنه امرأته حياء .

وألف ليلة وليلة سنتي لا يكاد يعرف فرقة أخرى من فرق الإسلام حتى الشيعة - وكان لهم على عهد في مصر دولة الفاطميين ، وفي العراق نفوذ البويهيين - لم يذكرهم إلا في حكاية علاء الدين ، وهي مكتوبة بمصر على عهد المماليك . ولقد دلّ حين تعرض لهم في هذه القصة على جهالة قبيحة أو دعاية سيئة ، فقد أشار في موضوع منها إلى أن الروافض كانوا يكتبون اسمي الشيخين على بواطن الأعقاب ، وقال في موضع ثان إن أهل بغداد كانوا يغلّقون الأبواب خوفاً من الروافض أن يلقوا الكتب في دجلة ، وقال في موضع ثالث إن الرشيد سأل الرجل الذي همّ باغتياله وهو يلعب الكرة والصولجان فتجاه أصلاً بن علاء الدين : أما أنت مسلم ؟ فقال : كلا ، وإنما أنا رافضي .

مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته :

صنّف المنقبون ما عثروا عليه من مخطوطات (ألف ليلة وليلة) ، فكانت ثلاث مجموعات مختلفة : مجموعة آسيوية ومجموعتين مصريتين . فأما المجموعة الآسيوية وهي أقدمهن فلا تشمل إلا على القسم الأول من الكتاب وإحدى نسخها مبتورة ، وأشهرها نسخة كلكتوتا ، وهي تحتوي على مئتي ليلة ، وقد شرع في طبعتها الشيخ اليميني في جزئين بمدينة كلكتوتا سنة ١٨١٤ م ، وأتمها سنة ١٨١٨ م فكانت أول مخطوطة طبعت من هذا الكتاب في الشرق والغرب ، ثم نسخة (برسلو) وهي التي طبعتها الأستاذ (هيكس) في اثني عشر جزءاً ، ظهر الجزء الأول في سنة ١٨٢٥ م والآخر سنة ١٨٤٣ . وأما المجموعتان المصريتان فهما أحدث من الأولى وبين نسخها اختلاف شديد في الأسلوب والترتيب والعدد والقصص ، ومن هاتين المجموعتين نسخة كلكتوتا الثانية التي جمعها ، وطبعها الأستاذ (ماك نوكين) في أربعة مجلدات من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٤٢ ، ثم نسخة بولاق التي طبعتها الحكومة المصرية في مطبعتها بالقاهرة سنة

١٨٣٥ في مجلدين ، وهي أكمل النسخ جميعاً وأصحها ، ومنها صدرت جميع الطبعات في مصر والشام وبومباي ، ونقلت جميع الترجمات الى جميع اللغات ما عدا ترجمة (جلان) . فأما الطبعات ، فكلهن سواسية في قبح الشكل وسوء النقل وقلة العناية ، لصدورهن من أرباب المكاتب وأصحاب المطابع ، وهؤلاء يبتغون أوفر ربح في أيسر كلفة ، على أن أدبياً عن الآباء اليسوعيين قد طبعه بيروت طبعاً جميلاً في أربعة مجلدات بعد أن قصّ من قصصه واقتضب من جملة وهذب من عباراته ، ثم جاء مثنيء الهلال فأربنى عليه بالحذف والابتور والاختصار وطبعه في مصر في خمسة أجزاء صغار ، وهاتان الطبعتان ، ولا سيما الأولى أليق الطبعتان بأخلاق الفتي وحياء الفتاة ، ولكنهما لا تنقعان غلة الأديب الباحث .

فلما الترجمات فأولها في الوجود ترجمة الأستاذ (جلان) ، وهي أنيقة الأسلوب ، رائعة السبك ، إلا أنها غير دقيقة ولا أمينّة ولا واقية ، على أن لها اليد الطولى على الكتاب في التعريف والتنويه باسمه والدلالة على فضله ، طبعت هذه الترجمة ببافيس في اثني عشر مجلداً ابتداء من سنة ١٧٠٤ الى سنة ١٧١٧ ونقلت عنها سنة ١٧٠٧ ترجمة انكليزية مختصرة في ستة مجلدات بعنوان الليالي العربية ، وأشهر الترجمات بعد ذلك في السعة والدقة والصدق ترجمة « بورتن » بالانكليزية ، وترجمة مارديوس بالفرنسية ، وترجمة هبكت بالالمانية .

ذلكم يا سادتي ما يتحملة المقام والوقت من تاريخ ألف ليلة وليلة ، وإنكم لترون من هذا الإجمال فعل القريحة العربية فيه ، ومظهر العقيدة الاسلامية في جميع نواحيه ، وطابع العقلية السامية في أخيلته ومراميّه ، حتى أصبح الكتاب عنواناً عريضاً من عناوين آدابنا ، وشاهداً جديداً على الحبيبة القاهرة والشخصية الأمرة في آدابنا ، وإلا فماذا نفسر هذا ؟

لقد خلفوا اليهود على الدين فظهر عربياً رائعاً في رسالة محمد ،
وخلفوا اليونان على العلم فعاد عربياً ساطعاً في فلسفة ابن رشد ،
وخلفوا الرومان على الحضارة فبهرت العالم بالعمران والعبدل في
عصر الرشيد ، وخلفوا الفرس على الأدب فأخضعوا ألسنتهم وأفئدتهم
لأدب القرآن ، وخلفوا الهند على القصص فأروهم روعة الخيال وقوة
الإلهام في ألف ليلة وليلة ، وخلفوا الأمم العظمى على أكثر الارض
فأوشكوا أن يعربوا العالم ، فليت شعري أتغيرت الصحراء ، أم
فسدت الدماء ، أم ضويت الأبناء ، أم هي ربضة الاسد ، واستجماعة
المنعب ، واستجماعة الواثب ، ثم استئناف الهجمة الأولى على الموقع
الأول في الحياة ؟

لقد اعتنستم طويلاً ، وأتعبتكم كثيراً ، وكنت أخرج من المحاضرة
إلى الخطابة ، فعتراً يا سادتي وشكراً .

صديق الكلاب

كتب هذه القصة وهو في العراق ، قصتها عليه رجل بدوي اسمه عبد الواحد ، كان يقوم على خدمته ، حكاهما له بلغته البدوية الجميلة ، فعاد الزيات فسجلها بلغته الفنية . وللزيات قصص قصيرة ، كتب بعضها في (الرواية) وبعضها في (الرسالة) ، ولو جمعت لحصل منها كتاب في الأقصوصة البارعة ، قال :

« شرب عبد الواحد وسقانا ثلاثة أقداح من الشاي المعطر ، ثم أطلق من حنجرتة القوية جشاة طويلة عريضة كخوار العجل ، ثم حضاً النار بأنامله وشيع ضرهما في بقية الفحم ، ثم أشعل منها سيكارته العربية ، وأرسل في رفق دخانها الرقيق الأدكن . وبانت على معارف وجهه شهوة الكلام ، وكان كلي الصغير قد لاذ من قوس البرد بجانب الموقد ، فهو ينطوي وينتشر تبعاً لما يغلب على جو الغرفة من نفح النسيم أو لفح الלהيب . فرأيته يطيل النظر إليه في طرف ساكن ووجه ساهم ، فقلت مداعباً :

لعلك ذكرت بالكلب حبيبته وهي في خباتها بين كلابها وشاتمها ، فابتسم ابتسامة العذراء الخفيرة ، وقال : الحمد لله ، ما ذكرت على فقري حياة البرمند هجرتة ، ولكفي ذكرت رجلاً كان في بغداد يدعى (أبا

الكلاب) . فسألته : وما حديث أبي الكلاب هذا يا عبد الواحد ؟
فلمح في عينيه البشر ، لأن سروره كان في أن يتحدث وأسمع . وذهب
به شيء من التيه ، لأن شعوره بأنه يعلم ما لا نعلم يرفعه قليلاً فوق قدره ،
لذلك تراه عند الحديث يجلس جلسة النظير ، ويلهج لهجة الأمير ، ويقرر
تقرير العالم .

قص عليّ هذه الأقصوصة ، وهو على يقين منها جازم ، وما كان أسرفي
وأسراك لو استطعت أن أنقلها اليك بلغته الجميلة التي تأخذ من لحن
بغداد ومن لحن البادية ! عليّ أنني سأحاول ما أمكنتني القدرة أن
أترجمها ترجمة صادقة ، تكشف عن أثرها وفعلها في نفسي ..

كان في بغداد منذ خمسين عاماً أسرة كريمة تعتز بنسب الغرب من
جهة الأب ، وتتصل بسبب الترك من جهة الأم ، فهي مزاج معتدل من
عقليتين متباينتين ، لا يجمع بينهما غير الدين ، والدين في مثل هذه الحال
يكون أوثق وأمن أسباباً ، لقيامه مقام الجنسية الجامعة والعصبية
القريبة . فالوالدان صالحان تقيان لا يفهان من العروبة إلا النبوة والقرآن ،
ولا من التركية إلا الخلافة والسلطان ، ولا يعرفان من دار السلام وفروق^(١)
إلا أنها بلدان في طريق واحد ، والولدان جميلان باران ، يكبر الذكر
منهما الأنثى بخمس سنين ، وقد درجا معاً من مهد الفضيلة ، ثم ترعرعا في
حنان الأيوبيين على كفاف من العيش يؤتيه متجر غير نافع .

لم يشغل عبد الواحد باله كثيراً بتفصيل حياة هذه الأسرة الصغيرة ،
فكان كلامه عنها مرسلًا بجملاً ، لا يحلل طبيعة شخص ، ولا يحدد تاريخ
حادث ، ولا يعين مكان منزل ، حتى أسماء الأب والابن والبنات لم يجد في

(١) فروق مقر الخلافة العثمانية وهي الاستانة .

ذكرها ما يفيد الحديث .

فهو يحنف ما يزعمه فضولاً ، ويسير قدماً الى هيكل الموضوع وعقدة
الحادث ، فيقول :

إن الغلام كان عمره اثني عشر ربيعاً حينما صحب خاله الى الاسنانة ،
والاسنانة يومئذ كانت منتجع الخواطر ومهوى القلوب الطامعة الى السطوة
والثروة والعلم ، فهل كانت هجرته الى دار الخلافة تثقيفاً لنفسه ، أو
تحقيقاً لآبئه ؟ فما يعلم إلا أنه شدا شيئاً من العلم في إحدى مدارس
القسطنطينية تحت عين واهيه وعونه ، ثم اندفع في شوارع المدينة الصاخبة
بداور الامور ويلتمس المكاسب ، ثم أوغل في مدن البلقان وشباب
الاناضول ، حينما في خدمة الجيش ، وحينما في طلب العيش ، حتى انقطع
علم ما بينه وبين أهله .

كان الغريب النازح يهاجم الاخطار في كل فج ، ويصارع الاقدار في
كل اوج ، وكل همه أن يجمع من المال ما يضمن له ولاسرتة خفض العيش
في ظلال بغداد الجميلة ، فلما ملأ الدهر يديه بما أمل ، كان وا أسفاه ربيعاً
قد أدبر ، وريمه قد أفقر ، وحلمه قد تمدد ، فارت والديه البائسين قد
ألح عليهما من بعده الحزن والضر والفقر حتى انطفأ سراجهما في حولين
متعاقبين بعد انقطاع خبره ببضع سنين .

وأما البنية اليتيمة ، فقد حنا عليها بعض ذوي المروءات من أهل
البيوتات ، فضمها الى حرمه ، وواهى يتمها الحزين بعطفه وكرمه .

عاد المهاجر الى وطنه يحمل في جيبه المال وفي قلبه الامل فما وطئت
قدماه ثرى العراق الذهبي حتى ازدهجت الذكريات على خاطره ، ومرت
الحوادث المزعجات أمام ناظره . ولكن شعوره بلذة العودة الى الارض
التي أبصر عليها الدنيا ، والسماء التي تقبل منها الروح ، والهواء الذي رقت

عليه الصبا ، والماء الذي نضح قلبه بالنعيم ، والاسرة الخنون التي براه اليها الشوق ، والمستقبل الباسم الذي ينتظره في بغداد ، كل أولئك قد شعب فؤاده ، وشفى كبده ، ومسح ما به .

عرف المحلة والدار بعد لأي ، لطموس المعالم القديمة ، ثم قرع الباب بيد مرتجة فاذا المالك الجديد يخرج اليه ، فأقبل عليه المسكين لهفان ضارعا يسأله : هنا كان مهبط نفسي ، فأين أي ؟ وهنا كان مسقط رأسي فأين أمي ؟ وهنا كان لي مهد وأخت وملعب وجيرة . فقل لي بربك يا سيدي : أين تحمل بكل هؤلاء القدر ؟

وكان بين المسؤول والسائل حوار قصير عرف منه اليأس أن ربح النون قد عصفت بأهله ، فارتد إلى الفندق لا يملك دمه ولا قلبه ، ثم قضى حيناً من الدهر ذاهب القلب يكابد غصص الكرب ، ويمالج بعض الهموم ، حتى رأم الزمان والايان جروح صدره ..

وقع في نفس الوحيد الحزين أن يتزوج ليعيد إلى سجل الوجود اسم اسرته . فاقترحت عليه جارة عجوز أن تخطب له فتاة يقولون إن بينها وبين بني فلان عاطفة رحم ، ويؤكدون أنها تنزع الى عرق كريم المذهب وجمالها المحتشم ، فاطمأن قلب الخاطب الى رأي الخاطبة ، واختلفت العجوز بينه وبين ولي الفتاة حتى تم الوفاق وسمي الصديق وعينت ليلة الزفاف ..

زفت العروس إلى زوجها ، فبهره ما رأى من جمال وأحسن من ظرف وسمع من أدب ، فافتقر في وجهه السرور ، وحمد الله على حسن توقيفه . ثم انقضى شهر العسل على خير ما يجد زوج من زوجه . وفي ذات ليلة تجاذب الزوجان أطراف السرور وشققا بينهما الحديث حتى أفضى الى علاقتهما بوليهما فلان (بك) فأحب الزوج أن يعرف درجة

القرابة بينها ففضت الفتاة من طرفها وشاعت حمرة الخجل في وجهها ، وقالت في صوت خافت متهاافت من الحزي والخوف (الحقيقة ان ليس بيني وبين هذا الرجل قرابة ، إنما هو نبيل محسن آوائي ورباني بعد ما فجعتني البين في أخي والموت في أبي ، وأنا يومئذ في حدود الثانية عشر ، ثم تتابعت الاسئلة من الزوج وتسارعت الاجوبة من الزوجة ، وكان كلما انجاب عن خبايا الغيب حجاب امتقع لونه واقشعر بدنه واشتد وجيب قلبه ، وكانت هي كلما رأت منه ذلك نسبته الى الخداعه في أصلها ، فضمت تعضل المأساة وتصور الفاجعة بالكلام والدمع ، عسى أن تعطف قلبه على مصابها ، فلا يفكر في طلاقها وعذابها ، ولكنها لم تكذب تلمس الحجاب الأخير حتى رأت زوجها قد قف شعره وارتعدت أطرافه ثم انفجر صارخاً يقول : واويلئاة ! لقد تزوجت أختي ، ثم خر مغشياً عليه ، فلما تاب اليه بعض رثده ، نظر الى اخته فوجدتها فاقدة الوعي ، فتركها وابتدر الباب ، وخرج مسرعاً لا يلوي على شيء ولا يلتفت إلى أحد .

خرج طريد القدر من بيته لخروج أوديب الملك من قصره ، ثم هام في الطرف الضيقة المتشابكة يسأل الرائع الغادي عن مفي بغداد . فلما دخل عليه ، باح له بسر الخطيئة ، فهول عليه الشيخ التركي بعقابها ، وبالغ في جرائرها واعقابها ، ثم افتناه بعد الاستشارة والاستشارة والرؤيا أن لا يغفر هذا الجرم إلا إذا صدف عن متاع الحياة وخرج عن أثيل الملك واستتر بأخلاق الثياب وقضى عمره في جمع الخبز للكلاب الشوارد .

أذعن الخاطيء البريء لحكم الفقيه اللاحق ، ونزل الزوجة الاخت عما يملك ، وارتدى طمراً من القطن الغليظ ، وجميل على عاتقه بخلة ، ومضى يقرع كل بيت ويقصد كل مطعم فيجتمع الفتاة والخبز ، ثم يقف بالميدان فيقسمه بالسوية على من أجاب الدعوة من كلاب الحي .

لم يمض غير قليل حتى عرفه الناس وألقه الكلاب ، فصار يثشي في
الازقة وخلفه منها قطيع ، وينام في العراء وحوله من شداده حرس
مطيع ، وتحين الوجبة فلا تجد كلباً طليقاً في بغداد الا أجاب نداه ،
وتناول من يديه المحموتين غداه . ولكن الوالي رأى على طول الزمن
أن يدي أبي الكلاب على رعيته عافية وربيع ، فسمعن هزيمها وكثر
قليلها ، حتى اختفى بلهائنها النهار وصمّ بنباحها الليل ، وأصاب الناس
من عضاضها وأمراضها شر كبير ، فأقام في ظاهر المدينة حظيرة واسعة ،
ثم أمر الشرطة فصادوا الضواري وألقوها فيها ، فكان أبو الكلاب
على عادته يجمع الطعام والعظام ثم يذهب الى ضيوف الحظيرة فيطعمها
ويسقيها ، ثم يتهالك على الأرض من اللغوب فيرقد مكانه حتى الصباح .

وفي ضحوة من الايام أولم الوالي لاسراه وليمة (السفاساج) لبني
أمية ، فما نجا من بعدهما لاهت ولا نابح . وجاء أبو الكلاب فرأى
الآفة الخلاء على أديم الأرض صرعي لا يتملقن بعين ، وشبح الجريمة
يحيا ، فتساقط بجانب السور مهدود القوى صريع اليأس ، ولبت مكانه
لا يأكل طعاماً ولا يذوق مناماً حتى لحق بربه .

تقدير الجمهورية العربية للزيات :

نال الزيات جزاء خدمته وتقدير أدبه جائزة الدولة التقديرية سنة
١٩٦٢ في الأداب . وهي أعلى جائزة تمنحها الجمهورية العربية للعلماء
والكتاب ، الذين قاموا بأعمال أصيلة مبتكرة اثرت في بناء الحياة القومية
والانسانية ، وهي التفاتة من الدولة بارعة وكريمة هي بعض ما يستحق
الزيات من تقدير وتقويم لأدبه وخدمته الطويلة ولأمثاله من حملة القلم
ودعاة الإصلاح فهم المجاهدون الأولون وهم الأساس في نهضة الشعوب
ويجب أن يكونوا في المحلى الأرفع والمكان الاسمي قبل حملة الرشاش

والمُدفع ، وحَقهم يجب أن يرعاه الحاكمون .

وانتخب عضواً في المجمع اللغوي في القاهرة منذ سنة ١٩٤٦ ، وراح يعمل على تحقيق الأهداف التي من أجلها انشئ المجمع ، واشترك في لجانه العامة .

منها لجنة تيسير الكتابة ، ولجنة اصول الحضارة ، ولجنة معجم الفاظ القرآن ، ولجنة الادب ، ولجنة اللهجات ، ولجنة المعجم الوسيط . وهو أحد الاعضاء الاربعة الذين تولوا اخراج المعجم الوسيط ، وشارك بعدة اقتراحات ببناء للمجمع منها :

فتح باب الوضع على مصراعيه بوسائله المعروفة ، وهي الارتجال والاشتقاق ، ومنها : اطلاق القياس بالفصحى ليشمل ما قاسه العرب ، وما لم يقيسوه ، فان توقف القياس على السماع يبطل معناه ..

ومنها اطلاق السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما يسمع اليوم من طوائف المجتمع ، كالحدادين والنجارين والبنائين ، وغيرهم من ذوي المهن .

وقدم اقتراحات بشأن المعجم الكبير وذلك بأن يوصي المجلس لجنة المعجم التاريخي الكبير ان تمزج طريقتيها بطريقة فيشر وان تدخل في المعجم جميع الزيادات التي انفرد بها معجم فيشر ، ومنها : اقتراحه لجمع ما تفرق من أعمال المجمع في محاضر الجلسات على طول السنين ليسهل على الاعضاء الرجوع اليه فلا يقع في عملهم تناقض ولا تكرار .

واقترح عرض انتاج المجمع في صورة منتظمة على الجمهور ليستفيد منه من يستفيد ويعقب عليه من يعقب .

وألقى بحوثاً وكلمات قيمة ، منها : الوضع اللغوي وهل للمحدثين رأي فيه ، والمجمع واللغة العامة ، وفي ألفاظ الكتاب المحدثين ، وكلمة أبّن فيها

الاستاذ ابراهيم مصطفى ، وكلمة عن فقيدنا العلامة الشيخ رضا الشيباني .

أشهر مؤلفاته :

١ - وحي الرسالة المجلد الاول تضمن ما كتبه الزيات في افتتاحيات الرسالة من سنة ١٩٣٣ الى سنة ١٩٣٩ .

٢ - المجلد الثاني من وحي الرسالة من سنة ١٩٣٩ - ١٩٤٣ .

٣ - المجلد الثالث من وحي الرسالة من سنة ١٩٤٤ - ١٩٥٠ .

٤ - المجلد الرابع من وحي الرسالة من سنة ١٩٥١ - ١٩٥٤ .

٥ - تاريخ الادب العربي . اعيد طبعه طبعات متعددة احبها جاوزت الست عشرة وفي كل طبعة ينقح ويختصر او يزيد بعض فصول الكتاب وأصبح المرجع المعتمد لدارسي الادب ولا سيما طلاب دور المعلمين والثانويات وحل محل الوسيط والمدخل والمجمل وغيرها من الكتب المقررة وفق مناهج التعليم في العراق .

٦ - دفاع عن البلاغة ، والزيات رحمه الله يدافع عن البلاغة ابلغ دفاع ويعرضها أحمل عرض ويذكر أسباب التنكر عن البلاغة ، ويفصل فصولاً مبتكرة عنها من دعائم البلاغة مثل العلاقة بين الطبع والصنعة ، والذوق ، والاسلوب ، ودعاة العامية والرمزية وموقف البلاغة من هؤلاء المقوضين لاصل البلاغة ، ويتجلى حرص الزيات على الفصحى والدفاع عن لغة الكتاب الكريم صيانة للقرآن الخالد وحفظاً لتراثنا الأدبي والحضاري وفي الكتاب دراسات نافعة لظهور المدارس النقدية وتوجيهه الى كتب النقد الصالحة

٧ - من الادب الفرنسي :

وموضوعه فصول أدبية اختارها واقاصيص وقصائد ترجمها من نوابغ

الكتاب ، وعرب نماذج من القصة القصيرة وضعها أمام عشاق القصة نشر
أكثرها في مجلته (الرواية) .

٨ - في أصول الأدب :

كتاب في النقد ودراسات تهدف إلى توضيح أغراض الأدب وأهدافه
وأساليبه ، ودراسة المسرحية ، ومن موضوعاته محاضراته القيمة (ألف
ليلة وليلة) وأثرها في الأدب الغربي ، وكتابه هذا كان مصدراً عن
مصادر الدراسة الأدبية ، ونواة لكثير من البحوث التي يتقدم بها
الجامعيون ، وفيه عرض لأراء بعض المستشرقين والرد على دلائل منهم
على أدبنا ولغتنا .

٩ - وختم أديبنا الراحل حياته بتأليف كتاب لم يرَ النور بحياته
ذلك هو (عبقرية الاسلام) ، والزيات فيما كتبه عن الاسلام وأيامه الخالدات
في مدى حياته في الرسالة والأزهر ليسدل دلالة واضحة على حرصه
وعقيدته وتشرب روحه لمفاهيم الدين الحنيف ، ولا غرابة وهو الأزهري
المتشبع بأدب الاسلام ولغة القرآن ..

نماذج من آرائه وأدبه

تقدير الزيات :

وبعد فهذه أقباس من أفكار الزيات ونماذج من نثره الفني ، تشع بالنور وتنسم بالصدق وتنشج بالتجديد ، وتحمل طابع الإصلاح والثورة على الجمود ، وتدعو الى العزة الاسلامية والكرامة القومية ، وتبش بالعروبة والوحدة ، خلد الزيات أفكاره ومقالاته في مجلدات أربعة - وحي الرسالة - وما سطره في الرسالة الجديدة وكتبه في افتتاحيات مجلة الأزهر ، لو جمع لكون مجلدين أو أكثر ، وفي جمعها بكتاب تخدم القارئ وعشاق البلاغة ..

وكتب يخاطب زعماء العرب سنة ١٩٤٥

وكانوا قد اجتمعوا للتشاور والتباحث في وضع القواعد والاسس التي يرونها كفيلة لقيام الجامعة العربية فكتب يذكرهم :

« اذكروا يا زعماء العرب وأنتم اليوم بسميل التشاور في تجديد وحدة العرب .. ان الركن الأول من اركان دينكم هو التوحيد ، وأن العمل الاول من أعمال نبيكم كان التوفيق اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فأنف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا » . واذكروا إحسان النبي

إليكم إذ كنتم اشتاتاً فجمع شملكم ، فاقمتم على وحدته ملكاً وسلطاناً ، اذكروا ان الوحدة هي التي مكنت العرب بالأمس البعيد من تراث كسرى وقيصر ، وهي وحدها التي تستطيع في الغد القريب أن تنقذكم من وارث أساطين الاستعمار موسوليني وهتلر وتشوشل ... قولوا للمعوقين منكم ، والمخلفين عنكم ، ان العصبية التي توسوس في بعض الصدور بالرياسة والسيادة والذرة ، إنما كانت في تاريخنا الخافل بالأحداث والغير علة العمل في انشقاق العضا ، وانقسام الرأي والتحلال العقيدة وانتشار الأمر ، وتعدد الدول هي النعمة التي قامت يوم السقيفة تقول : منا أمير ومنكم أمير .. وهي الهامة التي خرجت من قبر عثمان ، وظلت تصيح على دار الخلافة نحن هاشميون ، ونحن امويون ، ونحن قيسيون ، ونحن يازيون ، ونحن غلويون وعباسيون ، ونحن عرب وشعوبيون ... نتقاطع في الدين ونتمادى في الدنيا ... »

الرجل المنتظر :

وفي ٢٩ نيسان سنة ١٩٤٠ كتب تحت هذا العنوان « الرجل المنتظر » والعالم يومئذ يغلي كغلي الحمى ، ويهدر بالحمى كهدير البركان ، والخوف قد ملك كل انسان والممالك تتطاير في خارطة أوربا يومها كتب يقول :

« ليكون لنا حاسب يوم نطالب أن يكون لنا في الدستور رجل يحاسب المنتصرين يوم يوزعون الاسلاب ، ، وكأنه كان ينتظر بعين الغيب ليكشف الحجب عن أوصاف الرجل المنتظر فراح يخطط له المنهج ، ويوضح له المهنع ويهد له الأرض ، قال :

« لهذا الرجل الذي تنتظروه الأمة العربية آيات تمهد له ، وتدل عليه ، فمن الآيات المهمة لظهوره ، انحلال الاخلاق ، فلا تتأسك في قول ولا

فعل ، وتقاطع القلوب فلا تتواصل في وطن ولا دين ، واستثناء النفوس ، فلا تتعفف في صداقة ولا نسب ، وجروح الشهوات فلا تنقذ بلين ولا بشدة ، واستبها المذاهب فلا تستبين بنجم ولا شمس ، واذاقطاع الأمة عن ركب الحياة فلا تتحرك قبلة ولا ديرة ، ومن آياته المنبئة بوجوده أن يكون لغيره لا لنفسه : ولأتمته قبل أسرته ، وللإنسانية بعد وطنه ، ومصدق تلك الآيات أن تموت « أنا » في لسانه وتحيا في ضميره ، ويتحد في ذهنه وجود ذاته بوجود شعبه فهو يحس الله لأنه مجتمع شعوره ، ويدرك نقصه لأنه مجتلى عقله ، ويملك قياده لأنه مظهر إرادته ، وهو في سمو نفسه ونزاهة هواه ، قد ارتفع عن أوزار الناس وأفذار الأرض ، فلا يطمع ، لأن غرضه أبعد من الدنيا ، ولا يحقد لأن همه أرفع من العداوة ، ولا يحابي لأن فضله أوسع من العصبية ، ولا يقول قولاً ولا يعمل عملاً إلا إذا وافق الدين الذي يعتقده ، والمبدأ الذي يؤيده ، والشعب الذي يقوده ، ثم هو في المعية ذهنه ، ورصانة ليه ، وصلاية عوده ، وبعد همه يعظم على الأحداث ويعلو على الحوائل فلا ينضج رأياً إلا أمضاه ولا يرمي غرضاً إلا أصابه ، ولا يروم أملاً إلا أدركه ، هذا الرجل الملمم الموهوب هو الذي ترقب ظهوره كل فرقة وترصد نجمه كل أمة ... »

الجهاد عدة الاسلام :

وكتب في العدد الثاني من السنة التاسعة والثلاثين ، من مجلة الأزهر ، صفر ١٣٨٧ - مايس ١٩٦٧ مقالا بعنوان - الجهاد عدة الاسلام - على أثر النكسة التي هزّت الأمة العربية وأقضت مضجعها ، وعرفت حقيقتها كياناتها الهزيلة واستعداداتها الضعيفة وقياداتها المتشاكسة المتواككة المغرورة . جاء فيه :



عبد العزيز الشعالی

متى يؤدي المسلم فريضة الجهاد ، إذا لم يؤدّها اليوم ؟ دينه يتقحم
 عليه الكفر بخاربه مع الصهيونية ، ووطنه تنفجر على جوانبه الدواهي
 والاستعمار ، وأخوته في فلسطين ، أخرجتهم الدول النصرانية من ديارهم
 وأموالهم ليدخلوا قهراً من صنعوا الصليب للمسيح من سلسلة يهوذا
 وشعبه في أقطار العروبة وديار الاسلام ، لا يزال في معترك الخطوب ،
 ومشتبك المطامع ، يحار بالشكوى ، ويصرخ من الظلم ، ويغضب للكرامة ،
 ويثور للحق ، فلا يزال من الضمير العربي ، إلا ما تناله هبة الريح من
 الصخر الأصم ، والجواب : - ان المسلم المؤمن ، لا يزال على ذكر من
 أن دينه قرآن وسيف ، وتأريخه فتح وحضارة ، وشرعه دين ودنيا ،
 وحربه جهاد وشهادة ، وحكومته خلافة وقيادة ، فهو مجاهد أبداً ، لا
 يتفك عنه الجهاد أصغره وأكبره ، فإذا لم يجاهد عدوه جاهد نفسه ،
 وإذا لم يراقب ثغوره راقب ضميره ... والمسلمون منذ استيقظ وعيهم على
 رجفات الحرب العالمية الاولى ، أدركوا أن علة ما أصابهم من الاستبعاد
 والاستعمار ، إنما هي اعتمادهم على الحق دون القوة ، وعلى القول دون
 العمل ، وأصل ذلك الضعف - والضعف يحاكي طبيعة العربي - وينافي
 حفيظة المسلم ... فتمادوا من وراء الحدود المضطمة والستور المضروبة ،
 بلسان الأدب ، وألهام الروح ، ووحى العقيدة الى العمل سراً وعلمناً
 للاستقلال الذي يحور ثم الى الالفة التي تجمع ، ثم الى الوحدة التي تقوى ،
 ثم الى القوة التي تدافع ..

وهذه المراحل الوعرة المملكة التي تؤدي الى الحرية والعزة ، لا
 يقطعها إلا الجهاد الفدائي الذي فرضته شريعة الله ، واقتضه
 طبيعة العرب .

وذلك الجهاد الفدائي هو بذل المال والنفس في سبيل فكرة سامية ،
 كإعلان كلمة الله أو تكريم ذات الانسان ، أو تحقيق حرية الوطن .

وهو فرض عين ، على كل مسلم قادر ، إذا وقع المسلمون في خطر عام لا يقدر على دفعه قوم دون قوم ، كالاستعمار والصهيونية ..

والقيام به لا يتقيد بزمن ولا أرض ولا جنس ، مثله في ذلك مثل الأركان الخمسة للإسلام ، ولكنه يختلف عنها في أمر دقيق ، وذلك أن المسلم قد تضعف في نفسه الدواعي إلى إقامة هذه الأركان كلها أو بعضها ، فيترك الصلاة والصوم وحمل الزكاة والحج . وإذا ذكره بها واعظ ، أو حثه عليها خطيب جعل قوله دبر أذنه ، ولعل السبب في هذا الضعف أن العمل بهذه الأركان قائم بين المسلم وربه ، فلا وازع لها من ضميره .

أما عقيدة الجهاد فقائمة على الصلاة بينه وبين ربه ووطنه وولده وماله وراثته وذكرياته وأمانيه ، فهي لا تزال حية في نفسه على تراخي الزمن وشدة الترك كالنار في البركان الهادئ ، تسكن ولا تنطفئ ، وتكمن ولا تظهر ، حتى إذا أثارها الحمية لدين يهان ، أو لوطن يهاجم ، انفجرت في نفوس المسلمين انفجار الحمم ، فما تذر من شيء أتت عليه إلا دمرته ..

بذلك نفسر هذه الصيحة الإسلامية العامة التي أخذت دول الاستعمار من جميع الأقطار المسلمة ، على انقطاع السبب وتباعد الشقة ، تستنكر تأمرها على مصر وتستعد لدفعه عنها بالأموال والأنفس ، وبذلك تفسر هذه القضية العربية الشاملة لما يصيب مصر وسوريا من يعني الاستعمار الفاجر ، وعدوان إسرائيل المبيت ، وما تبع هذه القضية من تعاون العرب على امدادها بالرجال والمال والعتاد ، في ميادين الحرب وتأيدتها بالرأي والصوت في مجالس الحكم ..

وما عطف المسلمين على مصر ، ولا غضب العرب لفلسطين لعصبيته الجنس أو لحق الجوار ، وإنما هو لتلك الحفيظة الدينية ، التي أوحاها الله في

الكتاب ، وبينها الرسول في السنة وفصلها الفقهاء في الفقه ، والجهاد كسائر الأركان يستند الى نص القرآن الكريم ...

وان من سورته ما موضوعه الحرب والسلم والغنائم والأسرى والعهود ، وجملة ما يتألف منه قانون الحرب في الاسلام كسورتي « التوبة » ، « الانفال » .

ومن المغازي الدقيقة في القرآن الكريم ، انه لم يعرض لأسرى المسلمين بنظام ولا معاملة كما عرض لأسرى العدو ، لأنه يأمر بالثبات ، وينهى عن الهزيمة إلا لخدعة أو نجدة ..

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار » ومن يولوهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال ، أو متحيزاً الى فئة ، فقد باء بغضب من الله .. » أما سر القوة في المجاهدين فعلمه عند الاسلام وحده .

كان العرب من قبله قوى مبعثرة ، على رمال الصحراء لا تجمعها وحدة ، ولا تربطها رابطة ، فلما اصطفاها الله لأداء رسالته ، أمدهم بروح من عنده ، وحدت الشتيت وألفت النافر ، وجمعت الكلمة « لو انفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم » ولكن الله ألفت بينهم ..

ثم قوى هذه الروح فيهم بعبادة القضاء والقدر ، فقال لنبيه صلوات الله عليه : « قل إن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

ثم ضمن للمجاهد الفوز باحدى الحسنيين : النصر الذي تعقبه العزة لله والحرية للوطن والكرامة للانسان أو الشهادة التي يعقبها البقاء في الدنيا بالذكر والخلود في الجنة بالروح .. بهذه الروح الالهية ، خرج البدريون وهم زهاء الثلاث مئة الى أئمة الكفر من أبطال قريش وهم زهاء الالف ، فكسبهم قتلى في وادي بدر ، وعادت الفضة القليلة الى يثرب بالنصر

والأسرى ، وعادت الفئة الكثيرة الى مكة بالهزيمة والجرحى ... وبهذه الروح المنبثقة من روح الله خرج بدو الجزيرة من أجواف الاودية وأعماق القفر ضئال الجسوم ، قلال العدد ضعاف العدد ، الى الامبراطوريتين اللتين تقسمتا يومئذ ملكوت الارض فقوضوا الايوان على ملك كسرى ، وحطموا العرش على سلطان قيصر ...

وبهذه الروح الملتهبة في دماء المجاهدين ، ثبتت يور سعيده بالأمس لمئة وستين ألفاً من أعقاب الصليبيين ، وثبتت مصر وإخوانها لعدوان اسرائيل ومن وراءها من الامريكيين والبريطانيين والجهاد بعد أولئك كله سعادة لا يؤتاها إلا من اجتباهم الله لأكرام خلقه وأعزاز حقه وإصلاح أرضه ، وقد سماهم الله الشهداء وجعل مقامهم في الجنة مع الصديقين والأنبياء ..

خواطر من المعركة :

وكتب ثانية في مجلة الازهر الجزء الثالث - السنة التاسعة والثلاثين - جمادي الأولى ١٣٨٧ هـ - آب ١٩٦٧ قارن بين الغزوات الصليبية الثمان التي شنتها أوربا النصرانية على الشرق المسلم في مدى قرنين من العصر الوسيط وهذه الصليبية التاسعة التي تشنها امريكا وأوربا على فلسطين مدفوعة باطماعها الامبريالية واللصوصية والصهيونية قال فيها :

« تلك الغزوات كان بمعشها القروسية المسيحية والعصبية الدينية صدرت عن الإيمان وابتغت مرضاة المسيح - هذا زعم مسعريها - وهذه غزوة بمعشها اللصوصية الدولية والطماعية الدنيوية فصدرت عن الكفر وابتغت مرضاة يهوذا ، ويهوذا هو اليهودي الذي باع المسيح الى عدوه بدوانق معدودة قبل أن يصيح الديك ، وهو الذي روى بالدم شجرة الصليب

فأثمرت العذاب للناس والخراب للأرض ، ولا يزال يهوذا المسيح يتنافس
في الشر إبليس آدم ، يبعث الفوائل لاتباع عيسى كما ينصب الجبائل
لاتباع محمد . فلكل مصلح من يديه صليب ، ولكل نهضة من وساوسه
نصيب ، ولكل أمة من دسائسه فتنة .

ومن أعجب الأمور أن تتعاون اليوم دول النصرانية على أن تجعل
صانع الصليب سادنا لقبر المسيح وكاهناً لكنيسة القيامة .

إن نكبة فلسطين ومحنة العرب قد غطتا على كل حاسة ، وغلبت على
كل عاطفة ، فالفكر فيها والحديث عنها ملء القلوب وشغل اللسان ،
ولكن الكلام هواء والبكاء ضعف والمنى أباطيل والمهادنة غش ، والمفاوضة
عجز ، فلم يبق إلا أن نسكت لنعمل ، وندير لننفذ ، ونتقوى لنسود
وننسلح لننجح ، ونقتل لنحيا ونظلم لنحتدم .

وإن من علامات الساعة أن يخرج اليهودي من البنك إلى الشكنة ،
ومن الدكان إلى الميدان ليحارب العرب على فلسطين ويثأر للفرنج
من صلاح الدين .

كذلك من علامات الساعة أن ينهزم العربي أمام اليهودي ولو ظاهرته
مادية الأمريكان وخديعة الانكليز ، فإن الشعب يكفيه أن يشم ريح
الاستبداد من بعيد ليبحر ، وإن الفسار يكفيه أن يبصر الهر من فوق
الجدار ليسقط .

لقد سمعنا أن اليهود يحتلون البلاد بالنساء والذهب ، ولكننا لم نسمع
قبل اليوم أنهم يحتلونهم بالرجال والحديد .

الفدائية :

ان مصر وإخواتها تلك العناصر الجوهرية للنصر وهي حسن الاستعداد وقوة الاعتماد وشدة الكراهية للعدو ، ولكنها تلك أيضاً عنصراً رابعاً لا يتيسر امتلاكه لأي شعب إلا إذا ارتفعت الوطنية في نفوس افراده الى مقام العقيدة الدينية الصوفية فيتحدد وجود الفرد بوجود الشعب ، ووجود الشعب بوجود الوطن ، وذلك العنصر هو الفدائية الشاملة التي تنتظم الفرد والأسرة والأمة والحكومة والدولة ، فيكون كل واحد من هؤلاء فداء ضرورياً للآخر .

والفدائية في سبيل الوطن أو الدين أدل على خلوص القلب وصراحة الإيمان من الاستشهاد في سبيلها بالجهاد ، لأن الفدائي يبذل ولا يطمع في العوض ، ويضحى ولا يفكر في الثواب ، كل سعاده أن يشعر وهو يسيل عينيه على شعاعة من نور الدنيا أن نفسه مغتبطة لأداء واجبه ، مطمئنة الى لقاء ربه . أما المجاهد فهو يبيع ماله ونفسه ليشترى من الله - الجنة - « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون » فالتضحية في ذهنه يبيع وشراء وعمل وأجر .

على ان الفدائي الذي يقتل في سبيل شعبه تكتب له شهادة المجاهد في سبيل ربه ..

روح الله :

روح الله هو ذلك السر الذي لا يزال كامناً في الجهاد والاستشهاد والإيثار ، لم ينفك أبداً عن مسلم ولم يتخذ له أبداً في حرب ، كان يتمثل له في صور الملائكة تقاتل معه ، ويتحقق عنده في الوعد الصادق من الله

بالنصر أو الجنة ، ثم يقويه في نفسه على توالي الاعقاب والاحتساب الانقياد
للرسول . وقد جمع الله تدبير الحروب في آيتين من كتابه في قوله :
« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا » . وفي قوله : « وأطيعوا الله
ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا » ، ثم الايمان بالقضاء والقدر ، وقد قال الله
لنبيه « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

فالؤمن بمقدور الله يرمي نفسه في وجه الموت لا يبالي أن يقتل أو
يقتل ، لأنه في إحدى الحالتين سيظفر بأحدى الحسينين : النصر
أو الشهادة .

وكان في أكثر هجائه يصيب ، وفي أقلها يصاب ، ولذلك قالوا
عن عقيدة وتجربة : أطلب الموت توهب لك الحياة والحذر لا ينجي
من القدر .

الله أكبر :

الله أكبر جملة تضمنت سر الاعتقاد وسر الجهاد وسر الفداء وسر النصر ،
ولاشتمالها على هذه الاسرار كانت ركناً جوهرياً في الصلاة ، يدخل بها
المصلي الى الله ، ثم يرددها في ركوعه وسجوده ، وفي قيامه وقعوده ، ثم
كانت هتافاً حماسياً في الحرب يصيح بها المجاهد عند الهجوم فيكبر في
نفسه النصر ، ويصغر في عينيه الخطر ، وكان غالباً ما يكون هذا الهتاف
الله أكبر فتح ونصر ، فإذا جاء نصر الله والفتح انقلب هذا الهتاف
القوي نشيداً قومياً ينشده المجاهدون في كل مسجد ، ويردده المصلون في كل
عيد وهو : الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً ، لا إله إلا الله وحده ، صدق
وعده ، ونصر جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

وقوة هذه الكلمة آتية من اعتقاد المسلم بأن الله أكبر من كل كبير ،

وأقدر من كل قدير وأعلى من كل علي ، فهو في حى هذا الاعتقاد
يهاجم الجيش الكثيف ولا يخشى ويقتحم الخطر الداهم ولا يبالي ، وكيف
يخشى ضرراً أو يبالي خطراً ، والله الذي تفرد بالسلطان الاعظم واختص
بالقدرة العليا بحميه من وراءه ويكفيه من أمامه ...

ومن مقال بعنوان (مالي لا أكتب) :

« وإذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك زعت به وخذك تفرع ،
أن نكبة فلسطين ومحنة العرب قد غطتا على كل حاسة ، وغلبتا على
كل عاطفة فالفكر فيها والحديث عنهما ملء القلوب وشغل الالسن ...
ولكن الكلام هواء والبكاء ضعف والمنى أباطيل ، والمهادنة غش ،
والمفاوضة عجز ، فلم يبق إلا أن نسكت لنعمل وتدبر لننفذ ، ونتقوى
لنسود ، ونسليح لننجح ، ونقتل لنحيا ونظلم لنحترم ، لو كان في الدنيا
حق لما كان لفلسطين قضية ، ولو كان في الناس عدل لما اصطلحت على
ظلمنا الشيوعية والرأسمالية ولو كان في الأمر اختيار لما تركزت سيوفنا من
في يهودا بقية » .

عشرون سنة انسلخت على الشعوب العربية وهي تملأ الدنيا ادعاء
واحتجاجاً ، تقول ولا تعمل ، وتهدد ولا تنفذ ، وتخدع حكوماتها شعوبها
بالاستعداد والتسليح وتدبر وتهي جيوشها لليوم الموعود يوم نسترجع الارض
السليبية ونعيد المشردين الى ارضهم ووطنهم ويومئذ نعيد كرامتنا فلما
حس الوطيس خسروا كل شيء وظهر زيف الاعداد والاستعداد وبان عجزنا
ورحنا نتهم أنفسنا ونرمي قادتنا بالخيانة والعمالة ، وأعلننا اننا خدعنا
وباغتنا عدونا وظهرت قوى الشر امريكا وبريطانيا والمانيا الغربية ،
والحقيقة المرة أقولها انما الذي سبب نكستنا هو ضعفنا وعدم استعدادنا
وغرورنا واتكالتنا على الكثرة والكثرة لا تقني من غير سلاح متكافي مع

سلاح عدونا وكانت الكفاءة تنقصنا والخبرة تعوزنا ، وجهلنا بما يعد عدونا
وبما عنده من قوة جعلنا نخسر الجولة وعسى أن يكون فشلنا في هـ حزيران
١٩٦٧ يجب بنا الى أن نعمل لتقلب في الجولة الثانية التي لا محالة أننا
سنخوضها ان لم تكن برغبتنا فستكون رغم انوفنا أو نضطر إليها ،
ولكن هانحن قد مضت سنة وشهران ، فهل نحن بمستوى المعركة ؟ كل
الدلائل تثبت اننا لم نكن نعمل إلا لتوسيع الخلافات وتنفيذ المؤامرات
والإنقلابات ليقفز مغامرون وطامعون الى المناصب والراسات والوزارات
وتوزيع الغنائم على الانصار والاعرار وليكن من بعدهم الطوفان ..

أضعف الإيمان :

قال الرسول الكريم صلوات الله عليه : « من رأى منكراً منكراً
فليمنه يديه ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وهذا
أضعف الإيمان » .

ودول العالم اليوم وأمة - وفيهم المؤمنون بصاحب هذا الحديث
يقفون أمام المنكر الأمريكي والانجليزي الصهيوني بأضعف الإيمان ،
فيطوون صدورهم على السخط ، وقد يخرجون ألسنتهم بالانكار ، ومن
هؤلاء من يستطيعون دفع العدوان بالقوة ولكنهم يتكأون ويترددون
لفرض أو مرض ..

وكفاحك المنكر بالقلب أو باللسان وأنت قادر على كفاحه باليد
نقيصة من نقائص النفس البهيمية لا تخرج عن الجبن أو الخبت .

على أن ضيائر الشعوب أحياناً من ضيائر الدول ومن المتوقع ان هذا
الانكار الشعبي باللسان سينتهي الى أنكار الدول باليد ، وحينئذ يطمئن
يحبوا السلام والمدنية على أن الدنيا لا تزال بخير .



الاستاذ كامل الجادرجي

وكتب بعنوان « الجهاد بالمال فوق الجهاد بالنفس » .

ويقول الله عز اسمه وجل علاء « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا
بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم ان كنتم تعلمون » .

« إنما المؤمنون الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم
في سبيل الله أولئك هم الصادقون » ، « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا
بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون » .

فهو سبحانه - في هذه الآيات الثلاث . وفي سائر الآيات التسع التي
ذكرها الجهاد بالاموال والانفس يقدم الاموال على الانفس لحكمة يؤيدها
التاريخ ويؤكددها الواقع ، ذلك لأن المال عصب الحرب ، بغير روجه
لا تتحرك وبغير وقوده لا تستعمل ، هو زاد الجندي وعتماده ، يضع
القوت في فمه والسلاح في يده والنصر في وجهه ، وهو وسيلة الاعداد التي
أمر الله بها المسلمين في قوله :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به
عدو الله وعدوكم » .

وبالبدل اليوم من رباط الخيل هو الطائرات والدبابات والصواريخ
والمدافع والقذائف ، لأن رباط الخيل بحكم التطور العسكري والتقدم
العلمي لم يعد يرهب العدو ولا يكفل النصر .

وهذه الاسلحة الجبارة يكلف شراؤها مئات الملايين من العملة السهلة
والصعبة ، والانسكال في تدبير هذا المال الضخم على الدولة يربك ميزانيتها
فتنوء بمطالب الانتاج والخدمة فلم يبق إلا أن يجاهد الشعب بالمال ليموكر
السلاح للجيش المجاهد بالنفس كما يفعل العدو ، فان اليهود في العالم هم
الشعب وعليه المال واسرائيل في فلسطين هم الجيش وعليه القتال .

والغائلة التي نزلت بالعرب من اثار الاستعمار والصهيونية في أوائل هذا الصيف فسلبتهم بعض الأرض وأفقدتهم أكثر السلاح كان من وسائلها الفعالة السلاح الأمريكي الحديث والمال اليهودي المتدفق ، فلولا المال ما كان لليهود دولة ولولا الدولار ما كان لاسرائيل جولة ولا صولة .

ان الذي يبذل نفسه في الجهاد يقدم الى الجنة شهيداً بمفرده ، ولكن الذي يبذل ماله في المعركة يقدم الى الأمة جيشاً بمجموعه ، وان جيش العسرة لو لم يسنده المؤمنون الصادقون بالمال لما سار جيش الرسول الى تبوك ، ان قانون الحياة على طوله وفصوله يرجع في أصله الى مادتين اثنتين مادة الهجوم على القوات ، ومادة الدفاع عن الذات .

وما كلمات التباهة والمجد والخلود إلا طعوم مغريات في يد الطبيعة ، تتذرع بها الى ضياع الحياة بالوفرة ، كما تتذرع بالجمال والشهوة واللذة الى بقاء النوع بالولادة ، فالحي الخلق بالبقاء تتوفر فيه - ولا ريب - قوة السعي لنفسه وقوة الوقوف لغيره فاذا فقد هاتين القويتين أو أحدهما كان طفيلياً على مائدة الحياة وفضولياً في ملكوت الطبيعة ، وليست العزة التي تأخذ القاصر حين يرشد ، أو التابع حين يستقل ، إلا بقطة الانانية في طبعه ، وثورة الحيوة في دمه ، وهذا الذي نشهده اليوم في مصر وإخوانها من التسابق الى أعداد القوة ، والتنافس في إنشاء الدفاع ، انما هو استكمال لاحدى وسيلتي العيش ، واستشعار لارقى طبيعتي الوجود . ومن هنا كان منهاج الثورة قائماً على الانتاج والدفاع انتاج اليد والآلة والعلم والفكر ، ودفاع الفقر والجمل والمرضى والعدو ، وما عدوهم الحقوق للدود إلا اليهود من كيدهم للمسلمين في يثرب ، الى يوم طردهم العرب من فلسطين ، ومن أصدق من الله في قوله :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود الذين أشركوا » .

وظلمت الثورة تعد العدة وتزود الإهبة خمس عشرة سنة لاستئصالهم من قلب العروبة حتى بلغت من ذلك مبلغ الأمان والقدرة ، ولكن الاستعمار الذي غرس شجرتهم الملعونة في أرض الهدى والسلام ، ومهيبط الوحي والإلهام ويحتل عين موسى ومسرح قلب عيسى ومسرى روح محمد ، وقدر الأديان الثلاثة وقبلة الإسلام الأولى ومهد الأنبياء ومقبرة الرسل لم يرد لإسرائيل أن توت لأن موتها في فلسطين يعني موته في الشرق ، فتحدى غضب الله عليهم ، ونبؤة المسيح فيهم بأن وضع في أيديهم السلاح والمال والعلم والحديعة فقتلوا من قتلوا واحتلوا ما احتلوا وشردوا ما شردوا ونهبوا ما نهبوا ودنسوا مساجد الله وقوضوا مساكن الناس وانطلقوا يخربون المدن ويحرقون الحقول ويقطعون السبل ويحصدون المؤمنين الآمنين ...

إن مؤتمر الرؤساء والملوك في الخرطوم قد أحيا الأمل وجدد الثقة ووثق العقدة ودل بقرارته الحازمة أن اخوة النسب والعقيدة والوطن قد أدركوا ما يراد بهم من شر وما يدبر لهم من كيد ، فاجتمعوا أمرهم على الجهاد بالأموال والأنفس ليظفروا الوطن من احتلال الدخيل ويحرروا فلسطين من اغلال إسرائيل .

أيها العرب في جميع الأرض من طنجة الى البصرة : إن معركتنا مع الصهيونية معركة بقاء أو فناء فاختاروا لأنفسكم ، ولا تحسبن أن بني إسرائيل لا يزالون صغاليك « خبير » وسكان « الحارة » وباعة اليانصيب وزناير النحل وعصافير النيدر وحشالة المجتمع ، انما أصبحوا اليوم بفضل المال أعيان « نيويورك » وأعضاء « الكونكرس » وقوام « البيت الأبيض » وأرباب الأعمال والأموال والأعلام في سائر الأرض : يسألون فيجب (ولسون) ويأمرون فيطيع (جونسون) ويلوحون بالرغيف الذهبي

للأمم المتحدة فيمنحها منها كل كلب ويطلبون من المنظمات اليهودية أن تقدم بالمال قتمدهم بعد العدوان بخمسة مئة مليون دولار ، فتجهزوا لهم بجهازهم وهو المال واستعينوا عليهم بعدتهم وهي الايمان ، والمال قسوة اليهود المالية به ، والايمان بالتوراة والتلمود هو قوتهم المعنوية ، انهم يؤمنون بقول الاصحاح الخامس عشر من سفر التكوين : (في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقاً قائلاً : لنسلك اعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات) . فإذا كان (يهود) قد أعطاهم هذا العطاء ، ووعدهم هذا الوعد ، فان « الله » وهو أصدق القائلين يقول لنا في كتابه : « لن يضرركم أذى وأن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون . كلما اوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين . وإذ أذن ربك ليعصن عليهم الى يوم القيامة من يسوهم سوء العذاب - ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وبأوا غضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » وقول الله هو الحق ووعدوه هو الصدق فلا تخرفة كاهن ولا افتراء حاخام .

ان اسرائيل - يا قوم - طغت على القناة وفجرت على الاردن ، وقد بسطت امريكا على جرائها البشعة ضباب العمى وحجاب السم فلا تبصر ولا تسمع ، واستجرت أوربا الحاقدة لدعايتها الحاقدة فلا تعي ولا تدرك ، فليس أمامنا إلا أن نحقق وعد الله بأمواتنا ودمائنا وإيماننا دون الاعتماد على شرق أو التجاء الى غرب .

ان الاسلام قوته فيه ودفاعه منه ، ولا يزال كتابه في ايدينا يغمر القلوب بالقوة ، ويغمر النفوس بالحياة ، والقوة قوة الإيمان ، والحياة حياة الروح ، أما قسوة الاساطيل على الماء وفي الهواء ،

فتمد يأتينا أمر الله ليلاً أو نهاراً فتصبح دخاناً في السماء وحطاماً على الأرض .

* * *

يا عزة الاسلام لذلة العرب :

تحت هذا العنوان كتب في مجلة الأزهر الجزء التاسع - السنة التاسعة والثلاثين ذي القعدة ١٣٨٧ - اثبتته بنفسه لما فيه من تعبير لواقعنا المؤلم

ربنا رب العزة ، وديننا دين القوة ، ورسولنا رسول الجهاد وأذنبنا أدب الحماسة ، وعلمنا علم الحياة ، وتأريخنا تأريخ البطولة ، وجندنا جند الفتوح ، فمن أين تأتينا الذلة بالاستسكانة ، وبصبيتنا الخور والهزيمة ، وبخالجنا اليأس والقنوط ، وتعترينا أدواء الأمم الحفيرة من تخاذل وتواكل ، ومن تحاسد وتباغض ، ومن خيانة وغش ، ومن اختلاس ورشوة ؟

يأتينا كل هذا حين نسينا الله وأتبعنا غير سبيل المؤمنين ، تلك السبيل التي قال فيها الرسول (صلوات الله عليه « تركتكم على الواضحة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » .

ولقد نسينا الله وزاغت قلوبنا عن نهج رسوله فأخذنا التقية وتركنا التقوى ، وعرفنا الآخرة وأنكرنا الإيثار ، واقتضينا الحق ومطلنا الواجب ، وخدمنا الاسرة وأهملنا الأمة ، وعبدنا النفس وكفرونا بالناس ، وحفظنا الدنيا وأضعفنا الآخرة وتحللنا من قيود الدين لننتقل في الارض انطلاق السائمة في المرعى تشطح وتنطح وترعى وتغزوا لا يوجهها إلا الغريزة ولا يدفعها إلا الشهوة .

أجل نسلينا أنفسنا حتى غدونا مسلمين من غير إيمان ، وعرباً من غير
عروبة ، وأو بقيناً على اسلام محمد وأبي بكر وعمر ، وعلى عروبة خالد
وسعد وعمر ، لما صرنا من جهلنا بالدين وعجزنا في الدنيا على أخلاق
العبيد يباطلي ، اشرافهم فلا يندى لهم جبين وتنقص أطرافهم فلا يحصى
أنف وتنزل بهم الشدة فيتخاذلون تخاذل القطيع عاث فيه الذئب ، ويغير
عليهم العدو فيتوكلون تواكل الاخوة دب فيهم الحسد وتجمعهم الخطوب
فتفرقهم دواعي الهوى والطمع .

ان الله الذي كتب الذلة على بني اسرائيل ، جعل العزة له ولرسوله
والمؤمنين ، فلو كنا مؤمنين بقرآننا على سياحته وهداه كما يؤمن اليهود
بنامودهم على قسوته وضلاله ، لما انقلبنا عزتنا ذلة وكثرتنا قلة ، ولما
بلغ بنا الهوان انت اسرائيل تطأ بأقدامها النجاسة بعض وطننا
المقدس فتخرب المدن وتقتل الابرياء وتستحيي النساء ، وتشرد الامنين وتنهب
المساجد وتنهب الاموال وتحتل القدس ، ثم يكون لها في الاسم المتحدة
صوت كصوت الأقوياء . وفي عالم السياسة رأي كراي الاعزة .

فالمعلة إذن لهذا الانقلاب هي ضعف القوة الروحية وفقدان التربية
الدينية : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من
السماء والأرض » وبركات الله السماوية والأرضية والروحية والمادية من
عزة ونصرة وقوة وثروة .

ان البيت المسلم لا يذكر فيه اسم الله ولا تتلى فيه آياته فالأم لا تقيم
الصلاة والأب لا يعرف المسجد والاولاد لا يحدون القدوة الحسنة في
أبويهم فينشأوا مسلمين باللفظ ملحدون بالمعنى لا يخشون الله ولا يقرأون
القرآن ولا يؤدون الشعائر ولا يفقهون الدين ، فاذا تركوا البيت الى
المدرسة وجدوا قشور الدين وقصور المنهج وضعف المعلم ، فالمنهج يجعل

للدين حصتين في الاسبوع ، ولا يجعل له في الامتحان وزناً في السنة ،
فينصرف التلميذ عن درسه لأنه لا يقدم ولا يؤخر في حساب نجاحه .

والمعلم يعلمه على أنه نافلة في المنهج وصفر في الامتحان ، فيعرض
صوراً للشعائر من غير شعور ، ويلقي سوراً من القرآن من غير أمانة ، ثم
لا يحد من عمله ولا من تقواه ما يبعثه في نفوس الاطفال ليكون عوضاً
لهم عما فقدوه في الاسرة فتضعف ثقتهم به وتقل هيبتهم له ، وينتشر
عليهم أمر النظام فينفق أكثر الحصة في إسكات المتكلم واسكان المتحرك
وإقرار المضطرب ، ثم تساور الطلاب الشكوك وتهاجم الشبهات في الجامعة
فلا يجدون من أساتذتهم من يحلونها لهم أو يدفعها عنهم ، لأن فاقده
الشيء لا يعطيه ، ولأن الدليل الحائر لا يخرج القائل من التيه . لذلك أصبح
الاسلام رسماً محيلاً في قلوب بعض ، وصوراً شوهاء في إذهاب بعض ،
فأخاطبة قلوبهم بظهوره ثم جعلوا شرعهم غير شرعه ، ودستورهم غير
دستوره ، وقبلتهم غير قبلته ، والعمامة عيشوا بجوهره فقلوبه صوفية
جاهلة لا صلة بين شعوبتها وعبادته ، ولا نسبة بين سلبيتها ومعاملاته
وهؤلاء وأولئك لا يجدون في أنفسهم معنى الاسلام الصحيح ولا مغزى
الإيمان الصادق فيفقدون السور التي تجمع ، والقبلة التي توحد ، وحينئذ
يصبحون كما هم اليوم ضعفاء على العدو أقوياء على الصديق ، يعيشون في
أرضهم الغنية وهم جوع ، ويعيشون في وطنهم العزيز وهم أذلة ، ويبلغ
هم الشتات ان يقف مائة مليون عربي أمام مليوني يهودي وقفة المهزوم
يطلب الرحمة والمظلوم يطلب العدل ، ولو كانوا من الذين آمنوا ولم
يلبسوا إيمانهم بظلم اصدق فيهم قول الله تعالى : « أن يكن منكم عشرون
صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا ألفاً من الذين
كفروا ، ولكن كان لهم حق النصر على من قال وهو اصدق القائلين » وكان
حقاً علينا نصر المؤمنين .

ان التربية الدينية هي رياضة المجتمع الاسلامي على الرجوع الى النهج الذي سنه الله في كتابه ، وبينه الرسول في سنته ، وأتبعه الصدر الأول في سلوكه قبله بالعرب البداة الجفاة زعامة الدنيا في السياسة والمملك وقيادة العالم في الحضارة والعلم ، وأمامة الدول في العدالة والحكم وريادة الامم في الجهاد والتضحية .

وهذه الرياضة لا تدرك بخطب المساجد ولا عظات المحافل ولا مقالات الصحف ، فقد ملت الأذان هذا الكلام لطول اعتماده وكثرة ترداده وسوء عرضه ، إنما تدرك بالأسوة الحسنة في البيت والتنشئة الروحية في المدرسة ، والحياة الخاتمة في البيئة .

والسبيل الى ذلك كله اعداد الأم التقيمة وتخريج المربي الصالح وتهمة الجو الملائم ، ووضع الحوافز والجوائز لحفظ القرآن ، وجعل الدين مادة اجبارية في الامتحان ، وأخذ الاطفال بعزائم الله منذ الصغر ، والإفادة من الشاشة والمسرح في تصوير الشائتل المحمدية في مواقف الاحسان والعدل ، وتمثيل الفتوة الاسلامية في مشاهد الحق والخير ، وتجسيد الخلال العربية في ميادين الجهاد والمروءة ، وتطهير المجتمع من عوامل الفساد في الصحافة والاذاعة والكتاب والشارع ، وترغيب القشء في بيوت الله بالمنظر الحسن والفراش النظيف والدرس المشوق والخطبة البليغة ، وإقامة المعسكرات الخلوية يجتمع فيها الشباب للرياضة الروحية على نحو ما يفعلون في الرياضة البدنية ، وإنشاء منظمة قيادية في الأزهر تسن منهجاً لرعاية العقيدة وتنميتها في نفوس الطلاب ، ثم تقوم على تنفيذه في الأمرة والمدرسة والجامعة ، وهذه المنظمة المرجوة ستكون الشككة المحمدية لجسد الله ، أسلحتها المصاحف لا القذائف ووسيلتها الحياة لا الموت وغايتها التعمير لا التدمير ، وغنيمتها الخير للناس والسلام على الأرض ، وان القائد الصالح

لنصلح جمال عبد الناصر قد دعا في ميثاقه وخطبه الى رجوع الأمة الى رحاب الله وبناء المجتمع على قواعد الدين ، فهو حري أن يكون من وراء هذه المنظمة يؤيدها بالرعاية لتقوم ، ويدها بالدعاية لتنتشر ، فيضم الى ثكنات القوة العسكرية ثكنة القوة الروحية ، ليجمع بين أسلحة المادة وسلاح الروح ، يوائم بين مادة العلم وروحية الدين ، ويبعث في القلوب الزائفة مامات فيها من فضائل الاسلام ومناقب العروبة ، ليعود مجتمعنا كما كان في صدر الدعوة حياً بالجهاد قوياً بالصبر نقياً بالفطرة ، متآلفاً بالحلب متضامناً بالمروءة متعاملاً بالتقوى لا يحقد فيه الفاقد على الواجد ، ولا ينالم به الغني الطافح أو القوى الطامح ملء جفنيه وإخوته في الدين والنسب لا تذرون علاجىء البؤس معذبون في أسار العدو لا يحدون الولي الذي يتضرر ، ولا السخي الذي يحد .

لذلك قطعت التربية المادية بين النفوس وذلك ينبوع الإلهي الذي يفيض على الموات فيحيا وعلى الجذب فيخصب ، وعلى الصليب فيلين ، وعلى الخامد فينشط ، وعلى العليل فيصيح ، حتى أصبحت من الجفاف تتناكر تناكر الغرياء وتندابر تدابر العدو ، وتتلصص جوانبها المظلمة فلا تجد فيها شعاعاً لقول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » ولا أثراً لقول الرسول الكريم « المؤمن المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » فالإن يعم أياه والأخ ينكر أخاه والصديق ينافق صديقه والتاجر يغش زبونه ، والعامل يزيف عمله والموظف يقتل ضميره ، والمجتمع الذي يتألف من هذه الرذائل القاتلة لا يقوى وأن كثر عدده ولا يغنى وأن توفر مدده ، فإن مائة مليون صفر لا تزيد قيمتها على قيمة صفر واحد ، وأن ما فوق الأرض وما تحتهما من مال وركام لا ينفع الشعب إذا لم يكن لله وللوطن .

ان علاج هذه الرذائل بالانظم والقوانين علاج مسكن ، يخفف الألم

ولا يحسم الداء ، إنما العلاج الناجع هو النور لمن أظلم عليه الليل ، والدليل لمن استنهم أمامه الطريق والامسان لمن ساورته مخاوف الحياة ، وكل أولئك في كتاب الله الذي أنزله هدى للناس ورحمة ، وجعله للمسلمين رباطاً وعدة ..

النقد الادبي تقويم وتقييم :

هذا آخر ما كتبه أديبنا الكبير ، أغدده لجلة الازهر ، وهو المقال الشهري الذي ظل الزيات يواصل كتابته لجلة الازهر منذ أن تولى رئاسة تحريرها سنة ١٩٥٢ ، بعد أن اختفت الرسالة التي كانت بحق رسالة الأدب والفكر والنقد والتوجيه ..

وللقارىء العربي ، ولكن العصبية الحديثة من جملة الافكار المتطرفة والذين يهيمنون على الصحافة في مصر رأيت في الرسالة خطراً على الأفكار والمذاهب التي يعتزمون نشرها وترويجها بين القراء فأمروا بحجبها ...

والزيات في مقاله بل وفي كل ما كتب ، بارع الحكيم ضريح فصيح ، ذو ثقافة واسعة وعلم رصين ينقل اليك أصول النقد المتعارف عند علماء النقد بأسلوب رصين ولفظ متين وكلام سلس ، وفكر فيه العمق والرؤية ، أسلوب يتسع النفس وينهر العقل ، لا يجهدك فهمه ولا يملك سماعه ، تحس وأنت تقرأ ما يدبج كأن المعاني تنساب الى نفسك والآراء تتدفق الى خاطرك ، وما أصدق قول أبي العيناء في وصف كاتب معاصره أحسبه ابن المقفع ..

« كلامه ضريح ولسانه فصيح ، وطبعه صحيح ، كأن بيانه لؤلؤ منشور ، ووشي منشور وروض معطور » .

والزبائن فيما يكتب من مقال : يلتزم القصد والأمانة لا يجب الإطالة إلا بقدر ما تتطلبه المعنى من الوضوح وبكلف بالإيقاع ولذلك كثر في كلامه الازدواج والسجع من غير التماس لهما وكأنهما يأتيان عفواً الخواطر أو من وحي الطبيعة وكان يتحاشى استعمال الغريب وينأى بقلبه عن الخوشي لأنه يرى استعمال الغريب هو العي بعينه - وقد يتفاح بعضهم باستعمال الغريب فيظنه البلاغة وما هو من البلاغة بنصيب ، لا من بعيد ولا من قريب . . . قال رحمه الله :

« نقد العمل الأدبي معناه تقويم عوجه بالأداة الصالحة ، وتقويم مادته بالوزن الصحيح ، وأداة الناقد بهذا المعنى ملكة غنية أصيلة ، وتربية أدبية طويلة ، وثقافة علمية شاملة ، والناقد بهذا الاعتبار ، يشارك المشرع في صدق التمييز ، والفيلسوف في دقة الملاحظة ، والقاضي في قسوة الحكم ، ومن هنا كان نوابغ النقد في العالم اندر من نوابغ الشعر والكتابة .

أما عند العرب : فقد انحصر - لأسباب لغوية لا محل لذكرها في هذه الكلمة الموجزة - في جزء واحد من النقد بمعناه العام عند الأفرنج ، فلم يعالج غير أبيات وفقرات من الكلام المنظوم والنثر المسجوع ، وأغفل القصيدة باعتبارها وحدة لا تتفرق ، والكتاب باعتباره كلاً لا يتجزأ ، ولم يحفل بما ألف بالنثر المرسل من الكتب والقصص . . وجرّ ذلك إلى أن الكتاب والشعراء أوغلوا في البديع وتفننوا في الزخرف ، وأهملوا فن القصص فتركوه لأدباء الشعب ، ولم يعنوا منه إلا بالمقامات لأنها مظهر الصنعة ، وبحك القدرة ، فحرموا الأدب العربي فناً كانوا هم بسليقتهم أقدر الناس على التوفير له والافتنان فيه . .

أن من يطلع على ما أثر عن السلف في النقد والموازنة يجد الخطأ في الأقيسة ، والخلل في الموازين ، والشطط في الأحكام ، وذلك

لتحكم الهوى الخاص ، وإرسال الناقد الحكم على غير قاعدة مرتبومة
ولا مذهب معين ..

فهم يتكلمون في اللفظ الجزل والركيك ، والاسلوب الرصين والمهل ،
والمعنى المسروق والمطروق ، والمطلع الجيد والردى ، والتخلص الحسن
والقميح ، ويجرون في كل أولئك على أذواق تختلف باختلاف الطبقات
والهيات والاجناس ، وربما اكتفوا في تقديم شاعر أو تفضيل بيت
بالعبارة العامة أو الإشارة المبهمة أو الهتاف الموجز كقولهم : « والله دره
إذ يقول : » وهذا ما لم يسبق إليه أحد ، وما أحسن هذا البيت ، ولم
يعنوا بالخطوط التي تميز كلاماً عن كلام ، ولا بالحدود التي تفرق بين شاعر
وشاعر .. فلو نقلت ما قالوه من المدح في شاعر إلى شاعر آخر ، لما تغير
المعنى ولا اضطراب السياق والأمر كذلك في كل ما ألفوه من الكتب على
طراز « اليتيمة » للشعالي ، ودميسة القصر للباخرزي ، وخريصة
القصر للاصنهاني ، وريحانة الألباء للخفاجي ، وخلاصة الأثر المحبي ..

من ذلك يتضح ان فهم القدماء لحقيقة الفن الشعري والكتابي حصر للنقد
البياني - كما قالت - في الصور والأشكال ، وهذا الحصر نفسه ، قد وجهه
الادباء إلى الاحتفاظ باللفظ دون المعنى ، وبالصورة قبل الفكرة ، ففات
أكثرهم ان روعة الكلام لا تكون بالرونق والاناقة والصنعة وحدها ، وإنما
تكون مع ذلك بقوة التعبير عما تكنه الضائير وتحسه المشاعر ، وبدقة
التصوير لمختلف الطبائع والعواطف والاخلاق والشهوات والصفات ، حتى
نرى صور أصحابها الحقيقيين أو المتخيلين تحرك وتعمل وتقول على مقتضى
الغرائز الثابتة والفطر الاصلية وتكشف الفطاء عن طبيعة الشخص بكلمة
تجري على لسانه ، أو حركة تصدر عن يده ثم تكون روعة الكلام ، ببراعة
الوصف لمناظر الطبيعة ومظاهر الكون ، حتى تحس فيها الحياة والحركة ،

وتدرك ما بينها وبين النفس في انفعالاتها من اتصال وعلاقة ، ثم تكون أخيراً بشدة التأثير في الافئدة حتى تستيقظ فيها روافد الاهواء والعواطف فتضطرب النفس ، أو تفضب ، وتهداً أو تثور ، وتفرح أو تحزن ، وتحب أو تبغض ، ولو أن نوابغ الكتاب والشعراء فطنوا الى ذلك لكان من هم الناقد أن ينظر - فوق ما ينظر من الالفاظ والصور - في تنسيق المعاني وترتيب الافكار في جملة الكتاب أو القصيدة ، أو المقالة ، أو القصة أو الكلام على العموم ، لأن سلامة الجزء المنفصل أو بلاغة البيت المنفرد ، لا تدل حتماً على سلامة الكل أو على بلاغة القصيدة . . كذلك كان من هم الناقد البياني ، لو اتجه الى المضمون أن يحلل ما ينشأ في نفس القارئ لروائع الكتاب والشعراء من العواطف ، وأن يبين كيف يستطيع الكتاب أو الشاعر أن ينشيء هذه العواطف أو يوجهها ، ومن ثم كانت كتب النقد عند الافرنج عملاً فنياً قائماً بذاته يبيىء أصحابه مقاعد النبوغ والخلود .

على هذه الحالة من الشكلية والسطحية والتعسف مضى النقد العربي حتى بلغ جيلنا الماضي ، فكان الناقد منذ قريب يعتمد الى الكتاب القيم في التاريخ أو القانون قد ألفه مؤلفه من دمه وعصبه وعقله وعمره وماله ، فيقف منه موقف الجاسد الأحق ، ينقد في بعض صفحاته فعلاً عندى بغير حرفه أو اسماً جمع على غير قياسه ، أو لفظاً لم يجده في معجمه ، ثم يحكم على الكتاب كله بأنه سخييف لا يقرأ ، وضعيف لا يعيدش ، ومن النوع أو قريب منه كانت نقد طه حسين لنظرات المنفلوطي في أوائل هذا القرن .

ثم أخذ النقد الفني يتطور مع الوعي والتعليم ، والاطلاع على أدب الغرب في الربع الثاني من القرن العشرين ، فغاص من السطح الى القاع ، وانتقل من الشكل الى المضمون ، وتدرج باللغة والعلم والمنطق في نقود العقاد والمازني وشكري ومن لف لفهم . . ثم كاد ينحصر اليوم في القصص والمسرحيات

بما كان يكتب مندور ورشدي وحقي .. ومن جرى مجراهم ، ولعل
 النقص الذي يعثر النقاد الفني الحديث أنه في جلته لا ينبثق من طبيعة
 الادب العربي ، ولا من بيئته ، وإنما ينبثق من طبيعة الادب الغربي وقواعده
 ومذاهبه ، فلو أن هؤلاء النقاد اتجهوا بعقولهم المنحرفة ، وثقافتهم
 المتجددة الى دراسة أدبنا تحت الضوء الصادر عنها لأوجدوا فيه فناً
 مستقلاً من النقد المبني على العلم والخبرة والإصالة ، يتم ما بدأه عبد القاهر
 وأبو هلال وابن الاثير . . . أما ما نقرأه في الصحف العربية من حين الى حين
 مما يسميه أصحابه نقداً ، فإنه لا يدخل في هذا الباب ، إلا كما يدخل
 المجون في نطاق الجد ، أو العيب في سياق المنطق ، كالرجل يقعد به العجز
 من اللحاق بالقادرين فيقف نفسه موقف القائد الحصيف ، بلمز هذا ويتنادر
 على ذلك ، ويزعم أنه هو وحده المسيطر على ثمرات الذهن فيحكم بذوقه
 الخاص على هذا بالقبح وعلى تلك بالفجاجة ، وأمره كله لا يخرج من مألوف
 الطباع الساخرة الفكاهة ، تصور الحق بألوان الباطل لتضحك وتبرز الجميل
 بظهر القبيح لتسيء وعيب الناس طبيعة في بعض الناس ، لا يكلفهم إلا
 تحريك اللسان إذا ألفوا سامعاً أو تحريك القلم إذا وجدوا صحيفاً ..

هذا الضرب من النقد أما أن ينبعث من العقدة فيرمي الى التجريح ، وأما
 أن ينبعث عن الغرور فيسعى الى الهدم ..

عن مجلة الازهر ، الجزء الرابع السنة الاربعون جمادى الآخرة سنة ١٣٨٨ هـ

آب واپول سنة ١٩٦٨

آراء في القيمة للزيات

فتح الزيات في نثره الفني آفاقاً جديدة وأضاف إلى المقالة الصحفية باقة يانعة فيها الكثير من قطوف المعرفة ، فاحتل بذلك مكانة فريدة في النثر ، وعالج موضوعات أدبية ، ونقدية ، واجتماعية ، وسياسية وتاريخية ، والزيات كما قدمنا من الكتاب الذين ثقف الأدب العربي والفرنسي ووسع مداركه بالأداب المترجمة من ثقافات الغرب فتكون لديه تراث شامل من الأفكار والاحاسيس فكان رحمه الله كاتب فكرة ومبدأ فظهر في آرائه المصلح الاجتماعي والناقد الذي يرسم لمجتمعه وأمتة مناهج الإصلاح والعلم والخير - في تمير بارع التصوير ، دقيق الفكر جميل الديباجة ، في قوة لفظ ودقة معنى .. ولذلك رأيت من الخير أن اقتبس بعض افكاره ، وأسجلها في ختام هذه الدراسة لتضفي ضوء على صاحب الترجمة ولتكشف أعماقه الفكرية فيزداد به القارئ علماً وخبراً ..

قال في الموقف الأدبي ص ١٣٩ - ١٤٢ وحي الرسالة :

« ولحق ان المسارعة في الانتاج العام قبل استكمال وسائله ميزة بيّنة في أدب الجيل الحديث فان الالمام باللغات الاجنبية والوقوف على قواعد الفن الاوربية لا يجعلان المرء كاتباً في العربية ما لم يدرس هذه اللغة دراسة قوية تردها طيبة لقلمه ، لينه على لسانه ، والاعتماد في اكتساب الأدب على محاكاة

الناذج ، وتقليد المثل لا يقوم عليه فن ، ولا ينهض به فنان معدود ، وما كان المثل ليغني عن القاعدة وهو لا يضيء إلا ناحية من الطريق ، والقريحة نفسها وهي غريزة الادب والفن في الانسان ليست على الكمال اليوم بحيث تجزى عن القواعد ، كذلك الذوق وهو أداة الجمال كما ان العقل أداة الحق ، لا يمكن أن يكون طريقاً مأمونة الى عمل صحيح ، فانه موهبة طبيعية تختلف في الناس وفي الاجناس ، وتحتاج الى المراتة بالدرس والعادة ، وليس لها ما للعقل من سلطان واطمئنان وثبوت ، وانك لتجد عقلاً مستقلاً لا يختلف ولا يتغير ، لأن هناك حقيقة مستقلة تتميز بالوضوح والجلال ، ولكنك لا تجد مهماً تستقرىء وتستقصى ذلك الذوق المطلق المستقل الذي لا يختلف باختلاف الألوان والأزمان والامكنة .. أما القواعد فهي نتيجة التجارب وخلاصة الملاحظات على طول القرون ، وضعتها القرائح المنطقية المتعاقبة بعد أن فقهت أصول الأشياء ، ودرست علائق هذه الأصول ، واستخلصت نتائج هذه العلائق ، ثم صاغت هذه النتائج قواعد وقالت لها انها أمثل الطرق لاحسان العمل ... دون أن تخضع عبقريتك لها ، ولا أن تسمح لهواك بالخروج عليها ، فان بين الاستبداد والفوضى نظاماً أحق أن يؤثر ويتبع .

وبعد : فان الفنان والناقد إنما يتعاونان على فهم الجمال ، كما يتعاون القاضي والمحامي على فهم العدل ، فليس من الخير لأحدهما أن يكون مع الآخر على خلاف ، وان الادب الشيخ والادب الشاب ليتعاونان على قيادة النفس ، كما يتعاون البصر والجناحان على قيادة الطائر ، فليس من خير أحدهما أن يكون من الآخر على قطيعة ..

والادب الرفيع من بعد ذلك كله صلة المرء بربه ، ينفي الأدنى عن لسانه ويذهب الغل عن قلبه ..

ان النقد ملكة فنية وتربوية أصيلة وثقافة شاملة للاصول مرتكزة على القواعد والدوق السليم ، ولا يحق للنقاد ان يمارس هذا الفن الجليل من غير وسائل ومعرفة قواعده ومذاهبه ، أما ما يفعله بعض من تصدى للنقد من الناشئين وحسنى غير الناشئين بالناس الاغلاط الاملائية أو الاخطاء البسيطة أو تسفيه فكرة وتقبيح أسلوب والحكم على الكتاب بالفهاة أو السهجة فليس من فن النقد وإنما هو من باب الهدم والشم ، وبما -
والغيرة أو سوء الفهم .

النقد المزيف :

يقول الزيات في مثل هذا النوع :

« ان هذا الضرب من النقد ، أما أن ينبعث من مكان الحقن فيرمي الى التجريح وأما أن ينطلق من مواضع الغرور فيسعى الى الهدم ، كان الناقد منذ قريب يعتمد الى الكتاب القيم في الفلسفة ، أو التاريخ ، أو القانون ، قد ألفه مؤلفه من دمه وعصبه وعقله وعمره وماله ، فيقف منه موقف الحاسد الأحمق ينقد في بعض صفحاته فملاً عدائي بغير حرفة ، أو اسماً جمع على غير قياسه ، وقد يكون لكل منها وجه - ثم يحكم على الكتاب كله بأنه سخيف لا يقرأ وضعيف لا يعيش ، ثم أصبح اليوم يعرض الموضوع فيقول :

هذا قديم لأنه يدور على بحث في تاريخ الشرق أو على معنى من معاني الدين ، أو على أثر من آثار البلاغة ، وهذا جديد لأنه يقوم على حادثة من حوادث الغرب أو على رجل من رجال الاكاديمية ، أو على غانية من غواني المسرح ، وهذا مقلد لأن أسلوبه شريف يمتنع ، وهذا مجدد لأن أسلوبه مبتذل ممكن ، ثم تقصف باقلامهم اللينة نخوة الحفاظ

وحماسة القوة فيصيحون : أميتوا أدب العاطفة وأحيوا أدب القوة ،
أييدوا أدب الخاصة وأوجدوا أدب الشعب أنبذوا أدب المقالة والزموا
أدب القصة ..

صيحة قرارها ومقامها باطل ، فإن اجماع الناس واقع أن خلق الأدب
الحديث من أدب القوة ، وأدب القصة خليل لا بد أن يسد ، ونقص
لا بد أن يكمل .. ولكن من الذي يقول ويعني ما يقول : ان وجود هذه
الانواع يقتضي عدم الأخرى ؟

أن لكل فن من الادب طبقة من الناس تتذوقه ، وإذا منعها إياه
طلبته ، والناقص لا يكمل برفع نقص ووضع نقص ، والبناء لا يتم بهدم
ركن وإقامة ركن ..

أرايتك^(١) إذا كان الأدب كله قوياً يخشن الصدور ، وحساسياً يؤثر
الحفاظ ، أفما كنت تقول : أين الأدب الذي يصور ألوان الحياة المريرة
ويترجم القلوب الكبيرة ، ويرقق حواشي الانفس الجافية ؟

أرايتك إذا كان الأدب كله شعبياً يعبر بالسنة السوقية وينقل عن
عواطف العامة ، أفما كنت تقول : أين الأدب الذي يرضي أذواق
الخاصة فيجمع بين سمو الفكرة ونبل العاطفة وقوة الاسلوب في صورة
من الفن الرفيع تسمو بالنفوس الى المثل الأعلى وتغمر الشعور بالجمال الخالد ..

الأدب صورة النفس ، فلا بد أن ترسم فيه مشاعر الفرد ، والأدب
مرآة الحياة فلا بد أن تنعكس فيه ألوان المجتمع ، وما دام في الناس
الحساس واللينيد ، والخوار والجليد ، وفي الدنيا التفاوت الذي يوجد

(١) ارايتك : بمعنى اخبرني .

بالتأني ، والالم الذي يفجر بالدموع ، واللذة التي تبعث المسرة ، والمدنية التي
تخلق التنوع ، فلا بد أن يكون الادب الصحيح صدى لكل اولئك ..

ليست وظيفة النقاد أن يهدم أو يثبت أو يشرع ، تلك وظيفة
الطبيعة التي تطور كل شيء ، وتغير كل نظام وتسد كل عوز
وفق قانون ثابت ..

إنما وظيفة الناقد أن ينظم الموجود ، ويثبت الاذهان إلى المفقود ،
أما أن يحاول تغيير الطبع بقانون وقلب الاوضاع بمقالة ، وبحو الثابت
بمكتبة ، فذلك عبث لا يخلق بكرامة انسان ، ويهريج لا يزكو
بضمير فنان ..

صدق الفن : (١)

« والصدق في الفن ، جوهر بلاغته ، وسر دوامه ، وهو في البيان
وضع اللفظ في موضعه ووصف الشيء بصفته ، ومطابقته الكلام لمقامه ،
واكذب ما يكون البيان إذا ترادف لفظ ولفظ وتشابه معنى ومعنى ،
وتناقض رأى ورأى وتعارض وجه ووجه ، ولعلك لا تجد فيما نقرأ من هذه
المقالات (٢) لفظا يحاكي المعنى ولا معنى يجانبه الحق .. وأسلوب الكتاب
الايجاز ، والايجاز ملاك الاناة والفطنة ، فإذا قرأته قراءة العجلان ، لا
تظفر منه إلا بقبسة العجلان » .

الجمال في البلاغة والشعر :

« ان ابيّن خصائص خصائص الجمال الذكاء والوفرة ، فتزاحم المواطف ،
وتكاثر الصور وتوافر الافكار ، ثم اتساع الخواطر بالذهن النير الذي

(١) مقدمة الجزء الاول من وحي الرسالة .

(٢) افتتاحيات الرسالة .



المشايخ طه الهاشمي

يحياها ويقويها ويستولدها ، وغزارة اللغة وخصوبتها وقدرتها على أن تعبر
عن العلاقات الجديدة للحياة ، أو على أن تفيض من الحرارة والقوة على
الحركات المختلفة للنفس ، كل أولئك يلاً شعاب القلب بالاعجاب وذلك
الاعجاب الذي تحسه هو عاطفة الجمال .

خصائص الجمال :

« ان الخصائص المميزة للجمال هي : القوة ، والوفرة ^(١) ، والذكاء ، والمراد
بالقوة شدة العمل وحدته . وبالوفرة كثرة الوسائل وخصوبتها ، والذكاء الطريقة
الرشيدة المفيدة لتطبيق هذه الوسائل ، ولا جدال في ان الحواس ليست
كلها أهلاً لنقل هذه الخصائص الجمالية الثلاث ، وإنما ينفرد منها السمع
والبصر بنقل أحاسيسها نقلاً قوياً يشير الدهش والاعجاب واللذة . أما
الإنفعال الذي يأتيك عن طريق الشم والمموسة والخصونة والصلابة واللدونة
والحرارة والبرودة ، فأحاسيس بسيطة عقيمة ، قد توقض في النفس ذكرى
خابية أو عاطفة غافية .

الجمال في المادة :

وشأن الجمال في المادة لا يختلف عن شأنه في الفكر والعاطفة ،
فإنك إذا ذهبت تبحث في الطبيعة عن الصفة العامة للجمال لم تجدها غير
القوة أو الوفرة أو الذكاء . ففي الحيوان تجد هذه الصفات الثلاث
بحسمة ومتفرقة ، ففي جمال الأسد القوة ، وفي جمال الطاووس الوفرة ،
وفي جمال الإنسان الذكاء ، ولا أقصد ذكاء الإنسان في نفسه ، وإنما أقصد

(١) الوفرة : اذا كثر الشيء واتسع وتم وكمل .

ذكاء الطبيعة في تهنيئته وثقيفه ، وذكاء الطبيعة معناه مطابقة طرائقها لصورها ، وملائمة وسائلها لغاياتها ، فغايتها من الرجل غير غايتها من المرأة ، ولذلك اختلفت الوسائل في الزوجين ، وتباين مقياس الجمال في الجنسين ، أرادت الطبيعة من الرجل أن يعمل ويقا تل ويحمي زوجته ويعول أسرته ، فزودته بما يحقق هذا المراد ويمضي تلك الإرادة تركيب وثيق يحكم تم ملاحظه على السرعة والمهارة والقوة والشجاعة ، وجسم متجاوب الاعضاء متناظر الشكول متوازن الاوضاع يصلح لكل عمل ويقدر على كل حركة ويستقيم على أي صورة وسمات من الشهامة والجرأة والحنان والحساسية تفيض من العيون وتنتشر على الوجوه وتحتاج على الشفاء ، وجملة من الصفات الخلقية والجسمية تؤلف في الإنسان مزايا الجمال الذكر فإذا قلت رجل جميل كان معنى ذلك أن الطبيعة وهي تكونه عرفت ما تفعل وفعلت ما تريد .

جمال المرأة :

« ولعل جمال المرأة ابداع مثل للجمال الطبيعي لو تدبرته ، وسر الاعجاب فيه هو سر الاعجاب في جمال الرجل ، أعني الذكاء ، والذكاء كما قلت ابداع الوسائل الملائمة للغاية ، ثم تطبيق هذه الوسائل على غايتها في نظام دقيق يحكم ، فأنت لا تستطيع أن تفقه جمال المرأة إلا إذا وقفت على حكمة الله فيها ، وغرض الطبيعة منها ، وأدركت ما بين طبيعة خلقها وعلة وجودها من المواممة التي تسترق الافئدة وتدق على افهام البشر .

السياسة :

ليس من ذأبنا أن نعرض للسياسة إلا من حيث اتصالها بالخلق أو بالأدب ، والخلق والأدب موضوع السياسة العليا التي لا تتجزأ ، ولا

تتعصب ، ولا تعرف تحوم المكان ولا حدود الزمان ، ولكن بينها وبين السياسة الدنيا تفاعلا وتبادلا لا يفترقان فهي تؤثر فيها وهما يؤثران فيها ، وهي تغير منها وهما يغيران منها ، والخلق بخاصة مساك الأمة ، وملاك الأمر ، ولم تؤت النهضات القومية في الشرق إلا من جهة فساد ، ذلك لأن الحال في الأمة العائدة أو الناشئة التي يخرج أهلها وحدانا من ظلام الجهل والغفلة ، أن يسعى المرء فيها ليعنى ، ويعنى ليعتزم ، ويعتزم ليحكم ، ويحكم ليستبد ، ويستبد ليطغى ، ويطغى ليتأله ، سلسلة من القرائن الجافية الرذيلة حلقاتها الشهوة والطمع والغلبة والاثرة والجوح والبغي ، يصل بينهما جميعاً أنانية غالبة ، وفردية أصيلة ، فالأهل والأصحاب والأحزاب إنما يتعاملون بغير الحق ، ويتجادلون بغير المنطق وابتغاء الفوز من وراء الباطل ، والغلبة من طريق القوة لأن « الأنا » لا يعرف الغير ، والذات لا تدرك المعنى ، إلا إذا أضاء العلم ما حوله مما فظهرت الأشخاص وبانت الفروق ، ووضحت الحقوق ، وتبرزت المعالم ، وحينئذ يقول كل امرئ لنفسه أول مرة أن في العالم ناساً غيري وأن لهم حقاً كحقي ، ومتى شعر المرء بالناس وفطن الى وجود الحق ، تولدت فيه معاني الإنسانية والديمقراطية والعدل ، فيصبح خالصاً للجماعة إذا سعى وللوطن إذا تزعم وللدولة إذا حكم ..

نحن الى اليوم لم نخرج عن ذواتنا في العمل والسياسة والحكومة ، نقيس كل شيء بمقياس الفائدة الخاصة ، ونحمل كل أمر على محمل الهوى الفرد ، ونغلب ارادتنا على إرادة الأمة في الحق المشاع ، حتى اقتنصع المستريب بأننا تعلمنا الكلام ولم نتعلم العمل .. وحذقنا فنون الدعاية ولم نحقق أصول الحكم ، وحفظنا مصطلحات الدستور ونسينا مبادئه الثورية كان ذلك مقبولا محمولا والجهل غاش على العيون رائن على الأفئدة ، أما الآن فقد تلبه الغفلان الى أن من استطاع أن يرفع المظلوم

يسهل عليه أن يخفض الظالم .. وتذكر الناسي أنت له دستوراً يجعل
مصدر السلطات في قم المحكوم لا يد الحاكم .. فمن ذا الذي يوسوس
إليه شيطانه أن يرفع في وجه الاسود وأشباه الاسود عصا القطيع ؟
ومن ذا الذي يسول له طغيانه أن يرتفع على كواهل الشعب ويقول أنا
سيد الجميع ؟

لقد كان لبعضكم يا زعماء الساعة اخطاء على الامة في بعض الامور ،
ملكتم عليها الصبر ولم تملك لها المغفرة ، وقد أتاح لكم القدر هذه الفرصة
لتصححوا بصواب اليوم خطأ الامس ، وتبددوا بيقين الحاضر ظنون
المستقبل ، فهل تدعونها تتركها غير أريج الطيب بالرجل الاخشم .

أن بعضكم بلغ ساحل الحياة ، وبعضكم جاوز حد الثروة ،
وكلكم تفرح ذروة الجاه فعاذا بقعدكم عن ابتناء المجد المؤئل وابتغاء
الذكر الخالد ..

نريد أن يكون الزعيم لجنسه لا لنفسه ، ولشعبه دون حزبه ،
ولغده قبل يومه ، حتى يتذوق هذا الشعب الجهود لذة الإخوة في ظل
الوطن ، وعزة الحرية في كتف الدستور وجمال المساواة في حمى الحكم
الصالح . نريد أن تلبغوا سيامة الخطب وتقصروا السنة الوعود وتخفتوا
ضجيج المظاهر ، وتكفوا عن كرامة الناس صلف المنصب وزهو السلطان
وبطر الجاه ، فان العربي أكره الناس للزعيم المفرور والوزير المتغطرس
والنائب الأثر ...

« وهي الرسالة من ٤٣٥ - ٤٣٧ »

جزء ٢

وكتب تحت مقال - كيف نعالج الفقر :

« هيئات أن يكون في الأرض إيمان ، ما دام في الأرض فقر ،
فإن أسباب الفقر ممدودة من الطمع والشح والأثرة ، وهذه الحلال
السوء لا تظمن عليها نفس مؤمنة ، وإن من ظلال الأفهام والأقلام أن
تعالج الفقر على أنه ناجم من ندرة العمل في البلد أو قلة الخير في الدنيا ،
فإن العمل ميسور للقادر ورزق الله موفور للحي ، وإذا شكت الأمم
اكتظاظ المعامل ، ونضوب الموارد ، وضيق الرقعة ، فإن مصر الجديدة
البكر بينها وبين هذه الشكوى أن تنصر المصانع والمعامل والمتاجر
والمصارف والشركات وما بالقليل ذلك ..

لا تطلبوا من الفقير العمل قبل أن توفروا له القدرة عليه ، أنه جاهل
فاثمروا له منهل العلم وأنه عليل فانهجوا له سبيل الصحة ، وأنه
معدم فديروا له رأس المال ومن بلادة الحس أن التقى بسمعك وأنت
تقرأ هذا الكلام ، فلا يظن المخاطب به أحداً غير الحكومة ، فيشارك
في النقد ويسرف في الإنكار ، ويلج في الطلب ، لأن الحكومة في
رأيه يجب أن تلي كل نداء وأن تؤدي كل واجب . والحكومة لو
درى هذا المتواكل الغد لا تتسع مواردنا لكل رغبة ، فإنها لم تجب
منه ومن أمثاله إلا حق العبارة والأمن ، أما حق الله عنده فقد وكلت
إدائه إلى ضميره ، يعطيه من يشاء متى يشاء وكيف يشاء ، ولكن
الضمان نامت على هدمه الشهوات ، والعواطف قست على جفاف المادة ،
وبين غفوة الضمير وقسوة العاطفة ذهب وازع الدين ، فلم يبق إلا
وازع السلطان ...

فهل يفكر أولو الأمر أن يعالجوا الفقر بما عالج به الله ، فيجيبوا
الزكاة ، وينظموا الإحسان ؟ انهم أن فعلوا ذلك لا يحدوا في البيوت
عائلاً ، ولا في الطريق سائلاً ولا في السجون قاتلاً ...

رحي الرسالة الجزء الثاني

٦ شباط سنة ١٩٣٩

ومن مقال - اقتلوا الجوع تقتلوا الحروب :

ولا يزال في قدرة الله أن يكابد بنو آدم عقابيل البهيمية الأولى ،
فيوطأ المواثيق ، ويسترق العاني ، ويؤكل الضعيف ، ويكون هنا
الطمع والكزازة والأثرة ، وهناك الحسد والحزازة والثورة ، ثم لا يفصل
بين الواحد والفاقد غير الحرب ، فالجوع لا تنفك مشتتة وبين الأفراد
والفرد وبين الأسرة والأسرة ، وبين الأمة والأمة ، بالقول أو بالفعل ، وفي
السرا أو في الجهر ، حتى يتدارك الله عبادته فيهم ، نفوسهم لفض هذه
الخصومة ، بغير هذه الحكومة ..

والخصومة الأبدية بين الناس هي المادة ، والنكبة الازلية على
النظام والخلق هي الفقر . وكل ثورة في تاريخ الأمم أو جريمة في
حياة الأفراد إنما تمت بسبب قريب أو بعيد إلى الجوع . حتى الشهوة ،
شهوة الغرام أو الانتقام لا تقع في تاريخ الجناية إلا في المحل الثاني بعد
الجوع لأنها لا تكون إلا عرضاً من أعراض الشبع ، من أجل ذلك
جاء دين الله يخفف عن الفقير بالإحسان والعدل ، ويدفع عن الضعيف

بالمودة والرحمة ، ولكن عرام النفوس كان أقوى من أن يرده الثواب
المغيب والعقاب المؤجل ، فثبت على أمر الله ، وعللت نفسها بالنجاة
من باب التوبة المفتوح ، ومن طريق المغفرة الواسع ، ثم جاءت فلسفة
الناس أن تجد سلام المجتمع في أنظمة متناقضة بعضها في صدر بعض
فوق العالَم من جراء النزاع بين الفردية والاشتراكية ، والصراع بين
الديكتاتورية والديمقراطية ، في حرب عنيفة رعناء لا تأصدها آصرة ولا
تدركها شفقة حتى أكلت من أمة الأسباب وحدها مليوناً وربما من
شبابها الأمل العامل ، ثم أخذت تتخمد في هذا الميدان الضيق المحدود
لتستمر في ميدان لا حد له عرضه ولا نهاية لطوله هو العالم ...

وحي الرسالة الجزء الثاني

ص ١٩٠ - ٢٠٠



المحتوى

ص	
٣	الاهداء
٥	مقدمة
٨	مولد الزيات ونشأته
١٢	الاستقامة والوضوح سمة الزيات
١٤	الزيات في العراق
١٥	تحية بغداد
١٧	الأدب العربي
١٩	الزيات يشارك في تأبين عبد المحسن السعدون
٢١	مشاركة الزيات في حفلة تأبين عبد الرسول الجلي
٢٢	كلمة الزيات : الشباب الذابل
٢٥	تأمل ساعة
٢٩	مأساة الشاعر وضاح اليمن
٤٢	من الاثري الى الزيات
٤٨	رد الزيات
٥٣	عود على بدء
٦٥	مطابقة أدبية للدكتور مهدي البصير

٧٠	الأدب وغوامله وحظ العرب من تأريخه
٨٣	نسائم النيل الى وادي الرافدين
٨٦	تأريخ ألف ليلة وليلة
٨٩	لقاءات وصلات
٩٢	القهوة الضحيانة
٩٣	الحلقة
٩٧	ذكريات الصيف في بغداد
١٠٠	كيف كان العراقيون يتقنون البحر
١٠٧	الزيات والزهاوي
١١٧	وضوح العروبة لدى الزيات
١٢٠	الزيات عضو في الجمعية الثقافية العربية
١٢٧	حديقة النادي العسكري
١٣٢	من كتابه المفقود
١٣٧	الزيات بصحبة الملك علي
١٣٩	رستم حيدر
١٤٧	شباب العراق في مصر
١٤٩	نعمي الزهاوي
١٥٣	الزيات والرصافي
١٥٩	موقف الزيات من مقتل حسن سيف
١٦٤	رأي الدكتور طه حسين عن عروبة مصر
١٧١	الدكتور زكي مبارك يدافع عن العراق
١٧٣	مكانة مصر في العراق
١٧٦	تأريخ العراق المعاصر في حياة الشبيبي

١٩٥	بين الزيات والراوي
٢٠١	أسلوب الزيات للدكتورة عائكة الخزرجي
٢١٤	من ذكريات بغداد
٢٤٧	تأريخ ألف ليلة وليلة
٢٧٠	أصل الكتاب وطبعاته
٢٧٤	الطبعة المصرية
٢٧٧	مؤلف الكتاب وزمن تأليفه وسبب تسميته
٢٨٢	طريق الكتاب وأساقبه
٢٨٤	أساقبه
٢٨٨	فلسفته ومراميه
٢٩٢	مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته
٢٩٥	صديق الكلاب
٣٠٢	أشهر مؤلفاته
٣٠٤	نماذج من آرائه وأدبه
٣٠٥	الرجل المنتظر
٣٠٦	الجهاد عدة الاسلام
٣٢٧	النقد الادبي آخر مقال للزيات نشر بعد موته
٣٣٢	آراءه في القصة للزيات
٣٣٤	النقد المزيف
٣٣٩	في السياسة
٣٤٢	كيف نعالج الفقر
٣٤٣	اقتلوا الجوع تقتلوا الحرب

من مؤلفاتنا المطبوعة

- ١ - أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية - بغداد ١٩٦٧ .
- ٢ - الجزائر بلد المليون شهيد دراسات وأنطباعات - بغداد ١٩٦٩ .
- ٣ - الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر - تأليف علي علاء الدين الآلوسي « تحقيق » - بغداد ١٩٦٦ .
- ٤ - محمد كرد علي - بغداد ١٩٦٦ .
- ٥ - أدب الزيات في العراق - بيروت ١٩٧١ .









COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



1000107379